سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (٤٦)

شرح

أصول في التفسير

المتن والشرح

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (٤٦)

شرح

أصول في التفسير

المتن والشرح

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ⓗ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
شرح أصول في التفسير. / محمد بن صالح العثيمين. -الرياض، ١٤٣٤هـ
٤٦٣ ص؛ ١٧×٢٤سم. - (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ٤٦)
ردمك: ٩ - ٤ - ٩٠٢٠٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - مناهج التفسير أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,١ ١٤٣٤/٣١٦٢

الطبعة الأولى
ربيع الأول ١٤٣٤ هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص. ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ: ٠٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَقْدِيمٌ

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله من شُرور أَنْفُسنا ومن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أن لا إلَهَ إلَّا الله، وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالة، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّة، وجاهَد في الله حقَّ جِهادِه حتَّى أتاهُ اليَقينُ، فصَلواتُ الله وسلامُه عليهِ، وعلَى آلِه وأصحابِه، ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقَدْ كانَ مِنَ التَّوْجِيهاتِ التَّرْبَويَّة والنَّصائِح الجَليلةِ الَّتي كان يُسْدِيها صاحبُ الفَضِيلة العلَّامةُ شيخُنا محمَّد بنُ صالحِ العُثَيْمِين -رحمَهُ اللهُ تعالَى- إلَى طلَبة العلم، أن يَعْتنوا عِنايَة تامَّة بمعرفَة القَواعِد والأُصول الَّتِي قرَّرها أَهْل العِلم، مِن أَجْل أن يَسْلُكوا أَقْربَ الطُّرُق وأَسْلَمَها للفَوْز بالتَّحْصيل العِلمي وإِدْراك الغاياتِ المنشُودة لِدِراسة العُلوم الشرعيَّة.

ومِن حِرْصه -رحمَهُ اللهُ تعالَى- وَسَعْيه لتحقِيق هذا الهدَف؛ أَلَّف كتابَه (أُصولٌ فِي التَّفْسِيرِ) عام (١٣٩٧هـ)، ثُمَّ تَناوَله عِدَّة مرَّاتٍ بالشَّرْح والتَّعْليق والتَّقْرير في حلَقاته التَّعْليميَّة المتعدِّدة؛ غيرَ أَنَّه لم يُسَجَّل صوتيًّا من تِلك الشُّرُوحات سِوَى شَرْحَيْنِ؛ كان أُولاهُما عام (١٤١٦هـ)، والثَّاني عام (١٤١٩هـ)،

وذلك ضِمْن الدُّرُوس العِلْميَّة الَّتِي كان يَعْقِدها -رحمَهُ اللهُ تعالَى- في جامعِهِ بمدينة عُنَيْزَة.

وسعيًا لِتَعميم النَّفْع بهذَيْن الشَّرحَيْن؛ وإنفاذًا للقَواعد والضَّوابِط الَّتِي قرَّرها -رحمَهُ اللهُ تعالَى- لإِخْراج تُراثِه العِلْمي تَمَّ إِعْدادهما للطِّباعَة والنَّشْر.

نَسْأل اللهَ تعالَى أن يَجْعل هذا العملَ خالصًا لوجهِه الكَريم؛ مُوافِقًا لمرْضَاته، نافِعًا لعباده، وأن يجزِيَ فَضِيلة شيخِنا المؤلِّف عَنِ الإسلام والمسلِمين خَيْر الجَزَاء، ويُضاعِفَ لهُ المثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّين، وإِمام المُتَّقِين، وسيِّد الأوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّد؛ وعلَى آلِه وأصحابِه والتَّابعينَ لهم بإِحْسانٍ إِلَى يوم الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِينَ الخَيْرِيَّةِ.

غُرَّة مُحَرَّم (١٤٣٤هـ)

* * *

نبذة مختصرة عن
العلاّمة محمد بن صالح العثيمين
١٣٤٧- ١٤٢١هـ

نسبه ومولده:

هو صاحب الفضيلة الشيخ العالم المحقق، الفقيه المفسّر، الورع الزاهد، محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن آل عثيمين من الوهبة من بني تميم.

ولد في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام ١٣٤٧هـ في عنيزة -إحدى مدن القصيم- في المملكة العربية السعودية.

نشأته العلمية:

ألحقه والده رحمه الله تعالى -ليتعلم القرآن الكريم عند جدّه من جهة أمه المعلِّم عبد الرحمن بن سليمان الدامغ -رحمه الله -، ثمَّ تعلَّم الكتابة، وشيئًا من الحساب، والنصوص الأدبية في مدرسة الأستاذ عبدالعزيز بن صالح الدامغ -حفظه الله-، وذلك قبل أن يلتحق بمدرسة المعلِّم علي بن عبد الله الشحيتان -رحمه الله- حيث حفظ القرآن الكريم عنده عن ظهر قلب ولمّا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره بعد.

وبتوجيه من والده -رحمه الله- أقبل على طلب العلم الشرعي، وكان فضيلة الشيخ العلاّمة عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله- يدرِّس

العلوم الشرعية والعربية في الجامع الكبير بعنيزة، وقد رتَّب اثنين[١] من طلبته الكبار؛ لتدريس المبتدئين من الطلبة، فانضم الشيخ إلى حلقة الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع -رحمه الله- حتى أدرك من العلم في التوحيد، والفقه، والنحو ما أدرك.

ثم جلس في حلقة شيخه العلاّمة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله، فدرس عليه في التفسير، والحديث، والسيرة النبوية، والتوحيد، والفقه، والأصول، والفرائض، والنحو، وحفظ مختصرات المتون في هذه العلوم.

ويُعدّ فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله- هو شيخه الأول؛ إذ أخذ عنه العلم؛ معرفةً وطريقةً أكثر مما أخذ عن غيره، وتأثر بمنهجه وتأصيله، وطريقة تدريسه، واتِّباعه للدليل.

وعندما كان الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان -رحمه الله- قاضيًا في عنيزة قرأ عليه في علم الفرائض، كما قرأ على الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- في النحو والبلاغة أثناء وجوده مدرّسًا في تلك المدينة.

ولما فتح المعهد العلمي في الرياض أشار عليه بعضُ إخوانه[٢] أن يلتحق به، فاستأذن شيخَه العلاّمة عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله- فأذن له، والتحق بالمعهد عامي ١٣٧٢-١٣٧٣هـ.

ولقد انتفع -خلال السنتين اللّتين انتظم فيهما في معهد الرياض العلمي- بالعلماء الذين كانوا يدرِّسون فيه حينذاك ومنهم: العلاّمة المفسِّر

(١) هما الشيخان محمد بن عبد العزيز المطوع، وعلي بن حمد الصالحي رحمهما الله تعالى.
(٢) هو الشيخ علي بن حمد الصالحي رحمه الله تعالى.

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ الفقيه عبدالعزيز بن ناصر بن رشيد، والشيخ المحدِّث عبد الرحمن الإفريقي -رحمهم الله تعالى-.

وفي أثناء ذلك اتصل بسماحة الشيخ العلاّمة عبد العزيز بن عبد الله ابن باز -رحمه الله-، فقرأ عليه في المسجد من صحيح البخاري ومن رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، وانتفع به في علم الحديث والنظر في آراء فقهاء المذاهب والمقارنة بينها، ويُعدُّ سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله- هو شيخه الثاني في التحصيل والتأثُّر به.

ثم عاد إلى عنيزة عام ١٣٧٤هـ وصار يَدرُسُ على شيخه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ويتابع دراسته انتسابًا في كلية الشريعة، التي أصبحت جزءًا من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، حتى نال الشهادة العالية.

تدريسه:

توسَّم فيه شيخه النّجابة وسرعة التحصيل العلمي فشجّعه على التدريس وهو ما زال طالبًا في حلقته، فبدأ التدريس عام ١٣٧٠هـ في الجامع الكبير بعنيزة.

ولّما تخرَّج من المعهد العلمي في الرياض عُيِّن مدرِّسًا في المعهد العلمي بعنيزة عام ١٣٧٤هـ.

وفي سنة ١٣٧٦هـ توفي شيخه العلاّمة عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله تعالى- فتولّى بعده إمامة الجامع الكبير في عنيزة، وإمامة العيدين

فيها، والتدريس في مكتبة عنيزة الوطنية التابعة للجامع؛ وهي التي أسسها شيخه -رحمه الله- عام ١٣٥٩هـ.

ولما كثر الطلبة، وصارت المكتبة لا تكفيهم؛ بدأ فضيلة الشيخ -رحمه الله- يدرِّس في المسجد الجامع نفسه، واجتمع إليه الطلاب وتوافدوا من المملكة وغيرها حتى كانوا يبلغون المئات في بعض الدروس، وهؤلاء يدرسون دراسة تحصيل جاد، لا لمجرد الاستماع، وبقي على ذلك، إمامًا وخطيبًا ومدرسًا، حتى وفاته -رحمه الله تعالى-.

بقي الشيخ مدرِّسًا في المعهد العلمي من عام ١٣٧٤هـ إلى عام ١٣٩٨هـ عندما انتقل إلى التدريس في كلية الشريعة وأصول الدين بالقصيم التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وظل أستاذًا فيها حتى وفاته- رحمه الله تعالى -.

وكان يدرِّس في المسجد الحرام والمسجد النبوي في مواسم الحج ورمضان والإجازات الصيفية منذ عام ١٤٠٢هـ، حتى وفاته -رحمه الله تعالى-.

وللشيخ -رحمه الله- أسلوب تعليمي فريد في جودته ونجاحه، فهو يناقش طلابه ويتقبل أسئلتهم، ويُلقي الدروس والمحاضرات بهمَّة عالية ونفسٍ مطمئنة واثقة، مبتهجًا بنشره للعلم وتقريبه إلى الناس.

آثاره العلمية:

ظهرت جهوده العظيمة -رحمه الله تعالى- خلال أكثر من خمسين عامًا من العطاء والبذل في نشر العلم والتدريس والوعظ والإرشاد والتوجيه

وإلقاء المحاضرات والدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى-.

ولقد اهتم بالتأليف وتحرير الفتاوى والأجوبة التي تميَّزت بالتأصيل العلمي الرصين، وصدرت له العشرات من الكتب والرسائل والمحاضرات والفتاوى والخطب واللقاءات والمقالات، كما صدر له آلاف الساعات الصوتية التي سجلت محاضراته وخطبه ولقاءاته وبرامجه الإذاعية ودروسه العلمية في تفسير القرآن الكريم والشروحات المتميزة للحديث الشريف والسيرة النبوية والمتون والمنظومات في العلوم الشرعية والنحوية.

وإنفاذًا للقواعد والضوابط والتوجيهات التي قررها فضيلته -رحمه الله تعالى- لنشر مؤلفاته، ورسائله، ودروسه، ومحاضراته، وخطبه، وفتاواه ولقاءاته، تقوم مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية -بعون الله وتوفيقه- بواجب وشرف المسؤولية لإخراج كافة آثاره العلمية والعناية بها.

وبناءً على توجيهاته -رحمه الله تعالى- أنشئ له موقع خاص على شبكة المعلومات الدولية(١)، من أجل تعميم الفائدة المرجوة -بعون الله تعالى- وتقديم جميع آثاره العلمية من المؤلفات والتسجيلات الصوتية.

أعماله وجهوده الأخرى:

إلى جانب تلك الجهود المثمرة في مجالات التدريس والتأليف والإمامة والخطابة والإفتاء والدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- كان لفضيلة الشيخ أعمال كثيرة موفقة منها ما يلي:

---

(١) www.binothaimeen.com

- عضوًا في هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية من عام ١٤٠٧هـ إلى وفاته.
- عضوًا في المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في العامين الدراسيين ١٣٩٨-١٤٠٠هـ.
- عضوًا في مجلس كلية الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم ورئيسًا لقسم العقيدة فيها.
- وفي آخر فترة تدريسه بالمعهد العلمي شارك في عضوية لجنة الخطط والمناهج للمعاهد العلمية، وألّف عددًا من الكتب المقررة بها.
- عضوًا في لجنة التوعية في موسم الحج من عام ١٣٩٢هـ إلى وفاته - رحمه الله تعالى- حيث كان يلقي دروسًا ومحاضرات في مكة والمشاعر، ويفتي في المسائل والأحكام الشرعية.
- ترأس جمعية تحفيظ القرآن الكريم الخيرية في عنيزة من تأسيسها عام ١٤٠٥هـ إلى وفاته.
- ألقى محاضرات عديدة داخل المملكة العربية السعودية على فئات متنوعة من الناس، كما ألقى محاضرات عبر الهاتف على تجمعات ومراكز إسلامية في جهات مختلفة من العالم.
- من علماء المملكة الكبار الذين يجيبون على أسئلة المستفسرين حول أحكام الدِّين وأصوله عقيدة وشريعة، وذلك عبر البرامج الإذاعية من المملكة العربية السعودية وأشهرها برنامج (**نور على الدرب**).

- نذر نفسه للإجابة على أسئلة السائلين مهاتفة ومكاتبة ومشافهة.
- رتَّب لقاءات علمية مجدولة، أسبوعية وشهرية وسنوية.
- شارك في العديد من المؤتمرات التي عقدت في المملكة العربية السعودية.
- ولأنه يهتم بالسلوك التربوي والجانب الوعظي اعتنى بتوجيه الطلاب وإرشادهم إلى سلوك المنهج الجاد في طلب العلم وتحصيله، وعمل على استقطابهم والصبر على تعليمهم وتحمل أسئلتهم المتعددة، والاهتمام بأمورهم.
- وللشيخ -رحمه الله- أعمال عديدة في ميادين الخير وأبواب البرّ ومجالات الإحسان إلى الناس، والسعي في حوائجهم وكتابة الوثائق والعقود بينهم، وإسداء النصيحة لهم بصدق وإخلاص.

مكانته العلمية:

يُعَدُّ فضيلة الشيخ -رحمه الله تعالى- من الراسخين في العلم الذين وهبهم الله -بمنّه وكرمه- تأصيلًا ومَلَكة عظيمة في معرفة الدليل واتباعه واستنباط الأحكام والفوائد من الكتاب والسنّة، وسبر أغوار اللغة العربية معانِيَ وإعرابًا وبلاغة.

ولما تحلَّى به من صفات العلماء الجليلة وأخلاقهم الحميدة والجمع بين العلم والعمل أحبَّه الناس محبة عظيمة، وقدّره الجميع كل التقدير، ورزقه الله القبول لديهم واطمأنوا لاختياراته الفقهية، وأقبلوا على دروسه وفتاواه وآثاره العلمية، ينهلون من معين علمه ويستفيدون من نصحه ومواعظه.

وقد مُنح جائزة الملك فيصل -رحمه الله تعالى- العالمية لخدمة الإسلام عام ١٤١٤هـ، وجاء في الحيثيات التي أبدتها لجنة الاختيار لمنحه الجائزة ما يلي:

" **أولًا**: تحلِّيه بأخلاق العلماء الفاضلة التي من أبرزها الورع، ورحابة الصدر، وقول الحق، والعمل لمصلحة المسلمين، والنصح لخاصتهم وعامتهم.

" **ثانيًا**: انتفاع الكثيرين بعلمه؛ تدريسًا وإفتاءً وتأليفًا.

" **ثالثًا**: إلقاؤه المحاضرات العامة النافعة في مختلف مناطق المملكة.

" **رابعًا**: مشاركته المفيدة في مؤتمرات إسلامية كثيرة.

" **خامسًا**: اتباعه أسلوبًا متميزًا في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتقديمه مثلًا حيًّا لمنهج السلف الصالح؛ فكرًا وسلوكًا.

عقِبُه:

له خمسة من البنين، وثلاث من البنات، وبنوه هم: عبد الله، وعبد الرحمن، وإبراهيم، وعبد العزيز، وعبد الرحيم.

وفاته:

تُوفي -رحمه الله- في مدينة جدّة قبيل مغرب يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر شوال عام ١٤٢١هـ، وصُلِّي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة عصر يوم الخميس، ثم شيّعته تلك الآلاف من المصلّين والحشود العظيمة في مشاهد مؤثرة، ودفن في مكة المكرمة.

وبعد صلاة الجمعة من اليوم التالي صُلِّي عليه صلاة الغائب في جميع مدن المملكة العربية السعودية.

رحم الله شيخنا رحمة الأبرار، وأسكنه فسيح جناته، ومَنَّ عليه بمغفرته ورضوانه، وجزاه عما قدّم للإسلام والمسلمين خيرًا.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِينَ الخَيْرِيَّةِ.

* * *

١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليماً .

أما بعد : فإن من المهم في كل فن أن يتعلم المرء من أصوله ما يكون عوناً له على فهمه وتخريجه على تلك الأصول ليكون علمه مبنياً على أسس قوية ودعائم راسخة وقد قيل : من حرم الأصول حرم الوصول .

ومن أجل فنون العلم بل هو أجلها وأشرفها علم التفسير الذي هو ~~تبيين~~ تبيين معاني كلام الله عز وجل وقد وضع أهل العلم له أصولاً كما وضعوا لعلم الحديث أصولاً ولعلم الفقه أصولاً .

وقد كنت كتبت من هذا العلم ما تيسر لطلاب المعاهد العلمية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فطلب مني بعض الناس أن أفردها في رسالة ليكون ذلك أيسر وأجمع فأجبته إلى ذلك . وأسأل الله تعالى أن ينفع بها . وتتلخص ذلك فيما يأتي :

القرآن الكريم .

- متى نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ومن نزل به عليه من الملائكة .
- أول ما نزل من القرآن ~~وهل ترتيب آياته وسوره بنص أو اجتهاد~~
- نزول القرآن على نوعين : ~~بسبب وبغير سبب~~ سببي وابتدائي .
- القرآن مكي ومدني وبيان الحكمة من نزوله مفرقاً . وترتيب القرآن .
- كتابة القرآن وحفظه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم .
- جمع القرآن في عهد أبي بكر و~~عمر~~ عثمان رضي الله عنهما .
- معنى التفسير لغة واصطلاحاً وبيان حكمه والغرض منه .

- الواجب على المسلم في تفسير القرآن .

المرجع في التفسير إلى ما يأتي :

١- كلام الله تعالى بحيث يفسر القرآن بالقرآن .
٢- سنة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه مبلغ عن الله تعالى وهو أعلم الناس بمراد الله تعالى في كتابه .
٣- كلام الصحابة رضي الله عنهم لا سيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم .
٤- كلام كبار التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم .
٥- ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللغوية حسب السياق فإن اختلف الشرعي واللغوي أخذ بالمعنى الشرعي إلا بدليل يرجح اللغوي .

ترجمة القرآن . تعريفها . أنواعها . حكم كل نوع .

~~المفسرون المشتهرون بالتفسير ثلاثة للصحابة واثنان للتابعين~~

أقلب الصفحة

الصفحة الأولى من المتن بقلم فضيلة الشيخ المؤلف رحمه الله تعالى

٢٨

فحول الكلام من الخطاب إلى الغيبة في قوله (وجرين بهم).
٣- الالتفات من الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى (وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا) فحول الكلام من الغيبة إلى التكلم في قوله (وبعثنا).
٤- الالتفات من التكلم إلى الغيبة كقوله تعالى (إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ) فحول الكلام من التكلم إلى الغيبة في قوله (لربك).
وللالتفات فوائد منها:

١- حمل المخاطب على الانتباه لتغير وجه الأسلوب عليه.
٢- حمله على التفكير في المعنى لأن تغير وجه الأسلوب يؤدي إلى التفكير في السبب.
٣- دفع السآمة والملل عنه لأن بقاء الأسلوب على وجه واحد يؤدي إلى الملل غالبا.

وهذه الفوائد عامة للالتفات في جميع صوره.
أما الفوائد الخاصة فتتعين في كل صورة حسب ما يقتضيه المقام.
والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

الصفحة الأخيرة من المتن بقلم فضيلة الشيخ المؤلف رحمه الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى-:

«الحمد لله، نحمدُه، ونستعينه، ونستغفره، [ونتوب إليه]، ونعوذ بالله من شُرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالِنا، من يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلِ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، صلى الله عليه وعلى آلِه وأصحابِه، ومَنْ تبعهم بإحسانٍ، وسلَّم تسليمًا».

الشـرح

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمدٍ، وعلى آلِه، وأصحابِه، ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

بدأَ المؤلِّفُ كتابَه بهذه الخُطْبةِ التي تُسمَّى «**خُطْبَة الحاجَة**»، ومضمونُ هذه المقدِّمة أنَّ علم التفسيرِ هو أَجَلُّ العُلوم؛ لأنَّ العِلم يَشْرُف بشرف موضوعِه، وموضوعُنا مِن التفسيرِ هُو كَلامُ الله -عز وجل-، وكَلامُ الله أشرفَ الْكَلامِ، وهو أحبُّ الكلامِ أن يُفْهَم، وأَوْجبُ الكلامِ أن يُعْمَل بِهِ، وعَلى هذا يكونُ عِلمُ أُصولِ التفسيرِ من أَجَلِّ العُلوم.

والعلماءُ -رحمهم الله- وَضعوا لِلعُلوم كلِّها بأصنافِها أُصولًا تَرْجع إليها، فأهلُ الفقهِ وضعوا أصولَ الفقهِ، وأَهلُ الحديثِ وضعوا مُصطلحَ الحديثِ؛ حتَّى يرجِعَ الإنسانُ إلى أُسُسٍ وأُصولٍ؛ لأنَّ الرُّجُوعَ إِلى الأُصُولِ

في نَظرِي ونظرِ غيرِي هُو العلمُ حقيقةً، دُون العِلْمِ بالجزْئِيَّات والمسَائِلِ المفْرَداتِ؛ ولذلك إذا مَنَّ اللهُ على الإنسانِ بمعرفة الأُصُول انفتَحَ له مِن أَبوابِ الْعِلْم شيءٌ كثيرٌ؛ لِذَلك وضعْنَا هذه الأُصولَ عَلَى حسب منهج الثانويَّةِ بالمعهد العِلْميِّ، ولكنَّها وإِنْ كانتْ لـهذا المسْتَوى مِن الطلَّابِ فَهِي مفيدةٌ -إن شاءَ اللهُ-، ولذَلِك قرَّرْنا أنْ تكون القراءَةُ فِيها في هذه الجلسات.

قوله: «الحمد» هو وصفُ المحمود بالكمال مع المحبةِ والتعظيم.

ويكون الحمدُ إما لكمال المحمودِ، أو لإنعامه، كذلك هو فَضل وإِفْضَالٌ، فالآكل إذا أكل يحمدُ الله -عز وجل- على إحسانِه وإِنْعامِه؛ لقول النبيِّ ﷺ: «**إِنَّ الله لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**»(١).

و«**اللاَّم**» في قوله: «**لله**» للاستحقاقِ والاخْتِصاص، أما كونُها للاسْتِحقاق؛ فإنَّ أحقَّ من يُحمد هو اللهُ -عز وجل-، وأمَّا كونُها للاختصاص؛ فلأنَّ الحمدَ مُستَغْرِقٌ لجميع أَنْواعِ المحامِدِ؛ لأنَّ «**أل**» في «**الحمدُ**» للاسْتِغراقِ، والذي يَخْتَصُّ بالحمد كلِّه هو اللهُ -عز وجل-. ولهذَا نقول: «**اللام**» في «**الحمدُ لله**» للاستِحْقَاق والاخْتِصاصِ.

وقوله: «نحمده» جملةٌ توكِيديَّةٌ، أي: توكيدٌ في المعنَى؛ لقوله: «**الحمدُ لله**».

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٤).

وقوله: «نستعينُه» أي: نطْلُب منه العَوْنَ، وقولُه: «نستغفره» أي: نطْلُب منه المغفرةَ، فأمَّا العَوْنُ فهو المساعدة، وأمَّا المغفرةُ فهي سَتْر الذُّنوب مع التَّجاوُزِ عنها.

وقوله: «ونتوب إليه» وُضِعَتْ بَيْن قَوْسَين؛ لأنها لم تأتِ في الحديثِ، لكن ذُكِرَتْ تقليدًا للْعُلماءِ السَّابِقين، وأمَّا لفْظُ الحديثِ: «الحمْدُ لله، نَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا»(١).

وقوله: «نعوذ بالله» أي: نَعْتَصِم به.

وقوله: «من شُرور أنفسِنا»، وهنا مسألةٌ: هل للنَّفسِ شُرورٌ؟

الجواب: نعم، للنفس شُرورٌ، قال الله -تعالى-: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٥٣]، والنفوسُ التي جاءت في القرآن وُصِفَتْ بثلاثةِ أوصافٍ:

الأول: النَّفْس المطْمَئِنَّة؛ لقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:٢٧-٢٨].

الثَّاني: الأَمَّارة بالسُّوء، في قوله -تعالى-: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣].

الثالث: النَّفس اللَّوَّامة، في قوله -تعالى-: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:٢].

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٧٤٤)؛ وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الرجل يخطب على قوس، رقم (١٠٩٧)؛ والترمذي: كتاب النكاح، باب ما جاء في خطبة النكاح، رقم (١١٠٥)؛ والنسائي: كتاب الجمعة، باب كيفية الخطبة، رقم (١٤٠٤)؛ وابن ماجه: كتاب النكاح، باب خطبة النكاح، رقم (١٨٩٢)، وهو لفظ ابن ماجه.

فأمَّا المطْمَئِنَّةُ والأمَّارةُ بالسُّوءِ فهما مُتبايِنتانِ؛ لأنَّ المطمَئِنَّةَ تأمُر بالخيرِ وتَنْهَى عنِ الشَّرِّ، والأمَّارةُ بالسُّوءِ تأمُرُ بالشَّرِّ وتنْهَى عَنِ الخيرِ، وأمَّا اللوَّامَةُ فالصَّحيحُ أنَّها وصفٌ للنَّفْسَيْنِ جميعًا، فالأمَّارةُ بالسُّوءِ تَلومُكَ، والمطمَئِنَّةُ تَلومُكَ؛ فأمَّا الأمَّارةُ بالسُّوءِ فتلومُكَ إذا فعَلْتَ الخيْرَ، وإذا تركْتَ السُّوءَ، والمطمَئِنَّةُ تَلومُكَ إذا فَعلْتَ السُّوءَ، وإذا تَرَكْتَ الخيْرَ.

فالصَّوَابُ أنَّ اللَّوَّامةَ: وَصْفٌ للنَّفْسَيْنِ جميعًا، أي: للأمَّارةِ بالسُّوء، وَلِلمُطْمَئِنَّةِ.

إذن: أنفسُنا فِيها شُرورٌ، والمعصومُ من عَصَمَه اللهُ -عز وجلَّ-، ولهذا نَعْتَصِم بالله من شُرورِ أنفسِنا.

وقوله: «ومن سيِّئَاتِ أعمالِنا»؛ فالأعْمالُ كَما هو مَعلُومٌ تنْقَسِمُ إلى ثلاثة أقسامٍ: إما سيِّء، وإما صالح، وإما بينهما، أي: لا سيءٌ ولا صالحٌ.

فلو قال قائِلٌ: هل للسيِّءِ آثارٌ سيِّئَةٌ؟

فالجواب: نعمْ، واقْرَأْ قولَ الله -تعالى-: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣]، فعاقَبَهمُ اللهُ بهذه العُقوبَاتِ؛ لأنَّهم نَقَضُوا الميثاقَ، فسيِّئَاتُ الأعمالِ لها آثارٌ سَيِّئَةٌ، وما حصل الشرُّ إلا بسيِّئَاتِ الأعمال، قال الله -تعالى-: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم:٤١]، وقال -تعالى-: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

وقوله: «مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ له» يشمل هذا من يَهْدِه الله تقديرًا، ومَنْ يهدِه الله تحقيقًا؛ فمن يُقَدِّرِ اللهُ له الهدايةَ، فلا بدَّ أن يهْتدِيَ، ولو وُجِد له عواملُ تقتَضِي ضلالَه، ومَنْ هداه اللهُ تحقيقًا واهْتَدى، فإنَّه لا يستَطِيعُ أحدٌ أن يُضلَّه؛ لأن اللهَ تعالى قدْ هَداه، والأمرُ بيد الله -عزَّ وجلَّ-.

وهذه الجملةُ تُوجِب للإنسانِ ألَّا يَطلُب الهدايةَ إلا من الله -عز وجل-، مَع فِعل الأسبابِ، فالأسبابُ لا بدَّ منها، فاسْأَلِ اللهَ الهَدايَةَ، واعْمَلْ لأسْبَابِها، مِنْ تَعَلُّمِ الشريعةِ واستْطلاعِها، وما أشبهَ ذَلِك.

وقوله: «وَمَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ لَهُ» ويشمل هذا مَن يُضْلِلْ بالفعل، يعني: حقيقةً، ومن يضلل تقديرًا؛ فَمَنْ أرادَ الله إِضلالَه، فإنَّه لا يُمكن أن يَهْدِيَه أحدٌ، وليس أدَلَّ على ذَلك مِن فعلِ الرَّسُولِ -عليه الصلاة والسلام- مع عمِّه أبي طالبٍ، فعمُّه أبو طالب أحْسَنَ إلى الرَّسُولِ ﷺ إحسانًا عظيمًا، وصَبِرَ علَى مقاطعة قريشٍ من أجل أن يكونَ مع النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، وآمَنَ بِه بلسانِه فصدَّق، وقالَ في لاميَّته المشهورةِ:

لَقَـدْ عَلِمُـوا أَنَّ ابْنَنَـا لَا مُكَـذَّبٌ ... لَدَيْنَا، وَلا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِـلِ[1]

وقال:

وَلَقَدْ عَلِمْـتُ بِـأَنَّ دِيـنَ مُحَمَّـدٍ ... مِـنْ خَـيْرِ أَدْيَـانِ الْبَرِيَّـةِ دِينًـا
لَوْلَا المَلَامَـةُ أَوْ حِـذَارِي سُـبَّةً ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًـا بِذَاكَ مُبِينًا[2]

(١) ديوان أبي طالب (ص:٧٣).
(٢) ديوان أبي طالب (ص:٩١).

ومع ذلك لم يهتدِ مع حِرص النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- على هدايَتِه، فماتَ على الْكُفْرِ، وقد حضَرَه النبيُّ ﷺ وهو في سِياق الموت، فقال: « **يَا (أَيْ) عَمِّ، قُلْ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»، ولكنه لم يقل ذَلك، وكانَ آخرُ ما قال: إنَّه على مِلَّة عبد المطلب[1]، فماتَ عَلى الكفر -والعياذ بالله-.

ثم قالَ: «وأشهدُ أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله».

قوله: «أشهد»، أي: أُقرُّ إِقرارَ مُشَاهِدٍ، والمشاهِدُ للشيءِ يراه حِسًّا، فالشَّهادةُ هنا متضمِّنَةٌ للإقرار الَّذِي يُعتَبَرُ بمنزِلَة الشَّهادةِ لتأكُّدِ المقرِّ.

وقوله: **«أنَّ لا إله إلا الله»** ليس معناه: (لا يوجد إله إلا الله)؛ لأن هذا المعنى غيرُ صحيح؛ لأن هناك آلهةً تُعْبَدُ مِن دون الله وتُسمَّى آلهةً، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ [المؤمنون:١١٧]، وقال -تعالى-: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود:١٠١]؛ ولأننا لو قلنا: (لا إلهَ موجود إلا الله)، لكان هذا هو القولُ بوحدةِ الوجود؛ لأنَّ الله خالقُ السموات والأرض، وهذه الأصنامُ آلهةٌ، فصار المعبودُ واحدًا.

وبهذا تعيَّن أن يكون المعنى: (لا إله حقٌّ إلا الله)، وعلى هذا فيكون خبر **«لا»** النافية محذوفًا، ولفظُ الجلالة الذي بعد **«إلا»** بدلًا منه، وهذا أحسنُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٤)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، رقم (٢٤).

الأعاريب، وأسلَمُ الأقوال من الإيرادات والاعتراض.

وقوله: «**وحده لا شريك له**» فـ: «**وحده**» تأكيدٌ للإثبات، و«**لا شريك له**» تأكيدٌ للنفي، وهذه الجملة هي كلمة الإخلاص، التي لو وُزِنَتْ بها السموات والأرضُ لَرَجَحَتْ بهنَّ[1]، وهي التي مَنْ كانت آخرَ كلامه من الدنيا دخل الجنة[2]، فهي كلمةٌ عظيمةٌ لها وزنُها وَقِيمتُها، تعصِمُ الإنسانَ ومالَه من القَتْل، كما تعصِمُه من الكفر، ولهذا لما لحِقَ أسامةُ بْنُ زيدٍ -رضي الله عنه- المشرِكَ وأدْرَكَه، قال المشرِكُ: «لا إله إلا الله»، فَفَهِم أسامةُ أنَّهُ قالها تعوُّذًا وخَوْفًا مِن القتل فقتَله، ثُم بلَغَ ذلك النبيَّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقال له: «**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟!**» قال: نعم، لكنه قالها تعوُّذًا، ومعنى تعوُّذًا، أي: ليعْتَصِم بها من القتلِ، فجعل النبيُّ ﷺ يرددها، حتى قال أسامةُ: تمنيت أني لم أَكُنْ أسلمتُ بَعْدُ[3]، تمنَّى أنه لم يكن أسلمَ؛ لأجْلِ أنه إذا أسلَمَ غُفِر له ما قد سلف، ولكن الأمر قد حصل، إلا أن النبيَّ ﷺ لم يُضَمِّنْه دِيَةً ولا كفارةً؛ لأنه متأوِّلٌ، والكفارةُ لا تأتي مَعَ العَمْدِ.

وقوله: «**وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه**» سبق شرح قوله: «**أشهد**».

---

(١) قال ﷺ: «**لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِمَا وُضِعَ فِي كِفَّةِ المِيزَانِ، وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى، لَرَجَحَتْ بِهِنَّ**». أخرجه أحمد (٢/ ١٦٩، رقم ٦٥٨٣)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (٤/ ٢٢٠) قال الهيثمي: رواه كله أحمد ورواه الطبراني، ورجال أحمد ثقات. والحاكم (١/ ١١٢، رقم ١٥٤) وقال: صحيح الإسناد.

(٢) قال ﷺ: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ**». أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٧، رقم ٢٢١٨٠)، وأبو داود: كتاب الجنائز، باب في التلقين، رقم (٣١١٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة، رقم (٤٢٦٩)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، رقم (٩٦).

وقوله: «**محمدًا**» هو ابنُ عبدِ الله بن عبد المطلب، الهاشميِّ القرشيِّ، صلواتُ الله وسلامُه عليه، لا يُوجَد مِن بني إسماعيل نبيٌّ سواه.

وقوله: «**عبده**»، أي: العابِد المتذلِّل لله، وليس له حقٌّ من الربوبية.

وقوله: «**ورسولُه**»، أي: المرسَل من قِبَل الله -عز وجل-، فلَيْس بكاذِبٍ، وليسَ له حقٌّ في الربوبية.

وفي قوله: «**عبده**» الرَّدُّ على من غَلا فيه، وأما «**رسوله**» فَفيه الردُّ على من قَدَح فيه، أو قال: إنَّ رسالتَه ليست عامةً، فالنصارى واليهودُ عليهم لعائنُ الله إلى يوم القيامة، يقولون: (محمد رسول، وعيسى رسول، وموسى رسول)، لكنَّ موسى إلى قومِه، وعيسى إلى قومِه، ومحمدًا إلى قومِه، فلا فرق بيننا وبينكم، أنتم آمنتُم برسولٍ أُرْسِل إليكم، ونحن آمنَّا برسولٍ أُرْسِل إلينا، واليهودُ كذلك.

ولكن نقول: إن محمدًا ﷺ رسولٌ إلى كلِّ مَن وُلِد مِن بعدِ رسالته، فإنَّه يلزمه اتِّباعُه، حتى قال الرسول -عليه الصلاة والسلام-: «**لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي**»[(١)].

وقوله: «**محمدًا عبده ورسوله**» لم يقُلْ: إلى الناس كافةً، مع أن هذه الجملة مما علَّمه النبيُّ ﷺ أمتَه في التشهُّد، فيقال كما قال ابن مالك -رحمه الله-[(٢)]:

---

(١) أخرجه الأمام أحمد في مسنده (٣/ ٣٨٧)، من حديث جابر عن عمر -رضي الله عنهما- وفيه مجالد بن سعيد، وقد تغيَّر بآخرة، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٣٣٤) رجاله موثقون إلا أن في مجالدٍ ضعفًا.

(٢) في ألفيته، باب الابتداء، البيت رقم (١٣٦).

وَحَـذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ.... ....

ونحن نعلم أن رسالتَه مُطْلَقَةٌ لكل أحدٍ، فحُذِفَ المرسَلُ إليه للعلم به.

وقوله: «صلى الله عليه»، وأحسن ما يقال في صلاة الله -عز وجل- على النبي ﷺ: أنها الثناء عليه في الملأ الأعلى، أي: مدحُه ووصفُه بصفات الكمال في الملأ الأعلى[1].

وقوله: «وعلى آله» الآل: تارةً تُذكر وحدَها، مثل قولنا في التشهد: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ**»[2]، فإذا ذُكِرت وحدَها كان المرادُ بها جميعَ أتباعِه على دينه، كقول الله -تعالى- في فرعونَ: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، أي: أتباعَ فرعونَ.

وَإذا ذُكِرت الآلُ، والصحبُ، والأتباعُ، كما في هذه العبارةِ، صارَ المرادُ بالآلِ قرابتَه المؤمنين بِه، أما غيرُ المؤمنينَ به فليسوا مِن آلِهِ؛ لأنَّ الله قال عنْ نُوحٍ في وَلَدِه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٦]، وهو ابنُه من صُلْبِه، ومع ذلك نفى اللهُ أن يكونَ من أهلِه، فكذلك الذين لم يؤمنوا بمحمدٍ -عليه الصلاة والسلام- من قرابتِه ليسوا من آلِه، وإن كانوا من آله نسبًا، لكنَّهم لا يدخلون في الدعاءِ له.

وقوله: «وأصحابه»، أي: الذين اجتمعوا به مؤمنين به، ولو لحظة

---

(١) عن أبي العالية، أخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم، كتاب التفسير، باب «إن الله وملائكته يصلّون على النبي» (٤٧٩٧)، ولفظه: «صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة».

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، رقم (٣٣٧٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٤٠٥).

واحدة، وماتوا على ذلك.

وقوله: «ومن تبعهم بإحسان» هذه اللفظة مأخوذة من قول الله -تعالى-: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [التوبة:١٠٠]، وإنما قُيِّدَتِ التبعيَّةُ هنا بالإحسانِ؛ لأنَّ التبعيةَ قد تكونُ مطلقةً، وقد تكون مقيَّدَةً بالإحسان، بحيث يترسَّمُ خُطاهم قولًا، وفعلًا، وتركًا، أمَّا مَن كان مُتَّبِعًا مُطْلَق المَتابَعَةِ فهذا لا يكفي، أي: لا يدخُل في هذا الدعاءِ، بل لا بدَّ من الإحسان.

وقوله: «وسلم تسليمًا» ثَنَّى بالسلام؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]، وأما في التشَهُّدِ فإننا نبدأُ بالسَّلام قبلَ الصَّلاةِ، ووجهُ ذلك: أن الرسولَ ﷺ عَلَّمَ الأمةَ السلامَ قبل الصلاةِ، ثُمَّ بعد ذلك طلبوا منه أن يُعلِّمهم الصلاةَ عليه، كما علَّمهم السلامَ، فعلمهم، فصار الترتيبُ أن يبدأَ بالسلامِ أولًا، ثم الصلاةِ ثانيًا(١).

***

«أمَّا بعْدُ:

فإنَّ من المهمِّ في كلِّ فنٍّ أن يتعلَّمَ المرءُ من أُصولِه ما يكون عونًا لَهُ عَلى فهمِه، وتخريجِه على تلك الأُصولِ، ليكونَ عِلْمُه مبنيًّا على أُسُسٍ قويَّةٍ، ودعائمَ راسِخَةٍ، وقد قيل: من حُرِمَ الأصولَ حُرِمَ الوُصولَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾، رقم (٤٧٩٨)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٤٠٥).

ومن أجلِّ فُنُونِ العِلْمِ -بل هو أجلُّها وأشرفُها- عِلم التفسير، الَّذي هو تَبْيِينُ معانِي كَلامِ الله -عز وجل-، وقد وَضَع أهلُ العِلْمِ له أُصُولًا، كَما وَضَعُوا لِعِلْم الحديث أُصُولًا، ولِعِلْم الْفِقه أُصُولًا.

وقد كُنْتُ كتَبْتُ مِن هذا العِلْمِ مَا تيسَّرَ لطُلَّابِ المعاهد العِلمية فِي جَامِعَةِ الإِمَام محمدِ بْنِ سُعُودِ الإسْلَامِيَّةِ، فطَلَبَ مِنِّي بَعْضُ النَّاسِ أَنْ أُفْرِدَها في رِسَالَةٍ، لِيكُونَ ذَلِك أيْسرَ وأَجْمَع، فَأَجَبْتُه إِلى ذلك».

الشــرح

هذه القطعة تتضمَّنُ أنَّ مِن المهمِّ أن يُركِّزَ الإِنسانُ معلوماتِهِ على الأُصُولِ، أي: أُصُولِ المسَائِل؛ لأن الأُصُولَ هِي الَّتي تجمع له الفروعَ، ومَن كان مُعْتَنِيًا بالفُروعِ دُونَ الأُصُولِ، فإنَّه يفوته الفُروعُ والأُصُولُ؛ لأنَّ الفُرُوعَ كأورَاقِ الشجَرَةِ تتَحاتّ وتزول، وأما الأُصُول فهو كعُرُوقِ الشجرةِ تُرَسِّخُ الشجرةَ وتُبقِيها، ولهذا أحُثُّ كُلَّ طالبِ علمٍ عَلَى أن يعْتَنِي بالأُصُولِ والقَواعِدِ والضَّوابِطِ، وكذَلِك المسَائل، والكلمات الجامعة التي تشمل مسائلَ كثيرةً؛ لأننا نرى أن بعض الناس -مِن طلبة العلم وغيرهم- يَعْتني بجمع المسائل فقط؛ يجمَعُ مئةَ مسألةٍ، أو أكثر، لكن ليس عندَه أصلٌ يبْنِي عليه، فإذا وردتْ عليه أيُّ مسألةٍ تخالف ما كان حافظًا لا يستطيع أن يُخَرِّجْهَا، ولذلك نحُثُّ طالب العلم على معرفة الأصول، وقد قيل: «مَنْ حُرِمِ الأصولَ؛ حرم الوصول»، يعني: أنه لا يصل إلى غايته، وهذه حقيقةٌ.

ثم قال: «إن من أَجَلِّ فُنون العلم -بل هو أَجَلُّها وأشرفها- علم التفسير:

الذي هو تبيين معاني كلام الله -عز وجل-»؛ لأن العلْمَ يشْرُف بموضوعِه، وموضوعُ علم التفسير كلامُ الله -عزَّ وجل-، فالاعتناء به أهمُّ من الاعتناء بشرح الحديث، وأهمُّ من الاعتناء بشرح متنٍ مِن متون العلماء؛ لأنه تفسيرٌ لكلام الله -عز وجل-، والعُلُوم تشْرُف بحسب موضوعِها.

ثم قال المؤلف: **«وقد كنت كتبت مِن هذا الْعِلْم ما تيسر لطلاب المعاهد العلمية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فطلب مني بعضُ الناس أن أفردها في رسالة ليكون ذلك أيسرَ وأجمعَ، فأجَبْتُه إلى ذلك»**؛ وزدت ما شاءَ الله، وحذفتُ بعضَ الأشياءِ التي لا فائدةَ منها، فصارَ هذا الكتاب مختصرًا، وأكثرُ اعتمادي فيه على مقدِّمة التفسيرِ لابن تيميةَ -رحمه الله-؛ لأن المقدمةَ نافعةٌ، لكن كما هو معلومٌ أن الشيخَ -رحمه الله- كلامُه دائمًا مُرسَلٌ؛ لأنه بحرٌ متلاطم لا تحجزُه الجداول، فهو -رحمه الله- يتكلَّم بكلامٍ مُرسَلٍ يحتاج إلى أن يُجْمَع ويُبْسَط ويُسَهَّل للطالب.

***

«وأسألُ اللهَ تعالى أن ينفَعَ بها.

ويتلخَّصُ ذلك فيما يأتي:

القرآن الكريم:

١- متى نزلَ القرآنُ على النبيِّ ﷺ، ومَنْ نَزل به عليه من الملائكةِ.

٢- أوَّلُ ما نزَل مِن القرآنِ.

٣- نُزولُ القرآنِ على نوعَيْنِ: سببي وابتدائِي.

٤- القرآنُ مَكِّيٌّ ومدني، وبيانُ الحكمةِ من نزوله مُفرَّقًا، وترتيبُ القرآن.

٥- كتابةُ القرآن وحفظُه في عهد النبي ﷺ.

٦- جمعُ القرآنِ في عهد أبي بكرٍ وعثمانَ -رضي الله عنهما-.

التفسيرُ:

١- معنى التفسيرِ لغةً واصطلاحًا، وبيانُ حُكْمِه، والغرض منه.

٢- الواجبُ على المسلم في تفسير القرآن.

٣- المرجعُ في التفسير إلى ما يأتي:

أ- كلامُ الله تعالى بحيْثُ يفسَّرُ القرآنُ بالقرآن.

ب- سُنَّة الرَّسُول ﷺ؛ لأنه مبلِّغٌ عن الله تعالى، وهو أعلَمُ الناس بمُرادِ الله -تعالى- في كتابِ الله.

ج- كلامُ الصحابة -رضي الله عنهم-، لا سيما ذَوُو العلم منهم والعنايةِ بالتفسير؛ لأن القرآنَ نزل بلغتهم وفي عصرهم.

د- كلام كبار التابعين الذين اعتَنَوْا بأخذ التفسير عن الصحابة -رضي الله عنهم-.

هـ- ما تقتضيه الكلماتُ من المعاني الشرعيَّةِ أو اللغوية حسب السياق، فإن اختلَف الشرعيُّ واللُّغَويُّ، أُخِذ بالمعنى الشرعيِّ إلا بدليلٍ يُرجِّح اللغويَّ.

٤- أنواع الاختلاف الوارد في التفسير المأثور.

٥- ترجمة القرآن: تعريفُها -أنواعُها- حُكْمُ كلِّ نوع.

- خمسُ تراجِمَ مختصرةٌ للمشهورينَ بالتفسيرِ: ثلاثٌ للصحابة، واثنتانِ للتابعين.
- أقسام القرآن من حيث الإحكامِ والتَّشابُه.

- موقف الراسخين في العلم والزائغين من المتشَابِهِ.

- التَّشابُه: حقيقيٌّ ونسبيٌّ.

- الحكمةُ في تنوع القرآن إلى مُحْكَمٍ ومتشَابِهٍ.

- موهِمُ التعارُض من القرآن، والجوابُ عنه، وأمثلةٌ من ذلك.

القَسَم: تعريفه -أداتُه- فائدتُه.

القَصَص:

تعريفُها -الغرَضُ منها- الحِكْمَةُ من تكرارها واختلافِها في الطول والقِصَر والأسلوب.

الإسرائيلياتُ التي أُقحِمَتْ في التفسير، وموقفُ العلماء منها.

الضَّمير:

تعريفُه -مرجِعُه- الإظْهُار في موضِع الإضمارِ وفائدتُه -الالتفاتُ وفائِدتُه- ضميرُ الفصلِ وفائدتُه».

الشــرح

ولْيُعْلَمْ أن هذه الرسالةَ أُصولٌ في التفسير، وليست أصولَ التفسير كلَّها، لكنها أصـولٌ في التفسير يـحتاجُ إليها من أرادَ أن يُفسِّرَ كلامَ الله -عز وجل-.

***

القرآن الكريم

١- نزول القرآن.

٢- أول ما نزل من القرآن.

٣- نزول القرآن ابتدائي وسببي.

٤- المكي والمدني.

٥- كتابة القرآن وجمعه.

القـرآن الكـريم

«القرآنُ في اللغة: مَصْدَرُ «قَرَأَ» بمعنى «تَلا»، أو بمعنى «جَمَع»، تقول: (قَرَأَ قَرْءًا وقُرْآنًا)، كما تقول: (غَفَرَ غَفْرًا وغُفْرَانًا)، فَعلى المعنى الأول «تلا» يكون مَصْدرًا بمعنى اسم المفعول؛ أي: بمعنى (مَتْلُوّ)، وعلى المعنى الثاني: «جَمَعَ» يكون مصدرًا بمعنَى اسم الفاعل؛ أي: بمعنى (جَامِع)؛ لجمْعِهِ الأخبارَ والأحكامَ»[1].

الشـرح

إذن: القرآن يحتاج إلى معرفته لغةً وشرعًا.

أما اللغة فقالوا: إنه مصدر «قَرَأَ» بمعنى «تَلا» مثل قول الله -تعالى-: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [النحل:٩٨]؛ يعني إذا تَلَوْتَ القرآن، أو «قَرَأَ» بمعنى «جَمَعَ»، ومنه (القرية)؛ لأنها تجمع السكان، وكلاهما صحيحٌ؛ لأن القرآن إن قلت: (إنه مقروء، أي: متْلُوٌّ) فصحيح، وإن قلت: (إنه قارئ، أي: جامع للأخبار النافعة، والأحكام العادلة) فهُو كذلك.

فالقرآن مجموعٌ، فصار (قرأ) بمعنى اسم المفعول، سواءٌ أكانت من القراءةِ بمعنى التلاوة، أو القراءة بمعنى الجمع، أما (قرأ) بمعنى التلاوة فهي

(١) ويمكن أن يكون بمعنى اسم المفعول أيضًا؛ أي بمعنى مجموع؛ لأنَّه جُمِع في المصاحف والصدور -المؤلف-.

اسم مفعول؛ لأن القرآنَ ليس قارئًا، بل مقروءٌ، فالقرآن بمعنى التلاوة لا يكون إلا بمعنى اسم المفعول، والقرآنُ بمعنى (قرأ)، أي: الجمع يكون بمعنى اسم الفاعل، وبمعنى اسم المفعول.

هذا باعتبار القرآن لغةً.

***

«والقرآنُ في الشرع: كلامُ الله تعالى المنزَّلُ على رسولِه، وخاتمِ أنبيائه، محمدٍ ﷺ، المبدوءُ بسورة الفاتحة، المختومُ بسورة الناس.

قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان:٢٣]، **وقال:** ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢]».

الشرح

هذا هو القرآن، والقرآنُ كلام الله -تعالى- لفظُه ومعناه، ونحن نؤمن بأنَّ الله تكلم بهذا القرآن الذي نقرؤُه، أيه أنه -سبحانه وتعالى- تكلَّم بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وتُكلَّم بقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ وما أشبه ذلك، تكلَّم به -عز وجل- كلامًا مسموعًا منقولًا إلينا عن طريق رسولَيْن كريمَيْن، رسولٍ مَلَكيٍّ، ورسولٍ بَشَريٍّ، فالرسولُ الملَكِيُّ جبريلُ عليه السلام، والرسولُ البشريُّ محمدٌ ﷺ، وقد نُسِب القرآنُ إليهما في الكتاب، فقال -عز وجل-: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١]، فالرسولُ هنا جبريلُ عليه السلام، وقال -تعالى-: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة:٤٠-٤١]،

فالرسولُ هنا محمد ﷺ؛ لأنهما بلَّغا.

وهلِ الكلام يُنسب إلى المبلِّغ أو المبلَّغ عنه؟

والجواب: يُنسب إلى المبلَّغ عنه ابتداءً، وإلى المبلِّغ تبليغًا، ولهذا نسبه اللهُ إلى جبريلَ وإلى محمدٍ عليهما الصلاة والسلام، لكنَّ الحقيقةَ أن الكلامَ يُنسَب إلى مَن قاله مبتدئًا، لا إلى من قَاله مُبَلِّغًا مُؤدِّيًا.

وقوله: «وخاتم أنبيائه» ولم يقل: وخاتم رُسُله؛ لأنك إذا نفيت النبيَّ نفيتَ الرسولَ من باب أولى، لكن لو نفيتَ الرسولَ فإنه لا ينتفي النبيُّ، وما أبلغَ الكتابَ العزيزَ حيث قال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، ولم يقل: «رسول الله وخاتم المرسلين»، بل قال: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ لأنه لا يُمْكِن لأحدٍ أن يُنبَّأَ بعد الرسول ﷺ، لا برسالةٍ ولا بغيرِها، وهذا المعنى قد أجمع عليه المسلمون.

وهذا القرآنُ -ولله الحمدُ- محفوظٌ في الصدور، مكتوب في السطور، منقولٌ بالتواتر القطعيِّ اليقينيِّ، ولم يشِذَّ إلا الرافضةُ، حيث ادَّعوا أن القرآنَ فيه نقصٌ، وأنه حُذِف منه أشياء، وزادوا على ما في القرآن الموجود لدى المسلمين، والذي أجمع عليه المسلمون.

أول القرآنِ الفاتحةُ، كتابةً وتلاوةً -أما نزولًا فأوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١]-، وآخره ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فما بين هاتين السورتين كلُّه كلام الله -عز وجل- حتى قال العلماء: وهذا القرآن -ولله الحمد والمنَّة- محفوظ في الصدور، مكتوب في السطور، منقول بالتواتر القطعيِّ اليقينيِّ،

ومَن أنكر مِنه حرفًا واحدًا مُجْمَعًا فيه بين القراء فإنه يكون كافرًا؛ لأنه مكذِّبٌ لله ولرسوله ولإجماع المسلمين، اللهم إلا ما اختلفت فيه القراءاتُ؛ لأن بعض القراءاتِ قد يكون فيها حذفُ حرفٍ معنويٍّ، لا حرفٍ تركيبيٍّ، فالحرف التركيبي كثير مثل: (مَلِك ومَالِك)، حذفت من القراءة الأولى الألف، لكن هناك حرفٌ معنويٌّ قد يُحذف كالواو، وقد يكون بدلُ «**الواو**» فاءً حسب القراءات، لكن هذا قليلٌ.

المهم أن القرآنَ شرعًا هو الذي بين أيدينا، والحمدُ لله، فقد حفِظَه الله -عز وجل- من التغيير والتبديل والنقص والزيادة والتحريف، حتى الذين حرَّفُوه معنىً أقام اللهُ مِن عبادِه الصالحين من ردَّ هذا التحريفَ.

أما التغيير: بالنسبة للحركات والنُّقط، والزيادة -زيادة كلمة أو حرف-، والنقص -نقص كلمة أو حرف-، والتبديل -أن تبدل كلمة بكلمة، وهو غير التغيير الذي سبق في أول الكلام-، محفوظ من هذا كله، حيث تكفَّل الله تعالى بحفظه فقال -عز وجل-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وعليه فمَنِ ادَّعى أن شيئًا من القرآن مكتومٌ فهو كافر، مكذِّبٌ لله -عز وجل-؛ لأنه من لازِمِ ذَلِك أن يكون الله إما عاجزًا عن حفظه، وإما كاذبًا في قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، وَمَنْ وَصَف الله بالعجز أو بالكذب فهو كافرٌ حلال الدم والمال.

وقولنا: (إنه مكذبٌ لله ولرسوله)، أولا تكذيبه لله -عز وجل-؛ لأن ادعاءَه أنه قد زِيد فيه، أو نُقِص تكذيبٌ لمضمون قوله -تعالى-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

وأما كونه مكذِّبًا للرسول -عليه الصلاة والسلام-؛ فلأن المسلمين أجمعوا على أن محمدًا ﷺ بلَّغ القرآن كاملًا، ولم يشِذَّ عنه حرفًا، ولا كلمةً، ولا آيةً، وأنَّ هذا القرآنَ الذي بلَّغه محمدٌ -عليه الصلاة والسلام- هو هذا القرآنُ الذي بين أيدِينا، وأما الإجماعُ فظاهِرٌ.

* * *

«وقد حمى اللهُ -تعالى- هذا القرآنَ العظيمَ من التغيير والزيادة والنقص والتبديل، حيث تكفَّل -عز وجل- بحفظِه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، ولذلك مضت القرونُ الكثيرةُ ولم يحاول أحدٌ من أعدائه أن يُغَيِّرَ فيه، أو يزيد، أو ينقص، أو يُبَدِّل، إلا هتك الله تعالى ستره، وفضح أمره».

الشـرح

الحمد لله، وهذا بخلاف الكتب السابقة التي صار فيها التحريفُ والتغيير والتبديل والكتمان، فجعلوا التوراةَ قراطيسَ يُبْدُونَها ويُخْفُون كثيرًا، لكن هذا القرآن -والحمدُ لله- محفوظٌ بحِفْظ الله -عز وجل-.

فالتغيير المعنويُّ يُيَسِّرُ اللهُ من عباده مَنْ يُبَيِّن بطلانه، وأما التغييرُ اللفظيُّ فليسَ لأحدٍ أن يُغيِّرَه تغييرًا لفظيًّا أبدًا، لكن قد تُوجَد محاولةٌ في التغييرِ المعنويِّ، وفعلًا وقعَتْ، لكن الله يُقيِّض له من يُبَيِّن تحريفَه، ويُبَيَّن عَوارَه وعَيْبَه، وهذا معروفٌ من كتب التاريخ، وكلامِ العلماء -رحمهم الله تعالى-.

* * *

«وقد وصفه الله -تعالى- بأوصافٍ كثيرةٍ، تدُلُّ على عظمتِه، وبَرَكَتِه، وتأثيرِه، وشُمُولِه، وأنه حاكِمٌ على ما قبْلَه مِنَ الكتبِ.

قال الله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]. ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:١]».

الشـرح

فقوله: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ وهذه السبع هي سورةُ الفاتحة، كما ثبت بذلك الحديث عن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-(١)، فهي السبع المثاني؛ لأن آياتها سبعٌ، ففيها الخبر، وفيها الدعاء، وفيها التاريخ، وفيها تقسيم الناس بالهداية، ونَصَّ عليها؛ لأنَّها أُمُّ القرآن، وأعظمُ سورةٍ في القرآن، وهي الفاتحة، وهي رقيةٌ من كل داء، لكن يُشترط أن يكون الراقي مؤمنًا موقنًا، والمرقيُّ عليه كذلك مؤمنًا موقنًا، ولا أحسنَ من الشرح الذي شرحه إيَّاها ابنُ القيم -رحمه الله- في أول «مدارج السالكين»(٢)، فإنَّه قد أتى من معانيها بالعجب العجاب الذي لا تجده في أي كتاب.

والقرآنُ العظيم وَصَفَه الله -عز وجل- بأنه عظيمٌ، ووَصَفَه بأنه مجيدٌ، وفي سورة البروج قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج:٢١]، وفي كلتا السُّورَتَيْن بيانُ قهر الله -تعالى- لأعدائه وعقوبَتِهم، ووصَفَهُ بأنه مجيدٌ مناسب تمامًا لهذا؛ لأن المجدَ: هو العظمة والسُّلطانُ، فقال الله -تعالى-: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:١]، وهذا يُدلُّ على عظمة هذا القرآن.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب وسميت أم الكتاب، رقم (٤٤٧٤).

(٢) انظر مدارج السالكين (ص:٢١) وما بعدها.

فهل نفهم منه أن القرآنَ عظيمٌ، أو أنه مجيدٌ، أو نفهم منه شيئًا وراء ذلك، وهو أنَّ مَنْ تمسَّكَ به نال العظمةَ والمجدَ، وصار له السلطةُ على غيره؟

الجواب: الواقع يشهد لهذا؛ فالأمة الإسلامية لما كانت متمسكةً بهذا القرآن الكريم، كان لها السيطرةُ والهيمنة على كل الأمم، وصارت تفتح البُلْدَان بلدًا بلدًا.

***

«**وقال -تعالى-**: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥]، ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٧]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]».

الشرح

هذه -أيضًا- آياتٌ تدُلُّ على عظمة القرآن.

فقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ فالقرآن مُبارَك، أي: مُبارَك في أثره، وتأثيره، وأجره، وثوابه.

أما أجرُه وثوابه: فإنَّ مَنْ قَرأ القرآنَ فله بكل حرف عشر حسنات [(١)].

أما تأثيرُه: فإنَّ الله بيَّنَ أنه لو أنزلَه على جَبَلٍ لرأيتَه خاشعًا متصدِّعًا من خشية الله.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ماله من الأجر، رقم (٢٩١٠).

وأما آثارُه: فما حصل للأمة الإسلاميةِ من النصر المبين، والفتح العزيز، الذي يشهد به كلُّ أحدٍ، ثُمَّ ما يحصل به من صلاح القلوبِ، وإقبال العبدِ على ربِّه، وتليين القلب بذكر الله، قال ابن عبد القويِّ -رحمه الله- [(١)]:

وَحَافِظْ عَلَى دَرْسِ الْقُرانِ فَإِنَّـهُ   يُلَيِّنُ قُلْبًـا قَاسِيًـا مِثْلَ جَلْمَـدِ

وصدق -رحمه الله-؛ فالذي يقرأُ القرآنَ بحُضور قلبٍ وتدَبُّرٍ، لا شكَّ أنه يتأثَّرُ به تأثُّرًا عظيمًا.

وقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هو بيان الحكمة من ذلك، أن نتدبَّر آياتِه، لا أن نقرأَه بدون تدبُّرٍ، ولا تَفَهُّمٍ لمعناه؛ لأننا لو قرأناه هكذا لَمْ نستفد منه سوى ألفاظٍ نُردِّدُها، ونحن لا نعرف معناها، ولا نتدبَّرُها.

والحكمة الثانية: قال: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فتدبُّرُ الآيات مطلَقٌ؛ لقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، والتذكُّر به خاصٌّ بأولي الألباب، أي: العقلاء؛ لأنه كَمْ من إنسان يعرف معنى القرآن، ويتدبر القرآن، ويستنتج منه الفوائد العظيمة، لكنه لا يتذكَّر! ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

والألباب: هي العقول، فَذَكَر اللهُ هذا القرآنَ العظيم، ووَصَفه بأنه مبارك، وبيَّنَ الحكمةَ من إنزاله، وهي أولا: تدبُّر الآيات، وثانيًا: التذكر.

وفي قوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دليل على أن معانيَ آيات الصفات -بدون استثناء- معلومةٌ؛ لأنها من آياتِه، بل هي أجَلُّ آياتِ القرآن، إذ إنَّ فيها الخبرَ

(١) البيت موجود في الآداب الشرعية لابن مفلح (٣/ ٥٦٠) ، وهو غير موجود في (منظومة الآداب) للناظم بشرح السفاريني (طبعة دار الكتب العلمية ، وطبعة...)، فلعلها سقطت من الطابع أو من نسخة الشارح ، والله اعلم .

عن الله -عز وجل-، وأحكامه، وأفعاله، فهي معلومةٌ لنا، وبهذا نردُّ على من قال: إنَّ مذهب السلف هو التفويضُ، أي: تفويضُ المعنى، فإنَّ هذا قولٌ لا يصدُر إلا عن كاذبٍ على السلف، أو جاهلٍ بمذهبهم، وإلا فمَن عَلِمَ بمذهب السلف تبيَّن له أنهم يقولون بالمعنى، ويُعرِّفونه، وقال شيخ الإسلام -رحمه الله- عن قول أهل التفويض أنه: «من شر أقوال أهل البدع والإلحاد»[1].

وقوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ بيان أنَّه نزل للتذكُّر والاتِّعاظ، وكمْ من إنسانٍ يقرأ القرآنَ، ولكنه من أعداءِ القرآن! لأنه لمْ يتذكَّرْ به، ولم ينتَفِعْ به.

قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥].

قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾، كتاب بمعنى مكتوب، أي: هو مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، ومكتوبٌ في المصاحف التي في أيدينا، ومكتوبٌ في الصُّحُف التي بأيدِي السفرةِ الكرام البررة.

وقوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾ سبقَ الكلامُ عليها.

وقوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هذا بمعنى قوله -تعالى-: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]؛ وذلك لأن الاتباعَ فرْعٌ عن معرفة المعنى.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ حذف المفعول، والتقدير: اتقوا مخالفتَه التي هي ضد

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥).

اتباعه، وهذا يشمل الأخذَ بجميع شرائع القرآن الكريم.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ «**لعل**» هنا للتعليل، وكلما جاءت «**لعل**» في القرآن فهي للتعليل، ولا يصحُّ أن تكون للتَّرجِّي؛ لأن التَّرجِّيَ إنما يكون في أمرٍ عَسِرٍ على المترجِّي، والله -سبحانه وتعالى- لا يعسر عليه شيءٌ، وهي كثيرةٌ في القرآن الكريم.

وقوله: ﴿تُرْحَمُونَ﴾ لم يُبيِّن مَنِ الراحمُ؟ وإنما لم يُبيِّن، إما للعلم به فلا يحتاج إلى ذكره، كما في قوله -تعالى-: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، ومعلومٌ أن الخالق هو الله -عز وجل-، فهنا ﴿تُرْحَمُونَ﴾ معلومٌ، فنقول: الراحمُ هو الله -عز وجل-، وهو الذي تنفع رحمتُه، أما رحمةُ مَن سواه فقد تنفع وقد لا تنفع.

وقد يقال: إنه حذفَ المفعولَ مِنْ أجل العموم؛ لأنه أحيانًا يُحذف المفعولُ لإفادة التعميم، واقرؤوا قولَ الله -تعالى-: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٦-٨]، يقول بعضُ المفسِّرين في هذه الآياتِ الثلاث: إنه حذف المفعولَ من أجل تناسُب الآيات، أي: رُؤوسِها، وأن الأصل: «**ألم يجدك يتيما فآواك، ووجدك ضالًا فهداك، ووجدك عائلًا فأغناك**»، ولكن الصوابَ أنَّه حذفَ المفعولَ لإفادةِ العُموم، فالرسولُ -عليه الصلاة والسلام- آواه الله وآوى به، فكان ﷺ ملجًا لأمَّتِه يلجَؤُون إليهِ، هاجروا من بلادِهم إلى المدينةِ؛ ليكونوا حول رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ فهداكَ وهدى بك أيضًا، كما قرر ذلك النبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- للأنصار حين قال لهم:

«كُنْتُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي»(١).

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ﴾ أي: أغناك وأغنى بك، كما قال الرسولُ ﷺ للأنصارِ حين قال لهم: «كُنْتُمْ عَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي»(٢).

فالحاصل: أن قولَه هنا ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ يحتمل أنه حذف الفاعل، إما للعلم به، أو لإفادة التعميم، ووجهُ التعميم أن يقال: مَنْ رَحِمَه اللهُ يَسَّر لَه مَنْ يرحُمُه، فيكون المرحومُ مرحومًا مِن الله ومِنَ الخلقِ، وكم من إنسانٍ أنقذَه اللهُ مِنْ براثِنِ أعدائِه؛ لأَنَّه مرحومٌ عنْدَ الله فرحمه العباد!

وقال الله -تعالى-: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة:٧٧].

فقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير يعود على القرآن.

وقوله: ﴿لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ الجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكِّدات؛ لأنَّ قبلها قسمًا، وذلك في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٧]، فالجملة مؤكَّدةٌ بثلاثة مؤكِّدات، الأول: القَسَم، والثَّاني: «إنَّ»، والثالث: «**اللام**».

لكن قد يقول قائل: إنها لم تؤكَّدْ بِقَسَمٍ؛ لأن الله يقول: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ «**فلا**» للنفي، فكيف تقولون: إنه إثباتُ قَسَمٍ؟

والجواب: إن «**لا**» هنا للتنبيه، وليست نافيةً، فمعنى «**لا**» أي: انْتَبِهْ أني

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، رقم (٤٣٣٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم (١٠٦١).

(٢) جزء من الحديث السابق.

أُقْسمُ بمواقع النجوم... إلخ، مثلها في قوله -تعالى-: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة:١]، وفي قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد:١]، وفي قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ [المعارج:٤٠]، وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة:٧٧] فمعنى «**الكريم**» أي: كثيرُ الخير، ولهذا يُقال للرجل البَذُول الذي يبذل مالَه: إنه كريمٌ، ويقال للبهيمة الحسناءِ التي تُدِرُّ وتلد: كريمةٌ، ولهذا قال النبيُّ ﷺ لمعاذ بن جبل -رضي الله عنه- وقد بعثَه إلى اليمنِ: «**إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ**»(١).

فقوله: «**كرائم**»، يعني: أحاسنها وأطايبها، وكَرَمُ كلِّ شيء بحسبه، فهو كريمٌ يفتح المدارِكَ، ويُوسِّعُ العلومَ، كما أن الكريمَ يُعْطي المال، والبحر كريم لأن فيه مِن السمك والحيتان ما لا يحصى، فكذلك القرآن كريمٌ؛ فيه من المعاني ومن العلوم العظيمة ما لا يوجد في غيره.

انظر إلى قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٨]، فكم تضمَّنَ قوله -تعالى-: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ مِن كلِّ أنواع المركوبات، من حين نُزُوله إلى يوم القيامة، فالسياراتُ، والطائراتُ، والبواخرُ وغيرُها! كلُّها داخلة في قوله: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

وكذلك قولُه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال:٦٠]؛ فالقوة هنا الرمي، فكم تضمَّنَ قوله -تعالى-: ﴿مِّن قُوَّةٖ﴾ مِن كلِّ ما يمكن أن يُرْمَى به إلى يوم القيامة، مِن أنواع الأسلحةِ العظيمة الفتَّاكة!

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

فالقرآن كريمٌ في ألفاظه، وفي معانيه، وفي آثاره، وفي كلِّ شيءٍ، هو قرآن كريمٌ كما وصفه الله -عز وجل-، ومِن كَرَمِه أنه يُلَيِّنُ القلبَ، إذا تابع الإنسانُ تلاوتَه لانَ قلبُه، ومن كَرَمِه أيضًا ما حصل للأمة الإسلامية بسبب التمسُّكِ به من الفتوحات العظيمة، والانتصارات الهائلة.

وقال -تعالى-: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]؛ أقوَم: اسم تفضيل، يعني: للخَصْلَةِ التي هي أقومُ، ولم يقل القَيِّمَة، بل قال: ﴿هِىَ أَقْوَمُ﴾.

إذن: فكُلُّ خُلُقٍ فاضل، فالقرآنُ يهدي إلى أعلاه، وكلُّ معاملةٍ حسَنَةٍ فالقرآن يهدي إلى أَحْسَنِها، وكلُّ عِبادَةٍ مستقيمةٍ فالقرآنُ يهدي إلى أقوَمِها، وهلمَّ جرًّا.

وقوله: ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ فيه إشارة إلى أن الدِّينَ الإسلاميَّ يبدأ بالأهم فالمهم، والأصلح فالصالح، ويدفع الأسوأَ بالسيِّءِ؛ لأن السَّيِّئَ بالنسبة للأسوأِ أقومُ؛ لكونِه أخفَّ؛ ولهذا فإنَّ العبارة تُشير إلى أن القرآنَ يهتَمُّ بالأهم فالمهم، والأحسن فالحَسَن، والأصلح فالصالح، وهلمَّ جرًّا، وعليه فإذا تعارض عليك، أو تعارض عندك عملان فلا تتوقَّفْ، فإذا كان أحدُهما أنفعَ من الآخر، فخذ بالأنفع ولا تنظر إلى الحاضر، بل انظر إلى نتيجة هذا الشيء في الحاضر والمستقبل؛ لأن الله يقول: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]، فالنظر إلى العاقبة أمر مهم.

إذن: من أوصاف القرآن أنه ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

«وقال -تعالى-: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١]، ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]، ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢].

وقال -تعالى-: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

وقال -تعالى-: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤٨]».

الشـرح

قال الله -تعالى-: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]، والجبل كما هو معلوم أصمُّ صُلْبٌ شديدٌ، ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ أي: حين نزول القرآن عليه، ﴿خَٰشِعًا﴾، أي: ذليلًا، ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ أي: متفتِّتًا؛ من خشية الله، فـ﴿مِّنْ﴾ هنا للسببية، أي: بسبب خشية الله -عز وجل-، هذا وهو جبلٌ أصمُّ صُلْبٌ شديد، فكيف بالقلوب؟!

ولهذا إذا قرأت القرآن ولم تشعر بأن قلبك لانَ، فاعلم أنه أشد قسوة من الحجارة؛ لأن الحجارة تلين وتخشع، والقلب الذي لا يلين ولا يخشع

بالقرآن أشدُّ قسوةً من الحجارة، فنسأل الله أن يُلَيِّنَ قُلوبَنا وقلوبَكم بذكره.

وقوله: ﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: من خوفه، لكن الخشية خوفٌ مقرونٌ بعلمٍ؛ لقول الله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أفادنا الله -عز وجل- بأن هذا ضرب مثل، وأن الأمثال يضربها الله -تعالى- للناس: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن يتفكروا، وما أكثر الأمثال في القرآن الكريم!

وهنا فائدة أصولية: وهي: «**إنَّ كلَ مثَلٍ في القرآن فهو إثباتٌ للقياس**»؛ لأن المقصودَ به انتقالُ الذهنِ من هذا إلى هذا، ولهذا فأدلةُ القياس في القرآن كثيرةٌ جدًّا؛ لأنَّ الأمثالَ في القرآن كثيرة.

إذن: ففائدة وصف القرآن هنا، هو قوةُ تأثيرِ القرآنِ، وأنَّه لا بُدَّ أن يؤثِّر، لكن لما كان أكثر الناس اليوم يقرؤون القرآنَ بألسنتِهم، صار تأثيرُه لا يتجاوَزُ حناجرَهم، وإلاَّ لو قرَؤُوه بقلوبهم وألسنتِهم، لكان له أثرٌ بالِغٌ.

فإن قال قائل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١] هل تدل أن الجبال لها فهم وإدراك؟

الجواب: نعم، ولهذا قال الرسول ﷺ عن جبل أحد: «**أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنا وَنُحِبُّهُ**»(١)، ومما يُستَدل به على ذلك أيضا قوله -تعالى-: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب خرص الثمر، رقم (١٤٨٢)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ، رقم (١٣٦٥).

على أن التسبيح هنا عام في كل الأوقات، وليس مخصوصًا بوقتٍ معين.

يقول الله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤]، فقوله: ﴿مِنْهُم﴾، أي: من المنافقين من يقول: لا تستمعوا لهذا القرآن.

وقوله: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ الاستفهام هنا للتحدي، وفائدة هذا الاستفهام، إما لكونهم لم ينتفعوا بهذه الآيات، فظنوا أن الناس كلهم مثلهم، وإما أنهم يُكابِرون ويُنْكِرون أن تكونَ الآياتُ أثَّرتْ عليهم، استكبارًا، وعنادًا، وجحودًا.

قال الله -تعالى- في الجواب: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤]، هذا قِسْم من الناس -وهم الذين آمنوا- زادتهم إيمانًا، وزيادة إيمانهم بأنه إذا أُنزِلت السورة بخبر صدقوه، وإذا أُنزِلت السورة بطلب قاموا به، تركًا للمنهيِّ عنه، وفعلًا للمأمور به، وهذا يزيد الإيمان، كلما ازداد الإنسان تصديقًا بآيات الله -عز وجل- ازداد إيمانُه، وكلما ازداد الإنسانُ عملًا ازداد إيمانُه، ولهذا كان من مذهبِ أهل السنة والجماعة، أن الإيمانَ يزيد بالطاعة، وينْقُص بالمعصيةِ.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يعني: يُبَشِّر بعضُهم بعضًا بما نزل، وبحُكْمِ ما نزل، يُبشِّر بعضُهم بعضًا بما وعد به القرآنُ من النَّصْر في الدنيا والفلاح في الآخرة؛ لأنه كلَّما نزلت آيةٌ من القرآن فهو دليلٌ على أنَّ الله أرادَ بالأمة خيرًا.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٥]، فقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المرض: عِلَّةٌ تقتضي خروجَ البدن عن الاعتدال الطبيعيِّ، هذا هو الأصل، وهذا المرض -أعني: مرض القلب- في كلِّ موضعٍ بحسَبِهِ، ففي قوله -تعالى-: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]، فالمراد بالمرض هنا: مرضُ الشهوة.

وفي قوله هنا: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المراد بالمرض هنا مرض الشك والجحود؛ لأنه في مقابل قوله -تعالى-: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤]، والشيء يُعْرَف بمقابله، وهذه قاعدة التفسير التي ستأتينا إن شاء الله -تعالى-: «**أنه يُعرَف معنى الآيةِ بذِكْر المقابل**»، ومن أبرز مثالٍ لذلك قوله -تعالى-: ﴿فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١]، فمعنى ﴿ثُبَاتٍ﴾ متفرِّقين أو فُرَادَى، عرفنا هذا المعنى بمقابِله في قوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾.

وقوله: ﴿رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ والرجس هنا معنوي؛ لمجيئه للتوكيد، كقول الله -تعالى-: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج:٣٠]، وهنا الرجس معنويٌّ.

إِذنْ: لماذا قال: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾؟

الجواب: لأن النازلَ إنْ كان خبرًا كذَّبوه، وإن كان طلبًا خالَفُوه، فهم يزيدون بالتكذيب رجسًا، ويزيدون بالمخالفةِ رجسًا.

وقوله: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ -نسأل الله العافية-، يعني: استمرَّ هذا الرجسُ في قلوبهم إلى أن ماتوا على الْكُفر، وفي هذه الآية تحذيرٌ عظيمٌ لمن ردَّ الشرعَ لأول مرة، أنه خطرٌ عليه أن يستمر معه هذا الردُّ حتى يموت على الكفر، فبمجرد ما يأتيك الخبرُ الصادقُ في حكم أو غيرِه فاقبله، وتهيأْ له، ولا تتَرَدَّدْ فيه؛ لأنك إن ترددت فيه فهو خطر عليك، قال الله -تعالى-: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥]، أي: لما كذبوا به صاروا في أمرٍ مريجٍ مختلط، لا يدرون عن شيء، وكذلك أيضًا قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩].

فإذا قال قائل: كيف تكون السورة لقومٍ زيادةً في الإيمان، ولقومٍ زيادةً في الرجس، وهي سورةٌ واحدة؟

قلنا: لا غرابة، أرأيت الغذاءَ الجسديَّ يكون للسليم غذاءً وزيادةَ نموٍّ، ويكون للمريضِ علَّةً وزيادةَ مرضٍ، وأضرب لكم مثلًا بالتمر، فإنه إذا أكله السليمُ يزداد به نموًّا، وطاقةً حراريةً، ونشاطًا، وإذا أكله المريضُ بالسكريِّ يزداد مرضًا مع أنه واحدٌ، وهكذا أيضًا القرآن؛ تكون الآيةُ أو السورةُ لقومٍ زيادةً في الإيمان، ولقومٍ زيادةً في الكفر، ووجه كونه هنا مدحًا للقرآن؛ أن القرآنَ يزيد المؤمن إيمانًا، ويزيدُ الكافر كُفرًا، وهذا دليلٌ على قوةِ تأثير القرآن.

فمن المعلوم أن نزولَ الآيات انقطع بعد موت الرسولِ ﷺ، لكن قد ينسى الإنسانُ الآيةَ ثم يقرؤُها أو تُقرَأُ عليه فيتذكَّر، وكأنها نزلت الآن، فأحيانًا نغفل عن معنى الآية، ثم إذا فتح الله علينا وعرفناها، كأنها نزلت الآن.

وانظر إلى ما حدث بعد موت الرسول ﷺ حين اجتمع الناس في المسجد، وقام من نراه أشجع هذه الأمة بعد نبيها وبعد أبي بكر -رضي الله عنه- عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، قام يقول للناس: إن رسول الله ﷺ لم يمت، وإنه صَعِق، وسيُبْعث فيُقَطِّع أيديَ أقوامٍ وأرجُلَهم، يقول هكذا، ولا شك أنه قرأ قول الله -تعالى-: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]، لكنَّه من الذهول غفل عنها، فلما جاء المطمَئِنُّ أبو بكر -رضي الله عنه- وقرأها، قال عمر: «حتى عُقِرْتُ فما تقلني رجلاي»[1]، وكأن الآية نزلت الآن؛ لأن الناسَ من شدة ما أصابهم من الهول غفلوا، حينئذٍ يجد الإنسانُ لذةً في هذه الآية التي فَتح الله عليه بها، وكأنها نزلت الآن.

وفي هذه الآية فائدة، وهي: أنه كلما أتتك «ما» بعد «إذا» فهي زائدةٌ، ولهذا يقول النَّاظم:

يا طالبًا خذ فائدة   بعد (إذا) (ما) زائدة

ولها أمثلة منها: قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧]، أي: إذا غضبوا، وكذلك قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ﴾ [فصلت:٢٠]، أي: حتى إذا جاءوها، وهلمَّ جرًّا.

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، هذا أيضًا من تأثير القرآن، أنه إنذارٌ لمن بلغه، فكل إنسان قرأ القرآن يعرف معناه، فلا بد أن يتأثر به، حتى لو كان كافرًا، وكانت قريش حينما كان الرسول يقرأ القرآن، يجتمع عليه النساء والصبيان، بل وكبراؤهم،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم (٤٤٥٤).

يستمعون إليه؛ لأنه أثَّر فيهم، فجعلوا يأتون بالخفية يستمعون القرآن مِنْ فِيْ الرسول ﷺ، فالقرآن مؤثِّرٌ، وقد قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

ولهذا قال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ يعني: ومن بلغه من الناس، فقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ أيها المخاطبون، وقوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: من غيركم، وهذا يدل على قوة تأثير القرآن، وفي هذه الآية يَحْسُن أن نتكلم على قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾، فقد استدل به بعض العلماء على أن من بلغه القرآنُ فقد قامت عليه الحجة، وإن لم يعرف معنى القرآن، ولكن هذا القول ضعيف؛ لأن من لا يعرف معناه لا يأتي بمضمونه، والله -تعالى- قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، وقال الله -تعالى-: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥]، لكن إذا قيل له: (هذا كلام الله الواجب اتباعه) فقد بلغته الحجة، وإن لم يفهم المعنى على سبيل التفصيل؛ لأنه إذا عرف أن هذا كلام الله وهو وحي، وأنه يجب اتباعه فقد بلغه، ولا يقال: إنه لا بد من التفصيل؛ لأن التفصيلَ قد يكون صعبًا.

وهنا مسألة: هل الدِّين الإسلامي -الآن- بلغ الكفار على وجهٍ غير مشوَّشٍ أو لا؟

الجواب: لا، ولما ظهرت الجماعات الذين يتصرَّفون بغير حكمةٍ، ازداد تشويه الإسلام في نظر الغربيين وغير الغربيين، وأعني بهذه الجماعات أولئك الذين يُلْقُون المتفجِّرات في صفوف الناس؛ زعمًا منهم أن هذا من الجهاد في سبيل الله، والحقيقةُ أنهم أساؤوا إلى الإسلامِ أكثرَ بكثيرٍ مما أحسنوه.

وماذا أنتج هؤلاء؟ هل أقبل الكفَّارُ على الإسلام، أو ازدادوا نفرةً منه؟

الجواب: ازدادوا نفرة، حتى يكاد الإنسان المسلمُ يغطي وجهه لئلا يُنسب إلى هذه الطائفةِ المرْجِفة المرُوِّعَة، والإسلامُ بريءٌ منهم، حتى بعد أن فُرض الجهاد في صدر الإسلام ما كان الصحابةُ -رضي الله عنهم- يذهبون إلى مجتمعِ الكفَّار ويقتلونهم إلا بجهادٍ له رايةٌ من وليٍّ قادرٍ على الجهاد، أما هذا الإرهابُ فهو -والله- نقصٌ على المسلمين؛ لأننا نجد أنه لا يوجد نتائج، بل هو بالعكس فيه تشويهٌ للسمعة، ولو أننا سلكنا الحكمة، فاتقينا اللهَ في أنفسنا، وأصلحنا أنفسنا أولًا، ثم حاولْنا إصلاحَ غيرِنا بالطرق الشرعية لكانت هناك نتيجةٌ طيبة.

قال -تعالى-: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢].

فقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، أي: فيما يريدون منك، وما يريد الكافر من الرسول ﷺ يتضح من قوله -تعالى-: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي: اسكت عنا نسكت عنك، هذا الذي يريدون، كقوله: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء:٨٩]، لكن يقول الله له: «**لا تطعهم**».

وقوله: ﴿وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ﴾، أي: بالقرآن جهادًا كبيرًا، وهل نجاهدهم بآيات القرآن، أو بأحكام القرآن، أو بهما جميعًا؟ الجواب: بهما جميعًا، فجاهدهم بآياته، أي: اتلُ عليهم القرآن، ضيق عليهم؛ لأنهم ضاقوا ذرعًا بالرسول -عليه الصلاة والسلام- لما كان يقرأ ويجتمع إليه الناس، ضاقوا به ذرعًا حتى قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]،

فهذا جهاد يُضيِّق عليهم، و﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾، أي: بأحكامه وبحِكَمه، واتبع ما جاء في القرآن من قتالهم وجهادهم حتى تكون كلمة الله هي العليا.

وقوله: ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ أي: لا تتأنَّى وتمد إليهم يد الضعف، بل يد القوة؛ لأنهم هم يريدون أن يمدوا إليكم يد القوة، فيجب أن تمدوا أنتم لهم يد القوة، ولكن الحكمة تقتضي أن نتعامل مع الزمن، فإذا كان بنا قوة جاهدناهم، وإلا عاهدناهم إلى أن يفتح الله علينا بالقوة والعزة.

وقال -تعالى-: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩]، أي: تبيانًا لكل شيء، وهدىً لكل الناس، قال الله -تعالى-: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ فهو هدىً لجميع الخلق، لكنه هداية دلالة.

وقوله: ﴿وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ هذا خاصٌّ بالمسلمين، فالرحمة خاصَّةٌ بهم، وكذلك بشرى لهم إذا تمسكوا به.

والشاهد قوله: ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾، والقرآن الكريم مصدر الشريعة الإسلامية.

وقال -تعالى-: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾ [المائدة:٤٨].

فقوله: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: القرآن بالحق، أي: متلبسًا بالحق، ونازلًا بالحق، فنزوله حق، وما جاء به حق، فـ«**الباء**» للملابسة، وكذلك أيضًا للتعدية، فهو نازل نزول حق، ونازل بالحق، يعني: أتى بالحق،

فأخباره صدق، وأحكامه عدل، وقوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من قوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وكيفية تصديق القرآن لما بين يديه من الكتاب من وجهين:

الوجه الأول: أن الكتب السابقة ذكرت منه شيئًا فنزل مِصْداقًا لها.

الوجه الثاني: أنه يُصدِّقُها، ويقول: إنها حقٌّ وصدقٌ، ولهذا يجب علينا أن نؤمن بالكتب السابقة، فقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: مُصَدِّقٌ لما أخبرت به، ومصدِّقٌ لها بالحق.

وقوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ الهيمنة هي السيطرة والسلطة، يعني: أن القرآنَ ناسخٌ لما سبقه من الكتب.

وقوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هذا ترتيب على ما سبق، فقوله: ﴿فَٱحْكُم﴾ فـ«**الفاء**» هنا للسببية، أي: فبما أنه مهيمن احكم بينهم بما أنزل الله.

فإن قال قائل: بعض الناس إذا نصحته في الدُّخان قال: ليس حرامًا؛ لأن القرآن لم يحرم هذا، وإذا أوردت عليه آيةَ الأعرافِ، قال: القرآن لم يحرم هذا؟

فالجواب: إن القرآن قد يشير إلى أصولٍ وقواعدَ تتفرَّعُ منه الجزئيات، فقول الله -تعالى-: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] يفيد أن كل شيء يؤدي إلى ضررٍ في البدن، فإنه حرام، والدخان لا يشكل على أحدٍ الآن أنه ضارٌّ، ولهذا نجد الأمم الراقية في طلب الدنيا والمتعة فيها تحرمه، خصوصًا في

الأماكن العامة، وقد ذُكر لي أن قوادَ الطائرات إذا حاذوا بعض الولايات في أمريكا امتنعوا من التدخين وهم في الجو قبل أن ينزلوا إلى مطارات الولايات المتحدة، وكذلك في الأماكن العامة، فإذا كان كذلك، فقد قال الله في القرآن: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، وقد استدل عمرو بن العاص بهذه الآية على جواز التيمم خوفًا من التأذي بالبرد (١).

فإن قال قائل: إن بعض البلاد يشغلون أشرطة قرآن في مكبر الصوت، ويكون في أيامٍ مخصصة، فهل هذا مشروع؟

الجواب: هذا من البدع؛ لأنه لو كان القارئ يقرأ فعلًا والناس يستمعون إليه، قلنا: هذه بدعة، وخطأ أيضًا على الناس؛ لأن من الناس من يَوَدُّ أن يقوم يصلي، فكيف يصلي مع هذا الصوت العالي، ومنهم من يريد أن يقرأ لنفسه، فكيف يقرأ مع هذا الصوت العالي؟! فهذا غلط، وينبغي لطلبة العلم إذا ذهبوا إلى بلاد تعمل هذا العمل أن يُناصحوهم، لكن لا يقومون عليهم في المسجد، ويقولون: هذا خطأ، هذه البدعة، بل يتكلمون مع المسئولين عن المساجد، ولا يقولون: هذه بدعة بهذا اللفظ؛ لأن في هذا تنفيرًا لهم، بل يقولون: هذا يؤثر على الناس، يؤثر على المصلي، وعلى من يريد أن يقرأ لنفسه، وربما يؤدي أيضًا إلى امتهان القرآن، وهكذا.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت، معلقًا.

«والقرآن الكريم مصدرُ الشريعة الإسلامية التي بُعِثَ بها محمدٌ ﷺ إلى الناس كافَّةً، قال الله -تعالى-: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:١-٢].

وسنة النبي ﷺ مصدر تشريع أيضًا كما قرره القرآن، قال الله -تعالى-: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠]، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]».

الشـــرح

لما سبق بيانُ عظمةِ القرآن الكريم، وما وصفه الله به من الأوصاف، ذكر أمرًا مُهمًّا، وهو أن القرآنَ الكريم هو مصدرُ الشريعة الإسلامية، وكذلك السنةُ النبويَّةُ، فلا يمكن أن يؤخذ بتشريع أي مصدر كان، وأي إنسان كان إلا من الكتاب والسنة، وعلى هذا فلا يجوز أن يُشْرَّع لعبادِ الله شيءٌ من القوانين الوضعيَّة؛ لأن القوانينَ الوضعية لا تخلو من حالين:

إما أن تكون موافقةً للشرع؛ فنقول: إن الذي شرعها هو الشرع، ولا كرامة، ولا منَّة للقوانين الوضعية.

وإما أن تكون مخالفةً للشرع؛ فيجب علينا نبذُها وطرْحُها، وأن نعلم

أنها باطلةٌ؛ لأن الشريعةَ حقٌّ، وما عداها باطل، وأنها لا يمكن أن تُصْلِح الخلق، ولا يمكن أن يُصْلِح الخلقَ قانونٌ وَضَعَه بشرٌ مخالفٌ لشريعةِ الله؛ لأن هذا البشر الذي يظن أنه وضع ما يصلح للخلق:

أولًا: هو قاصر في نفسه، وفي عقله، وفي معرفة ما يُصْلِح الخلقَ.

ثانيًا: إذا قدَّرْنا أن الرجل الذي وضع القانونَ عنده عبقريةٌ وذكاء، فإنما يَعْرِف ذلك فيما حوله، أما ما كان منه بعيدًا عنه من الأماكن، فإنَّ الناسَ يختلفون فيما يُصْلِحُهم.

ثالثًا: إذا قدَّرْنا أن هذا الرجل الواضع للقانون عبقري، وذكي، ويعرف المصالح، فإنما يعرفها في زمنٍ محدودٍ، وهو زمنه الذي يعيش فيه، وأما فيما بعد فلا، ولهذا نعتبر من الجهل العظيم، بل من الكفر إذا قامت البينة والحجة على واضع القوانين التي وضعها إما يهود، أو نصارى من أزمنة بعيدة، ووضعوها بين أيدي الناس يتحاكمون إليها، نرى أن هذا خطأ عظيم، بل هو كفر إذا لم يكن هناك تأويل من الفاعل.

وعلى هذا فنقول: إنه لا مصدر للتشريع والحكم بين الناس إلا الكتاب والسنة، وقد ضل من ضل حيث قال: إن الكتاب والسنة إنما يبين المنهج الذي يكون بين الإنسان وبين ربه فقط، أو فيما بين الخلق في الأحوال الشخصية، كالمواريث، والأنكحة مثلًا، نقول: لقد ضللت ضلالًا مبينًا، وكذبت قول الله -تعالى-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

ونقول أيضًا: دعواك هذه يُكَذِّبُها القرآنُ الذي تُؤمِن به، فإن أطولَ آيةٍ في كتاب الله هي آية الدَّيْن، وكلُّها في معاملات الخلق، ثم إن الله -عز وجل- يُبَيِّنُ في آياتٍ كثيرةٍ أشياءَ غير التي في آية الدَّيْن، كلُّها تتعلَّق بالمعاملات، والأنكحةِ، والفرائضِ وغيرِها.

فالحاصل: أنَّ من ابتغى الهُدَى مِنْ غير كتاب الله أضلَّه الله -عز وجل-، وكذلك أيضًا السنة النبوية مصدرُ تشريعٍ أيضًا، ولكن إذا صحَّتْ عنِ النبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-؛ لأنَّ ما لا يَصِحُّ ليس بعُمْدَةٍ، ولهذا نقول: إن الذي ينظر في القرآن ينظر من وجهٍ واحدٍ فقط، وهو دلالةُ القرآن على الحُكْم، أما الذي ينظر في السنةِ فيَجب عليه نظران:

النظر الأول: ثبوت هذا عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

النظر الثاني: دلالته عليه.

أي أن المستدلَّ بالسنة يحتاج إلى أمرين: النظر في ثبوتِها، ثم النظر في دلالتها.

فإذا قال قائل: ما الدليلُ على أن السنَّةَ تشريعٌ؟

قلنا: القرآن، واقرأ قوله -تعالى-: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، قوله: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: هو القرآن، وسمي فرقانًا؛ لأنه يُفَرِّقُ بين الحقِّ والباطلِ، وبين أولياء الله وأعداء الله، وبين كل الأمور المختلفة، ولهذا لا يوجد في الشريعة شيء مختلف إلا والعقل يقتضي اختلافه، أو متفق إلا والعقل يقتضي اتفاقه.

وفي قوله: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ دليل على عموم رسالة النبي -عليه الصلاة والسلام-.

وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]، هذا أيضًا يدل على أن الكتاب الذي يجب أن نسير عليه هو القرآن.

وقوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:٢] فقوله: ﴿ٱللَّهِ﴾ «**اللام**» هنا مفخمة، وذلك إذا وقفت على الآية التي قبلها، وإن وصلت فهي مرققة؛ لأن ما قبلها مكسور ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]، أما إذا قلت: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، ثم قلت: ﴿ٱللَّهِ﴾ فتفخم.

وقوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما دام هو مالك السموات والأرض، وجب أن يكون الحكم إليه، وإلى ما نزل من كتابه.

وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:٢]، والكافرون هم الذين لا يهتدون بهذا القرآنَ، فويلٌ لهم من عذابٍ شديدٍ، سواء قالوا: إن محمدًا -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- لم ينزل عليه القرآن، أو قالوا: إنه نزل عليه القرآن، لكن ليس على العالمين، بل لبعضِهم.

وسنة النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- تشريعٌ أيضًا كما قرره القرآن، قال الله -تعالى-: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وجه

الدَّلالة: أن الذي يطيعُ الرسولَ قد أطاع الله، ومعلومٌ أن المراد بطاعة الرسول هنا ما لم يَرِدْ به القرآنُ، وأما مَا ورد في القرآنِ فالطاعةُ فيه طاعةٌ لله، لكن إذا لم يكن في القرآنِ، وأمرَ الرسولُ -عليه الصلاة والسلام- بشيءٍ، أو نهى عن شيءٍ، فطاعتُه طاعةٌ لله، وهذه دلالة واضحة، أن ما جاء في السنة تجب طاعته، كما جاء في القرآن، ومن لم يَفْعَلْ فلم يُطِعِ اللهَ.

وقوله: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠]، كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٥٤]، ومن تولَّى ولم يُطِعِ الرسولَ، فإن النبيَّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قد بلَّغه وبرئ منه.

وقال -تعالى-: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]، نقول في هذه الآية كما قلنا في الآية التي قبلها، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هذا فيما نهى عنه الرسولُ -عليه الصلاة والسلام- أنَّ مَن عصاه فقد ضلَّ، أما ما نهى الله عنه، فإن مخالفته معصيةٌ لله، فدلَّ ذلك على أنَّ ما جاءَ عن الرسولِ حُجَّةٌ، كالذي جاء عن الله.

قال -تعالى-: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، وهذه الآية وإن كانت في الفيء، وقسمة الفيء، فإنه إذا كان الله -تعالى- قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، فهو شاملٌ لما أتانا من شريعة الله، وما نهانا عنه من شريعة الله.

وقال -تعالى-: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١]، وهذه الآية تسمى آية المحنة، يعني: آية الامتحان والاختبار في قول من ادَّعى أنهم يحبون الله، فقال الله -عز وجل-: ﴿قُلْ﴾ يعني: يا محمد،

﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ فهذا هو الميزان، فمن ادعى محبةَ الله، قيل له: إن كنت صادقًا فاتَّبع الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وإن قلتَ: إني أحبُّ اللهَ ولم تتَّبع الرسولَ؛ فأنت كاذب.

وقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ لم يقل: فاتبعوني تَصْدُقُوا فيما قلتم، بل قال: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ففيه إشارة إلى أن الشأن كل الشأن أن يحبك الله -عز وجل-، وأما دعوى أن الإنسان يحب الله فهذا قد يدَّعيه كلُّ واحدٍ، فالشأنُ كلُّه أن الله -تعالى- يحبه.

وقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بيَّن الله -عز وجل- أنَّ مَن اتَّبَع الرسول -عليه الصلاة والسلام- حصلت له فائدتان:

الأولى: محبةُ الله.

والثانية: مغفرةُ الذنوب.

* * *

١- نُزُولُ القُرْآنِ

«نَزَلَ القرآنُ أولَ ما نزلَ على الرسولِ ﷺ في ليلةِ القدر في رمضانَ، قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر:١]، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٣-٤]، ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

وَكَان عُمْرُ النبيِّ ﷺ أولَ ما نزل عليه أربعين سنةً على المشهور عند أهل العلم، وقد روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وعطاء، وسعيد بن المسيِّب، وغيرهم. وهذه السِّنُّ هي التي يكون بها بلوغ الرشد، وكمال العقل، وتمام الإدراك.

والذي نزل بالقرآن من الله تعالى إلى النبي ﷺ جبريلُ، أحدُ الملائكة المقرَّبين الكرام، قال الله تعالى عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]».

الشــرح

قوله: «نزل القرآن أول ما نزل» يعني: ولم ينزل كلُّه، بل أول ابتداء نزوله كان في ليلة القدر في رمضان، أما كونه في ليلة القدر، فلقوله -تعالى-: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر:١]، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٣-٤]، وأما كونه في رمضان فلقوله -تعالى-: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، وبهذا نعرف أن ليلة القدر كانت في رمضان،

فأول ما نزل في رمضان، لكن قبل رمضان كان يأتيه الوحي على صورة الرؤية، فكان أول ما بُدِئَ به أن يرى رؤيةً إذا رآها في الليل جاءت مثل فَلَق الصبح[1]، وابتداء هذه الرؤية من ربيع الأول، فبقي ستة أشهر: (ربيع الأول، والثاني، وجمادى الأولى، وجمادى الثانية، ورجب، وشعبان)، ثم نزل عليه القرآن في رمضان.

قال بعض العلماء: وهذا هو السرُّ في قول النبي ﷺ الرؤية الصادقة جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءًا من النبوة[2]؛ لأن رسالة النبي -عليه الصلاة والسلام- كانت ثلاثةً وعشرين سنةً ونصفَ السنةِ، فصار جزءًا من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، والله أعلم.

إِذنْ: كان عمرُه -عليه الصلاة والسلام- حين نُزول القرآن أربعين سنةً.

ولهذا قال بعضُ العلماء في قوله -تعالى-: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤] قالوا: بلغ أربعينَ سنةً.

هذا أوَّلَ ما نزَل عليه القرآنُ، وله أربعون سنة، وَصِفَةُ ذلك معروفةٌ في كتب أهل العلم، ولا سيَّما في صحيح البخاري في أوَّلِه.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه الجملةُ مؤكَّدَة بمؤكِّدَين فقط: بـ«**إنَّ**» و«**اللام**».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم (٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التعبيرات، باب رؤيا الصالحين، رقم (٦٩٨٣)، ومسلم: كتاب الرؤيا، رقم (٢٢٦٤).

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ الضمير يعود على القرآن، وأضاف التنزيلَ إلى رب العالمين، إشارةً إلى أنَّ هذا القرآنَ لجميع العالمين ما دام المنَزِّلُ له هو ربُّ العالمين؛ فإنَّه يكون لكلِّ العالمين.

وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾، وهو جبريل -عليه الصلاة والسلام-.

وقوله: ﴿ٱلْأَمِينُ﴾: هو وصفٌ لازِم له، وحَسُنَ وصفُه هنا؛ لأنه نزل بأعظمِ أمانةٍ، ألا وهي القرآن، فلهذا وُصِفَ بأنه أمين، وكما قال الله -تبارك وتعالى- في سورة التكوير: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١].

وقوله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ إنما ذكر محلَّ نُزوله، وهو القلب، إشارةً إلى عقل النبي ﷺ له، وأنه نزل على محلِّ العقل، الذي هو القلب.

و«**اللام**» هنا في قوله: ﴿لِتَكُونَ﴾ لام التعليل، أي: لأجل أن تكون من المنذرين.

وقوله: ﴿بِلِسَانٍ﴾ متعلق بـ: ﴿نَزَلَ﴾ يعني: نزل بلسان عربي مبين، أي: بلغة عربِيَّة نسبةً للعرب، وهم الذين كان منهم الرسول ﷺ.

وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ هل هو بَيِّن أو مُبَيِّن، أو هما جميعًا؟ الجواب: هما جميعًا، فهو بَيِّن لنفسه، مُبَيِّنٌ لغيره.

فالشاهد: أن هذه الآية تدل على أن القرآن نزل من عند الله، وأن الواسطة بين الله والرسول هو جبريلُ -عليه الصلاة والسلام-، وأن القرآن نزل بلسان عربي.

وسيأتينا في هذه الرسالة -إن شاء الله تعالى- حكم ترجمة القرآن الكريم للغات الأخرى[١].

***

«وقد كان لجبريل -عليه السلام- مِن الصفات الحميدة العظيمة، من الكرم والقوة، والقرب من الله تعالى، والمكانة، والاحترام بين الملائكة، والأمانة، والحسن، والطهارة؛ ما جعله أهلًا لأن يكون رسول الله -تعالى- بوحيه إلى رسله.

قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١].

وقال -تعالى-: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النجم:٥-٧].

وقال -تعالى-: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

وقد بيَّن اللهُ -تعالى- لنا أوصافَ جبريلَ الذي نزَل بالقرآن من عنده، وتدل على عِظَمِ القرآن، وعِنايته -تعالى- به، فإنه لا يُرسَل مَنْ كان عظيمًا إلا بالأمور العظيمة».

الشـــرح

هذه صفات عظيمة، وقد جاءت الأدلة على هذه الأوصاف.

---

(١) انظر تحت عنوان ترجمة القرآن من هذا الكتاب (ص:٢٢١).

ومنها قوله -تعالى-: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ... ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١]، **فقوله**: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا دليل على الكرم، وقوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ هذا دليل على القوة، وقوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: أنه قريب من الله -عز وجل-، وقوله: ﴿مَكِينٍ﴾ أي: ذو مكانة، وقوله: ﴿مُّطَاعٍ﴾ وهذا دليل على أنه ذو احترام، قوله: ﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾ هذه أمانة، وقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥] أي: شدة قوته، وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ هو الحسن، وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قال العلماء: على هيئة حسنة، وقال -تعالى-: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢] وهذه الآية دليل على اتصافه بالطهارة.

ولهذه الأوصاف العظيمة التي اتصف بها جبريل -عليه السلام- كان أهلًا لأن يكون الحامل لكلام الله -عز وجل- إلى رسلِه -صلوات الله وسلامه عليهم-، وقد بيَّن اللهُ -تعالى- لنا أوصافَ جبريل الذي نَزَل بالقرآنِ مِن عنده، وهذا البيانُ يدُلّ على عظمة القرآن، وعناية الله تعالى به، فإنه لا يُرسَل من كان عظيمًا إلا بالأمور العظيمة، فكونُ الله يصف جبريلَ بهذه الأوصاف العظيمة دليلٌ على عِظَم ما أُرْسِل به؛ لأنه لا يُرْسَل بالأمور العظيمة إلا مَنْ هو عظيمٌ، ولهذا يفرق الرجلُ بين أن يُرْسِل الخادم ليأتي إليه بخبز من البقالة، وبين أن يرسِل خادمًا آخر إلى رئيسٍ، أو وزيرٍ، فيكون الثاني أعظمَ وأحقَّ من الأول.

* * *

٢- أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ

«أَوَّل ما نزل من القرآنِ على وجه الإطلاق قطعًا الآياتُ الخمسُ الأُوْلَى من سورة العلق، وهي قولُه -تعالى-: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥]».

الشــرح

ينبغي لنا أن نعرف أولَ ما نزل من القرآن، وآخرَ ما نزل؛ لأنه من مهمات معرفة المتأخر والمتقدِّم، وذلك أنه لو جرى تعارُضٌ لا يمكن الجمع بينه علِمْنا أن المتقدِّمَ منسوخٌ بالمتأخِّر، فلا بُدَّ أن نعرِف أول ما نزل.

قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أمرَ جبريلُ -عليه الصلاة والسلام- رسولَ الله ﷺ أن يقرأ فقال: ما أنا بقارئ، ومعنى قوله: «**ما أنا بقارئ**»، أي: أني لا أحسن القراءة، وليس مرادُه العصيانَ، بل أخبره أنه ليس بقارئ؛ لأن النبي ﷺ كان أُميًّا، كما قال -تعالى-: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨]، فهو لا يقرأ ولا يكتب.

قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وهنا ذكر ابتداء خلق الإنسان؛ لأنه من المناسب جدًّا في هذا المقام الذي هو ابتداء الشرع، فذكر اللهُ ابتداءَ الخلق، وابتداءَ الشرع، فابتداءُ الخلق: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وابتداءُ الشرع: أنَّ هذا أولُ ما نزل من القرآن.

وقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾

الإنسانُ: اسم جنس، وهو للعموم، أي: خَلَقَ كلَّ إنسان من علق، وفي آيات أخرى أن الله خَلَقَهم من نُطْفَةٍ، وفي آيةٍ أخرى من ماءٍ مهين، فكيف عَدَل في هذه الآية عن النطفة، والماء المهين إلى العلقة؟

الجواب: لأن العلقةَ إذا انتقلت النطفةُ إليها، فإنه هذا يدُلّ على ابتداء خلق الإنسان؛ لأن العلقَةَ عبارةٌ عن دودةٍ حمراءَ، وهي أولُ الدم وأول الجسم، فلهذا ذكر الله -سبحانه وتعالى- هذا، أما قبل ذلك فهو عرضة للفساد.

قوله: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ﴾ «**الواو**» للاستئناف، و﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ اسم تفضيل من الكرم، قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ قال بعضُهم: إنَّ هناك شيئًا محذوفًا، والمعنى: الذي علَّمَ الكتابةَ بالقلم، ولكن الذي يظْهَرُ أنه لا حاجَةَ للتقدير، وأن المعنَى عَلَّمَ بالقلم كيف نَكتب به، وإذا دار الأمرُ بين الحذف وعدمِ الحذف، حُمِل الكلامُ على عدم الحذف؛ لأنه الأصلُ، وذُكِرَ القلمُ؛ لأن هذا القرآنَ الكريم يُحفَظ في الصدور، ويُحْفَظ بالكتابة، والكتابةُ طريقُها القلم.

قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: كل إنسان، قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ كما قال الله -تعالى-: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

إذا قال قائل: أين العائدُ إلى الموصول في قولِه: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾؟

فالجواب: محذوفٌ، وتقديرُه: ما لم يعلمه.

فالشاهد: أن هذه الآيات هي أول ما نزل من القرآن.

فإن قال قائل: إذا كانت أولَ ما نزل من القرآن، فلماذا لا تكون هي أولَ القرآن؟

الجواب: لأن الفاتحةَ هي أمُّ القرآن، فهي كالعنوان للقرآن الكريم، وما بعدها تفصيلٌ له، ولهذا لا تكاد تجد معنًى من القرآن إلا وقد تضمَّنَتْه سورةُ الفاتحة إيماءً إليه، ولذلك صارت هي الأُوْلَى في القرآن.

* * *

«ثم فَتَرَ الوحيُ مدةً، ثم نزلتِ الآياتُ الخمسُ الأُولى من سورةِ المدَّثِر، وهي قولُه -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر:١-٥]».

الشرح

قوله: «**ثُمَّ فَتَر الوحيُ**» والحكمةُ من فُتُور الوحْيِ وعدَمِ تتابُعِه في أوَّلِ الأمر؛ لِيشتدَ شوقُ الرَّسولِ -عليه الصلاة والسلام- إليه كما وقع فعلًا، فإنه لما فَتَر صار النبيُّ ﷺ يخرُج ليتطلع إلى جبريل -عليه الصلاة والسلام-؛ حتى إنه ليهمُّ أن يتردَّى من قِمَم الجبال -صلوات الله وسلامه عليه-[1]، من شدة شوقه إلى الوحي، فكان من الحكمة أن الله -عز وجل- أَخَّرَه فترةً من الزمن، واختلف العلماءُ فيها، ولكن المهم أن الله -تعالى- أخَّره إلى وقتٍ يشتاق النبيُّ ﷺ إليه اشتياقًا كاملًا.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ أصلهُا -من حيث الوزن الصرفي-: (المتَدَثِّر)، لكن

(١) أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ، رقم (٦٩٨٢).

قُلِبَتِ التاءُ دالًا لعلةٍ تصريفية.

والمدَّثر: لابس الدِّثار؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**دَثِّرُونِي، دَثِّرُونِي**»[(١)].

قوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أمره الله -تعالى- أن يقومَ ويُنْذِرَ، وألّا يَرْكَنَ إلى الكسلِ، والخمول، بل يكون نشيطًا، وينذر الناس.

قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ «**ربَّ**» هنا مفعولٌ مقدَّمٌ لِـ(كَبِّرْ)، و«**الفاء**» هنا لتزيين اللفظ، وقيل: إنها عاطفة، والأصل: (فرَّبك كبر).

وقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ الثياب: قيل: هل هي الثياب الحسية، أي: طَهِّر ثيابك من النجاسة، وقيل: الثياب المعنويَّة المشار إليها في قوله -تعالى-: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦]، والصواب الثاني، وهذا هو المهم، ولهذا قال: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾.

وقوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾ يعني: الأوثان. ﴿فَٱهْجُرْ﴾.

فأمره الله تعالى بهذه الأمور الأربعة؛ فقام -عليه الصلاة والسلام- وأنذرَ، ولهذا قال العلماءُ -رحمهم الله-: إن النبيَّ ﷺ صار نبيًّا بآيات العلق، وصار رسولًا بآيات المدَّثر، وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-: «نُبِّئَ باقرأ، وأُرْسِل بالمدَّثر»[(٢)].

***

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، رقم (٤٩٢٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي على رسول الله ﷺ، رقم (١٦١).

(٢) الأصول الثلاثة، والقواعد الأربع (ص:٢٠).

«ففي (الصحيحين): صحيح البخاري ومسلم[(١)]، عن عائشةَ -رضي الله عنها- في بدء الوحي قالت: حتَّى جاءَه الحقُّ، وهو في غار حراء، فجاءه الملَكُ، فقال: اقرأ، فقال النبي ﷺ: «ما أنا بقارئ» يعني: لست أعرف القراءةَ، فذكر الحديثَ، وفيه: ثم قال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١-٥].

وفيهما[(٢)] عن جابر -رضي الله عنه-، أن النبيَّ ﷺ قال -وهو يُحدِّث عن فترة الوحي-: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّماءِ...» فذكر الحديثَ، وفيه، فأنزل الله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾، إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [المدثر:١-٥]».

الشــرح

قوله: «جاءه الحق» يعني: الشرعُ أو القرآنُ.

وقوله: «في غار حراء» هو غارٌ في جبلٍ على يمين الداخلِ إلى مكة من جهةِ الشَّرائع، وهو جبلٌ معروف، ويسميه أهلُ الحجاز: (جبل النور)؛ لأن الله أول ما أنزل فيه القرآن، والقرآن نور، كما قال -تعالى-: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء:١٧٤] لكن تسميته باسمه الأول المعروف في عهد الصحابة هو (غار حراء، أو جبل حراء) أحسن.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى الرسول ﷺ، رقم (٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى الرسول ﷺ، رقم (١٦٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي على رسول الله ﷺ، رقم (٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦١).

قوله: «فجاءه المَلَكُ» «**أل**» هنا للعهد الذهني؛ لأن المَلَكَ هنا هو جبريلُ -عليه السلام-.

فإن قال قائل: هل نقول: إن السُّنَّةَ هي المصدرُ الثاني للتشريع، وهل نقول: إن النبيَّ ﷺ مشرِّعٌ، كما أن الله -تعالى- مشرِّعٌ؟

فالجواب: إن قيل إنها المصدر الثاني، بمعنى: أننا لا نقبلها إلا في المرتبةِ الثانيةِ فهذا غلط؛ لأنها بمنزلة القرآن.

وأما إن قيل: إنها المصدر الثاني من حيثُ العدد لا من حيث الترتيب، فلا بأس.

فإن قال قائل: هل يتعارضُ قولُهُم: «نُبِّئ بـ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ مع قولنا المتقدِّم: وكان ستةَ أشهرٍ يرى الرؤيا الصادقةَ؟

فالجواب: لا يتعارضُ؛ لأنَّ الرؤيا الصالحةَ قد تكون من غير الرسول، لكنها كالمقدِّمَةِ.

فإن قال قائل: هل حُكْمُ ما أنزل الله متعلِّقٌ بتوحيد الألوهية، أم بتوحيد الربوبية؟ وما الذي يترتب على هذا؟

الجواب: الواقع أن الحكمَ من باب توحيد الربوبية؛ لأن الذي يملِكُ الحكمَ والتشريعَ هو الربُّ -عز وجل-، ولهذا ففي حديث عدي بن حاتم، لما أنزل الله هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]، قالوا: يا رسول إنا لسنا نعبدُهم، قال: «**أَلَيْسَ إِنَّهُمْ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟**» قلت: بلى، قال:

«فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»[١]، فعلاقتُها بتوحيد الربوبية أقوى من تعلقها بتوحيد الألوهية، ومن جهة أخرى نقول: لها علاقة بتوحيد العبودية؛ لأن من الشرائع أن يتعبد إلى الله، فإذا تعبد بغير شرعه، فقد أخل بالعبودية؛ لأن من شرط العبادة الإخلاصَ والمتابعةَ.

فإن قال قائل: هل ما كان معلومًا من الدين بالضرورة يحتاج هو الآخر إلى إقامة الحجة؟

فالجواب: نعم، ولهذا قال العلماء -رحمهم الله-: من أنكَرَ وُجوبَ الصلوات الخمس وهو حديثُ عهدٍ بإسلامٍ، أو في باديةٍ بعيدة، فإنه لا يُحْكَمُ بكفره حتى يُبَلَّغ.

ثم إن القول: بأن هذا معلوم من الدين بالضرورة أمرٌ نسبيٌّ، قد يَرَى بعضُ العلماء أن هذا من المعلومِ من الدِّينِ بالضَّرورة، وقد يَرى آخرُ خلافَ ذلك.

* * *

(١) أخرجه الترمذي: كتاب التفسير، باب ومن سورة براءة، رقم (٣٠٩٥).

«وثَمَّتْ آياتٌ يقال فيها: (أولُ ما نزل)، والمرادُ أوَّلُ ما نزل باعتبار شيء معين، فتكون أوليةً مقيَّدَةً مثل: حديث جابر -رضي الله عنه- في (الصحيحين)[1]. أن أبا سلمة بن عبد الرحمن سأله: أي القرآن أُنْزِل أولَ؟ قال جابر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١]، قال أبو سلمة: أُنْبِئتُ أنه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١]، فقال جابر: لا أُخبرك إلا بما قال رسولُ الله ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «جَاوَرْتُ فِي حِرَاء فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ...» فذكر الحديث وفيه: «فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، وأُنْزِلَ عليَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾» [المدثر:١-٥].

فهذه الأَوَّلِيَّةُ التي ذكرها جابر -رضي الله عنه- باعتبار أول ما نزل بعد فترة الوحي، أو أَوَّلُ ما نزل في شأن الرسالة؛ لأن ما نزل من سورة اقرأ ثبتَتْ به نبوةُ النبيِّ ﷺ، وما نزل من سورة المدثر ثبتت به الرسالة في قوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:٢].

ولهذا قال أهل العلم: إن النبي ﷺ نبئ بـ: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق:١]، وأرسل بـ: ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١]».

الشـرح

قد تقدَّم بيانُ أولِ ما نزل من القرآن الكريم على الإطلاق، وهنا أوليَّةٌ إضافية، بمعنى: أنه أولُ ما نزل باعتبار شيءٍ معينٍ، ومن ذلك قول الله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ فإن جابرًا -رضي الله عنه- سُئِل عنها أي:

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، (٤٩٢٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦١).

عن أول ما نزل، فقال: هذه الآية، وهذا يتناقض مع ما سبق من أنَّ أولَ ما نزل هي الخمسُ آيات من سورة اقرأ.

فيقال للجمع: إن هذه أوليةٌ نسبيَّةٌ، وإن شئت فقل: أولية إضافية، يعني: باعتبار شيءٍ معين، فيقال مثلًا في قول جابر -رضي الله عنه- إن هذا أولَ ما نزل، أي: باعتبار ما نزل بعد فترة الوحي؛ لأن أولَ ما نزل خمسُ آيات من أول سورة اقرأ، ثم فَتَرَ الوحيُ، ثم جاءت خمس الآيات من سورة المدثر.

أو يقال: إنها أولُ ما نزل باعتبار الرسالة، بأن ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ ثبتت به النبوة، و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ ثبتت بها الرسالة، وهذا جمع واضح، وهذه تسمى أولية إضافية، أو أولية نسبية، وسيأتي -إن شاء الله- مثل ذلك في آخر ما نزل.

***

٣- نُزُولُ الْقُرْآنِ ابْتِدَائِيٌّ وَسَبَبِيٌّ

«ينقسم نزول القرآن إلى قسمين:

القسمُ الأوَّلُ: ابتدائيٌّ: وهو ما لم يتقدَّمْ نزولَه سببٌ يقتضيه، وهو غالبُ آيات القرآن، ومنه قوله -تعالى-: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة:٧٥] الآيات، فإنها نزلت ابتداء في بيان حال بعض المنافقين، وأما ما اشتهر من أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب في قصة طويلة، ذكرها كثيرٌ من المفسرين، وروَّجها كثيرٌ من الوعَّاظ، فضعيفٌ لا صحة له[1]».

الشــرح

نزول القرآن الكريم ينقسم إلى قسمين: ابتدائي وسببي، فالابتدائي: ما ليس له سببٌ، وهذا أكثر القرآن، ومنه قوله -تعالى-: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١-٢].

ثم قال: «وهو غالبُ آيات القرآن الكريم، ومنه قوله -تعالى-: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ [التوبة:٧٥]»، واخترنا التمثيلَ بهذه الآية وإن كان غيرها كثيرًا؛ لأجل الإشارة إلى القصة التي ذُكِرَتْ فيها.

فقوله: ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المنافقين.

وقوله: ﴿مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ ﴿مَّنْ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ أي: قال:

(١) رواه الطبراني، وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك.

أعاهدُ اللهَ -عز وجل- أن الله إذا أغنانا من فضله لأتصدقن، ولأكونن من الصالحين، وهذا نذرٌ، وهو نذرُ طاعةٍ معلَّقٍ بشرط، ونذرُ الطاعةِ ينقسم إلى قسمين: مطلق، ومعلق.

فالمطلق: مثل أن يقول: لله عليّ نذر أن أصلي ركعتين.

والمعلق: مثل أن يقول: إن شفى الله مريضي فللّه عليّ نذر أن أتصدق بكذا، أو مثل نذر هؤلاء ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [التوبة:٧٥].

وأيهما آكد في وجوب الوفاء؟

الجواب: المعلق؛ لأن المعلق على اندفاع نقمة، أو حصول نعمة، فهو نذرٌ يتضمن العهدَ والشُّكْرَ لله -عز وجل-، وقد أعطاك الله -تعالى- ما عاهدته عليه، فوجب عليك أن توفي له بما عاهدته عليه.

وقوله: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات وهي: «**اللام**»، و«**القَسَم المقدَّر**»، و«**النون**».

ثم قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [التوبة:٧٦-٧٨]، وفي هذه الآية التحذير من مثل هذا النذر وإخلافه، وأن الإنسان إذا نذر لله تعالى شيئًا على اندفاع مكروه، أو حصول مطلوب فلم يَفِ به؛ فإنه ربما يعاقب بهذا العقاب العظيم.

وقوله: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ يعني: إلى الموت -والعياذ بالله- ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾.

يقول: إنها نزلت في ثعلبة بن حاطب في قصة طويلة، وأنه جاء إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- يريد التوبة، ولكنه لم يحصل له ذلك، والقصة مذكورة في التفسير، ولكنها لا صحةَ لها في ثعلبةَ بْنِ حاطبٍ، وهذه قصةٌ غيرُ صحيحةٍ، وذلك لأن الرجل مهما أذنب من الذنوب إذا تاب ورجع إلى الله فإن الله يقبل منه، فهذه القصة مخالِفَةٌ لما عُلِم من الضرورة، وهو قبولُ توبة الله تعالى من التائبين، ولهذا ينبغي للإنسان إذا سمع مثل هذه القصص التي تخالف القرآن أن يحرِّرَها، ثم يبين ما فيها من البطلان.

***

«القسم الثاني: سببي: وهو ما تقدَّم نزولَه سببٌ يقتضيه.

والسبب:

أ- إما سؤالٌ يجيب الله عنه، مثل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩]».

الشــرح

وفي القرآن أساليب أخرى مثل هذا الأسلوب ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، ولكننا اخترنا التمثيلَ بهذه الآية لما سنذْكُره -إن شاء الله-.

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾ السائل هم الصحابة، ويحتمل أنه غيرهم، لكن الظاهر أنهم هم الصحابة وليس المشركين.

وقوله: ﴿ٱلۡأَهِلَّةِ﴾ جمع هلال وهو القمر، يُرى في أول ليلة، وثاني ليلة، وثالث ليلة، لكن الحكم يتعلق برؤيته أول ليلة، ثم بَيَّن الله تعالى الحكمة من ذلك فقال -تعالى-: ﴿قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ﴾.

وقوله: ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ أي: كلُّ الناس من العرب والعجم، منذ خلق اللهُ الأهلةَ إلى أن يشاء الله، هذه هي المواقيت التي خلقها الله -عز وجل- لتكون مواقيت للناس.

وقوله: ﴿وَٱلۡحَجِّ﴾ نصَّ على الحج؛ لأن ميقاتَ الحج الأَشْهُرُ، والصلاة ميقاتُها يوميٌّ، زوال الشمس وغروبها، وما أشبه ذلك، لكن الحج أَشْهُرٌ، ولم يذكر شهر رمضان مع أنها مواقيت شهر رمضان؛ لأن الحجَّ يحتاج إلى سفر وعناء؛ ولأن الحجَّ ليس شهرًا واحدًا بل هو أشهر، فلهذا قال: ﴿وَٱلۡحَجِّ﴾، وقد ذكرنا هذا المثال من أجل دفع ما قاله البلاغيون في أسلوب الحكيم، فأسلوب الحكيم هو: أن يُجاب السائِلُ بخلاف ما يتوقَّع، إشارة إلى أنه كان ينبغي أن يسأل عنها، يعني: إنسان يسألك عن شيء فتجيبه بخلاف ما يتوقع، إشارةً إلى أنه ينبغي أن تسأل عن هذا لا عن هذا.

يقول البلاغيون: إن الصحابة -رضي الله عنهم- سألوا النبيَّ -عليه الصلاة والسلام- عن الأهلةِ، وسببِ بُدُوِّ الهلال صغيرًا، ثم يكبر، ثم يعود فينقص؟ فصرف الله الجوابَ عما سُئِلَه إلى بيان فائدة هذه الأهلة، وليس إلى بيان السبب الطبيعي لهذه الأهلة.

فيقال للبلاغيين -عفا الله عنكم-: من أين أتيتم بهذا؟

قالوا: لأجل أن نُمَثِّل لأسلوب الحكيم.

فنقول: لكن هذا ليس له أصلٌ، فالصحابة سأَلوا عن الحكمة من ذلك، فأُجيبوا ببيانه لماذا تكبر وتصغر، ونجيب بذلك من أجل أن تكون مواقيتَ للناس والحج، ولهذا نجد الإنسان الذي يتابع القمر تمامًا، يمكن أن يحدد لك الليل بمجرد أن يرى القمر؛ لأنه يسير بتيسير الله -عز وجل- بنظامٍ بديع، وسير منظم، فالقمر يستفيد نورَه من الشمس، وكلَّما بَعُد عنها كان أكثر مقابلة لها، وكلما كثرت المقابلة ازداد نورًا، ولهذا يكون في النصف من الشهر في الشرق، والشمس في الغرب، فتكون المقابلة تامة فيمتلئ نورًا، وكلما قرب ضعف نوره، ويكون القمر في أول الشهر يكون ظهر قوسه إلى المغرب، وفي آخر الشهر يكون ظهر قوسه إلى الشرق؛ لأنه في آخر الشهر يكون أقربَ إلى الشمس من جهة المشرق، وفي أول الشهر يكون أقرب إلى الشمس من جهة المغرب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

١ - إثباتُ علم الله -عز وجل-، وسِعَةِ سمعه.

٢ - أن الصحابةَ -رضوان الله عليهم- لم يتركوا شيئًا يحتاجه الناس إذا لم يبين لهم ابتداءً إلا سألوا عنه، وبذلك كمل الدين.

* * *

«ب- أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان وتحذير، مثل: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ...﴾ الآيتين [التوبة:٦٥-٦٦]، نزلتا في رجل من المنافقين قال في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله ﷺ وأصحابه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن، فجاء الرجل يعتذر إلى النبي ﷺ فيجيبه ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة:٦٥]»(١).

الشـرح

هذا أحد الأسباب، فالمنافقون لا يألون جهدًا في القدح في الإسلام والمسلمين، لكنهم يختفون لجبنهم، وعدم صراحتهم، وخيانتهم، وخداعهم، يقولون: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء...، إلى آخره، فقال الله -عز وجل-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ يعني: نخوض في الحديث، ونلعب في الأفكار، ولسنا نقصد ذلك على وجه الجد، فقوله: «أرغب بطونًا» يعني: أوسع بطونًا، وسعة البطن تقتضي كثرة الأكل، فالمعنى أن هؤلاء ليس لهم هَمٌّ إلا بطونهم.

وقوله: **«ولا أكذب ألسنًا»** الكذب: هو الإخبار بخلاف الواقع.

وقوله: **«ولا أجبن عند اللقاء»** الجبن: هو الشح بالنفس، والبخل: هو الشح بالمال، فالمنافقون هم أحق الناس بهذه الأوصاف، فهم الذين لا يريدون إلا الدنيا وشبع البطون، وشهوة الفروج، والرئاسة المذمومة، لكن محمدًا

---

(١) ذكر هذه الحادثة ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٦٨)، والطبري (١٠/ ١٧٢).

رسول الله ﷺ وأصحابه لا يريدون هذا، وإن أرادوه فإرادة ثانوية، فالأمر عندهم أعظم من هذا، فهم يريدون الآخرة، يعني: رسول الله ﷺ وأصحابه، ومع هذا وصفوا بها النبي ﷺ الذي يقول لأمته: «**بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**»(١) -نسأل الله أن يعيننا على سلوك هذا التنظيم الطبي- أكثر الناس تملأُ بُطونَها كلما أفطر، وكلما تغدى، وكلما تعشى، وإذا قيل له في ذلك، قال: إن أبا هريرة -رضي الله عنه- قال: «**لا أجد له مسلكًا**»(٢)، فيحتج في هذه القضية الخاصة، والنظام الذي نَظَّمَهُ الرَّسُولُ يغفل عنه، مع أن النظامَ الذي نظمه الرسولُ ﷺ هو الصحة، فقال: «**مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ**»(٣)، وهذا واضحٌ، ولذلك قال شيخُ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «إنه يحرم على الإنسان الأكل والشرب إذا خاف أن يتأذى به، أو خاف تخمة يتأذى»، يعني: من ثقلت بطنه امتلاءً يتأذى، أو خاف تخمة يعني: تغير المعدة برائحة كريهة، فإنه يحرم عليه؛ لأن هذا من أسباب المرض والأذى، فيجب على الإنسان أن يرفعه عن نفسه.

وفي هذه الآية دليل على أن المستهزئ بالله وآياته ورسوله كافر، حتى وإن لم يقله على وجه الجد، بل إنَّ كُفر المستهزِئ أشدُّ من كفر القائل على الجد؛ لأن المستهزئ جمع بين الكفر والاستهزاء.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٦٧٣٥)، والترمذي: كتب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم (٢٣٨٠)، وابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، رقم (٣٣٤٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ، رقم (٦٥٤٢).

(٣) جزء من حديث: «بحسب ابن آدم لقيمات..» وقد تقدم تخريجه قريبًا.

فإن قال قائل: إذا استهزأ الإنسان بشريعة من شرائع الله، أو بشعيرة من الشعائر، لا بالآيات كلها، بل بالآية المعينة أيكفر؟

فالجواب: إما أن المراد بالآيات هنا الجنس، فتشمل الواحدة، أو يقال: من آمن ببعض وكفر ببعض، فهو كافر بالجميع، ولهذا لا يمكن أن ينقسم الإسلام، فيؤمن ببعض ويكفر ببعض، بل من آمن ببعض وكفر ببعض فهو كافر بالجميع.

قال -تعالى-: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة:٨٥]، وقال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:١٥٠-١٥١]، فيقال: المستهزئ بآية واحدة، أو بشريعة واحدة، مستهزئٌ بالجميع، كما أن المكذِّبَ لرسولٍ واحدٍ مكذِّبٌ للجميع؛ لقول الله -تعالى-: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، ومن المعلوم أنه لم يُرْسَلْ أَحَدٌ قبل نوح، ومع ذلك جعل الله تكذيبهم إلى جميع الرسل؛ لأن من كذَّبَ رسولًا فقد كذَّبَ الجميعَ.

فإن قال قائل: الذي يستهزئ بمَنْ يُقَصِّر ثوبَه -مثلًا-، هل يعتبر كافرًا؟

الجواب: في ذلك تفصيل:

إذا كان قصدُه بالاستهزاء به أنه استهزأ به لكونه فعَلَ ذلك، فهذا استهزاء بما فعَلَ من الشريعة فيَكْفُر.

وأما إذا استهزأ به لشخصه، فإنه لا يكفر لكنه على خطر أن يُلْقِيَ الشيطانُ في قلبه كراهة هذا الشخص، لكونه تلبس بهذه الشريعة، ويتبين الفرق: بأنه لو أحدٌ ممن له الاحترام في قلبه قصَّر ثوبَه أو أعفى لحيته لم يستهزئ به.

فالمهم أن هناك فرقًا بين الاستهزاء بالشرع، والاستهزاء بمن تلبَّس بالشرع، الأول: لا تفصيلَ فيه أنه كُفْرٌ، والثاني: فيه التفصيل.

مسألة: من استهزأ بالله ورسوله وآياته، هل تقبل توبته؟

الجواب: نعم، والدليل قوله -تعالى-: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ [التوبة:٦٦]، والطائفة التي يعفو عنها هي الطائفة التي تابت، وليس هذا من باب الدخول في المشيئة، يعني: لو قال قائل: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ يعني: أن الأمر تحت المشيئة، نقول: بل ذلك بالمنة على الطائفة المعفو عنها بأن تتوب، مثل قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة:١١٨]، أي: يسر لهم التوبة، فهذه مثلها، ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ﴾، أي: نُيَسِّرَ لهم أسباب العفو، ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾، والدليل على أنه ليس المراد أن الأمر تحت المشيئة قوله: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٦]، والكفر لا يُغْفَر إلا بتوبة.

مسألة: من استهزأ بالرسول -عليه الصلاة والسلام- بعد وفاته، هل تُقبل توبته أم لا؟

الجواب: من سبَّ الرسولَ -عليه الصلاة والسلام- بعد وفاته، فإنه تُقبل توبتُه إذا تاب، لكنه يُقْتَل، أخذًا بالثأر للرسول ﷺ، لا لأنه لا تقبل

توبته، فإذا قتلناه غسَّلْنَاه، وصلَّيْنا عليه، وفعلنا به كما نفعل بالمسلمين.

***

«ج- أو فعل واقع يحتاج إلى معرفة حكمه، مثل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ...﴾ [المجادلة:١-٤]».

الشـرح

وسبب نزول هذه الآية: أن رجلًا ظَاهَرَ من امرأته، فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي، وكانوا في الجاهلية يَرَوْنَ الظهار طلاقًا بائنًا، فلم تصبر المرأة، امرأةٌ تزوَّجها، وكبرت، وجاءت بأولاد، ثم يأتي ويطلقها طلاقًا بائنًا بالظهار، فجاءت تشتكي إلى الرسول -عليه الصلاة والسلام-، تقول: إن زوجها ظاهر منها بعد أن أَتَتْ له بعيال، وكبرت،... إلخ، فأنزل الله هذه الآيةَ في بيان حكمها.

وفي الآيات من الفوائد العقدية والفقهية ما لا يتسع المقامُ لذكرها، لكن فيها إحاطةُ سَمْع الله تعالى بكل شيءٍ، تقول عائشة -رضي الله عنها-: «الحمد الله الذي وَسِعَ سمعُه الأصوات، لقد كنت في الحجرة، يعني: في طرف الحجرة، وإن بعض حديثها ليخفى عليَّ، والله -جلَّ وعلا- سَمِعَه من فوق سبع سموات»(١)، وقد قال الله -تعالى-: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٣٦٧٥)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزخرف:٨١]، بل إن الله -تعالى- يعلم ما توسوس به نفس الإنسان، فيعلم ما تتحدث به النفس، ويعلم السر، ويعلم الجهر، ويسمع السر، ويسمع الجهر.

* * *

«فوائد معرفة أسباب النزول:

معرفة أسباب النزول مهمة جدًا، لأنها تؤدي إلى فوائد كثيرة، منها:

١- بيانُ أن القرآن نَزَل من الله تعالى؛ وذلك لأن النبيَّ ﷺ يُسأل عن الشيء، فيتوقف عن الجواب أحيانًا، حتى ينزل عليه الوحي، أو يخفى الأمر الواقع، فينزل الوحي مبينًا له».

الشـــرح

من أهم ما يحصل من معرفة سبب النزول؛ أنها تُبَيِّنُ أن القرآنَ نزل من عند الله، ووجه ذلك: أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- يُسأل عن الشيء فيتوقف، ثم ينزل الوحي، ولو كان القرآن من عند غير الله لكان الرسول يجيب عليها، فلما كان يتوقف حتى تنزل الآيةُ مُبَيِّنَةً حكم هذا السبب، دلَّ ذلك على أن القرآن نزل من عند الله تعالى؛ ولهذا لما سألوه عن أصحاب الكهف قال أخبركم غدًا؛ لأنه ليس لديه علمٌ بهم، فجاء الغد ولم ينزل شيءٌ من القرآن إلى خمسةَ عشرَ يومًا، والنبيُّ ﷺ لم ينزل عليه شيءٌ لأنه صادقٌ، ولا يمكن أن يتقوَّل على الله، حتى نزلت قصتُهم فقصَّها على الناس.

* * *

مثال الأول: قوله -تعالى-: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾ [الإسراء:٨٥]. **ففي صحيح البخاري**[1] **عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: أن رجلا من اليهود قال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، وفي لفظ: فأمسك النبي ﷺ، فلم يرد عليهم شيئًا، فعلمتُ أنه يُوحَى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال:** ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء:٨٥]».

الشــرح

اليهود سألوا النبي ﷺ عن الرُّوح، وكذلك ورد أن قريشًا سألوه عن الرُّوح، والمراد بالرُّوح هنا: النفس التي في الإنسان؛ لأنها إن كانت في البدن صار حيًا متكلمًا، سميعًا، بصيرًا، ماشيًا، قاعدًا، وإن خرجت من البدن صار جثةً هامدةً، وحقيقة أنها تبهر العقول، فقال الله -عز وجل-: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى ﴾، يعني: مِنْ أَمْرِ الله التي لا يمكن أن نَطَّلع عليها إلا عن طريق الوحي، ثم قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾، وهذا كالتبكيت لهم، كأنه قال: ما بقي عليكم من العلم إلا أن تعرفوا الرُّوح؟! وصدق الله -عز وجل-؛ فعلمُنا قليل محدود، لا بالشرع، ولا بالواقع، ولا بما في السموات، ولا بما في الأرض.

وقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾، وبهذه الآية يمكن أن نجيب

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾، رقم (١٢٥)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح، وقوله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾، رقم (٢٧٩٤).

هؤلاء الذين يسألون عن كيفية صفات الله، أو عن كيفية ما يقع من أمور الغيب.

* * *

«ومثال الثاني: قوله -تعالى-: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، وفي صحيح البخاري[1] أن زيدَ بن أرقم -رضي الله عنه- سَمِع عبد الله بن أُبيٍّ -رأسَ المنافقين- يقول ذلك، يريد أنه الأعزُّ، ورسولُ الله ﷺ وأصحابُه الأذَلُّ، فأخبر زيدٌ عمَّه بذلك، فأخبر به النبيَّ ﷺ، فدعا النبيُّ ﷺ زيدًا فأخبره بما سمع، ثم أرسل إلى عبد الله بن أُبيٍّ وأصحابِه، فحلفوا ما قالوا، فصدَّقهم رسولُ الله ﷺ، فأنزل اللهُ تصديقَ زيدٍ في هذه الآية؛ فاستبان الأمرُ لرسول الله ﷺ».

الشـرح

هذه الآية في سورة (المنافقون)، يقولون: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، وهنا القائل: عبد الله بن أبيٍّ، لكنه زعيمهم فَنُسِبَ القولُ إليهم جميعًا، فقوله: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ يريدون بالأعزِّ أنفسَهم، وبالأذلِّ رسولَ الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- وأصحابه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، سورة المنافقون، باب قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، رقم (٤٩٠٠)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفات المنافقين وأحكامهم، رقم (٢٧٧٢).

المنافقون أغنياء، المنافقون أعزاء بأنفسهم، وهم أذلةٌ، فإذا قالوا: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧]، يعني وإذا انفضوا فأنفقوا عليهم، ﴿حَتَّىٰ﴾ هنا للتعليل وليست للغاية، بخلاف قوله -تعالى-: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه:٩١]، فهنا ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية، فانظر الفرق.

قالوا: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ حتى يتركوه، فأجابهم الله -عز وجل-: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٧]، أي: أن الرزق ليس بأيديهم بل بيد الله -عز وجل-، وما رَزَقهم اللهُ من مال إلا فتنةً لهم.

فأخبر زيدٌ عمَّه بذلك، فأخبر به النبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، فدعا النبيُّ ﷺ زيدًا، فأخبره بما سمع... إلى آخر ما حصل.

وهذا الحديث ينبغي أن يُتَّخَذ أصلًا للتثبُّتِ فيما يُنقل، وإلا فمِنَ المعلوم أن عمَّ زيدِ بْنِ أرقمَ من الصحابة، وهم عدول، لكن أراد النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- أن يتثبَّت من الأمر، حتى يأتي الأمرَ على بصيرة، وهكذا ينبغي للإنسان فيما ينقل إليه أن يتثبَّت منه، ثم أرسل النبي ﷺ إلى عبد الله بن أُبَيٍّ وأصحابِه، فحلفوا ما قالوا، وهكذا شأن المنافقين يحلفون على الكذب وهم يعلمون؛ لأن شعارهم الكذب والمخادعة والنفاق، فأنزل الله تصديق زيد في هذه الآية، فاستبان الأمرُ لرسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

وتأمَّلِ الآيةَ، قال الله -تعالى- في الرد عليهم: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨] ولم يقل: (رسولُ الله هو الأعز)، بل قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ وتقديم الخبرِ يَدُلُّ على الحصر، ولو قال: (والله هو الأعز)، لأوهم ذلك أن يكون للمنافقين عزةٌ، وليس الأمر كذلك.

والمنافقون أنزل الله فيهم سورةً كاملةً، وهي سورة (المنافقون)، وأنزل فيهم آيات عدة في سورة براءة، ولهذا كانت براءة من أشد السور على المنافقين؛ لأنها فضحتهم، كما أنزل الله تعالى في واحد من الكافرين سورة كاملة وهو أبو لهب؛ لأنه عَمُّ الرسول ﷺ، فكان يجب عليه أن يكون أول الناس إيمانًا به، ودفاعًا عنه، لا أن يكون أشدَّ الناس عداوةً له، وكفرًا به، والعياذ بالله.

* * *

«٢- بيان عناية الله تعالى برسوله ﷺ في الدفاع عنه.

مثال ذلك: قوله -تعالى-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢]».

الشــرح

أي أنهم قالوا: لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدةً، كما نزلت في الكتب السابقة، التوراة نزلت جملة واحدة، وكذلك الإنجيل، ويريدون بهذا التشكيك في كون الوحي من عند الله -عز وجل-، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

ولهذا ينبغي للإنسانِ أن يقِفَ على قول: ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾؛ لأن ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ جملة مستأنفة، فهي تعليلٌ لجملةٍ محذوفةٍ، والتقديرُ: (أنزلناه كذلك)، ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾؛ لأنه لو نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة لم يحصل التثبيت، كما يحصل فيما إذا كان يأتيه إرسالًا، وهذا أمر مشاهد، لو أن إنسانًا وعظك بموعظة بليغة عظيمة جدًّا، وتأثرت منها، ولكن لم يعظك بعد ذلك، لم يكن كما لو وعظك موعظةً خفيفة، ثم أعادها عليك مرة ثانية، وثالثة، فإن هذا التكرار يكون كسقي الشجرة بالماء يكرر عليها، ولهذا بين الله أن من الحكمة أن يُثَبِّت به قلب النبي صلى الله عليه وسلم.

وقوله: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾، وكذلك قوله -تعالى-: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:٤] يعني: اقرأه على مهل، وأما زعمُ أهل التجويد أن المراد به جَوِّده، أي: اقرأه بصيغة التجويد، فليس كذلك، بل المراد بالترتيل أن تقرأه على مهل.

مسألة: هل تجويد القرآن واجب؟

الجواب: التجويد لا يجب، فإنه يجوز للإنسان أن يقرأ القرآن غير مجودٍ ما دام أنه ينطق بحروفه وحركاته، وأما تحسين الصوت فمشروع، فإن الرسول ﷺ أثنى على أبي موسى الأشعريِّ، حيث قال: «**لَقَدْ أُوتِيْتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»(١)، فقال: لو علمتُ يا رسولَ الله أنك تستمع إليَّ لحبَّرتُه لك تحبيرًا(٢)، وأما أن يَجْعَلَ بوقًا في فمه وهو يقرأ، فهذا خلاف السنة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، رقم (٥٠٤٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، رقم (٧٩٣).

(٢) زيادة عند عبد الرزاق في المصنف (٢/ ٤٨٥، رقم ٤١٧٨)، وأخرجها النسائي في الكبرى (٣/ ١٢، رقم ٤٤٨٤).

«وكذلك آيات الإفك؛ فإنها دِفاعٌ عن فِرَاش النبيِّ ﷺ، وتطهيرٌ له عمّا دنَّسَه به الأفَّاكُون».

الشــرح

آياتُ الإفك[١] لا شك أن لها سببًا في نزولها، وذلك فيما جرى على أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، حين تخلَّفت عن الجيش في إحدى الغزوات، ووجدها صفوانُ بْنُ معطِّلٍ -رضي الله عنه- نائمةً، ثم أناخ بعيرَه، ولم يتكلم لها بأي كلمةٍ؛ احترامًا لفراش النبي ﷺ، لكنه وضع قدمه على ذراع البعير، ثم ركبت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، ثم ذهب بها يقودها ولم يجعلها بين يديه، بل كانت من خلفه، فلما وصل إلى القوم فرح المنافقون بهذا، ورأوا ذلك فرصة في الطعن برسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- بتدنيس فراشه، وحاشاه من ذلك، ثم حصل في ذلك ما حصل، والقصة معروفة في كتب التاريخ والسير، وفي كتب الصحاح والمسانيد، والحكمة من ذلك هو الدفاع عن فراش النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- ونزلت تطهيرًا له عما دَنَّسه به الأفَّاكون.

ولا يخفى علينا جميعًا لو أن رجلًا قيل له في امرأته أنها ذات بغاء فإن موقفه سيكون حرجًا صعبًا، ولهذا فتر الوحي، فأصاب النبيَّ ﷺ من الهم والغم ما لا يشعر به أحد، زوجته وبنت صِدِّيقه وأحبُّ النساء إليه تُرمى بهذا الفعل الشنيع والعياذ بالله، فكان في قلق وكان يدخل عليها وهي مريضة،

(١) هي أول سورة النور، وقصة الإفك أخرجها البخاري: كتاب المغازي، باب حديث الإفك، رقم (٤١٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم (٢٧٧٠).

لأنها أول ما رجعت إلى المدينة أصابتها الحمى، ثم لما سمعت بالقضية ازدادت وصارت تبكي ليلًا ونهارًا، لا يرقأ لها دمعٌ، وكان النبي -عليه الصلاة والسلام- عادته إذا دخل عليها وهي مريضة أن يسأل عنها ويحتفي بها، وفي تلك الأيام كان إذا دخل قال: «كَيْفَ تِيكُمْ؟» باسم الإشارة للبعيد، ولا يتحدث إليها ولا يستأنس بها؛ لأن الأمر عظيم -نسأل الله أن يحمينا وإياكم- فالمسألة مصيبة لا تتصور.

ولهذا قال الله -عز وجل-: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ [النور:١٥-١٦]، ﴿مَّا يَكُونُ﴾ يعني أنه ممتنعٌ أشد الامتناع، ما يكون لنا أن نتكلم ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا لك أن تكون زوجة نبيك بهذا المثابة، ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

وقال -عز وجل-: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:١٢]، ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ يعني برسول الله ﷺ وأم المؤمنين أو بأنفسهم، أي لظنوا بالرسول وبأم المؤمنين كما يظنون بأنفسهم وهم يظنون بأنفسهم البراءة من هذا، فالمسألة عظيمة.

فلمّا نزل الوحي -سبحان الله- نزل وهو في بيتِ عائشةَ عشرُ آيات محكمات عظيمات، يتقرب المسلمون بهنَّ إلى الله -عز وجل-، ولهم بكل حرفٍ منهنَّ حسنةٌ، والحسنة بعشر أمثالها، انظر إلى الفَرَج من الله -عز وجل- نزلت هذه الآيات العظيمة؛ ولهذا أجمع المسلمون على أن مَنْ قذف عائشةَ -رضي الله عنها- بما برَّأها اللهُ منه فإنه كافرٌ مرتَدٌّ، يُقتل على كل حال،

بل قالوا: لو قذفها بغير ذلك أو قذف واحدةً من أمهات المؤمنين فهو كافر مرتد لا تُقْبَل منه توبةٌ، يُقتل بكلِّ حال، ولا كرامة له، وهو أذلُّ عندنا من الجِعْلَان[1]، فآياتُ الإفك نزلت بسبب خوْضِ هؤلاء المنافقين ومن اغترَّ بهم في هذا الأمر العظيم.

إذن: فيه بيانُ عناية الله -عز وجل- برسولِه ﷺ، ونِعْمَ المُرْسِل ونِعْم الرسول، وعناية الله تعالى بفراش الرسول -عليه الصلاة والسلام- أن يُدَنَّس، والله لو دُنِّس فراشُ واحدٍ من الناس لكان عظيمًا، فكيف بفراش النبي ﷺ، ولهذا أنزل الله الآياتِ في الدفاع عن فِرَاش الرسول ﷺ، وتطهيرًا له -عليه الصلاة والسلام- عما دنَّسه به هؤلاء الأفَّاكون، وهو تطهيرٌ لأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-.

تطهيرٌ للرسول -عليه الصلاة والسلام- أن يكون فِراشه بغيًّا؛ فحصل بذلك طمأنينة الرسول ﷺ، وبيانُ عنايةِ الله به، وخِذْلانِ هؤلاء الخبثاء الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ هو عبد الله بْنُ أُبَيٍّ، ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١١]، في الآخرة، أما في الدنيا فلم يحدَّه الرسولُ -عليه الصلاة والسلام- أي: لم يقم عليه الحدَّ، مع أنه أقام الحدَّ على حسان ابن ثابتٍ، ومسطحِ بن أثاثةَ، وحمنةَ بنتِ جحش[2]، لكنَّه لم يُقِمِ الحدَّ على عبد الله

---

(١) الجِعْلانُ: جمع جُعَل، وهو دابة سوداء من دواب الأرض، انظر لسان العرب، مادة (جعل).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٢٣٥٤٦)، وأبو داود: كتاب الحدود، باب في حد القذف، رقم (٤٤٧٤)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة النور، رقم (٣١٨١)، وقال: «حسن غريب،

ابن أُبَيٍّ، مع أنه هو الذي تولى كِبَره لأسباب:

أولًا: اكتفاءً بقوله -تعالى-: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١١]، ولم يقل: اجلدوه.

ثانيًا: الحد تطهيرٌ، وعبدُ الله بْنُ أُبَيٍّ خبيثٌ، ليس أهلًا للتطهير.

ثالثًا: أن النبي ﷺ يحب التأليفَ، فلربما يحصل من قومه ما لا تُحْمَدُ عُقْبَاه لو أُقِيم عليه الحدَّ، ولهذا تركه الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

رابعًا: أن الخبيثَ عبد الله بن أُبَيٍّ، ماكرٌ، مخادع، لم يصرِّحْ بهذا الأمر، لكنه يجلس في المجالس يقول: ما سمعتم شيئًا؟ فهو يشير بالحديث، ولا يصرح به، ومَنْ كان كذلك فإنه لا يُحَدُّ.

فالمهم أن النبي ﷺ ترك إقامة الحدِّ على هذا الخبيث لأسباب، والمقصودُ من هذه القصةِ هو بيانُ عناية الله -تبارك وتعالى- برسوله ﷺ والدفاع عنه، وبيان عناية الله -سبحانه وتعالى- بعباده في تفريج كُرُباتِهم وإزالة غمومهم، ولله الحمد والشكر.

ولكن هذا لم ينفع المنافقين، ولم ينفع الرافضةَ الذين ما زالوا إلى الآن يطعنون في عائشةَ أمِّ المؤمنين -رضي الله عنها-، وإن كانوا لا يتفوَّهون بالإفك، ولكنهم يطعنون بها في تصرفاتها التي يزعمون أنها طعنٌ فيها، مع أنه إنما صدر عن اجتهادٍ منها، والمجتهدُ إن أصابَ فله أجران، وإن أخطأ فله أجرٌ.

= لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق»، وأخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٣٢٥، رقم ٧٣٥١)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب حد القذف، رقم (٢٥٦٧).

«٣- بيان عناية الله -تعالى- بعباده في تفريج كرباتهم، وإزالة غمومهم.

مثال ذلك: آية التيمم، ففي صحيح البخاري[١] أنه ضاعَ عِقْدٌ لعائشةَ -رضي الله عنها-، وهي مع النبيِّ ﷺ في بعض أسفاره، فأقام النبيُّ ﷺ لطلبِهِ، وأقام الناسُ على غير ماء، فشَكَوْا ذلك إلى أبي بكر، فذكر الحديثَ وفيه: فأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ التيمُّمِ فتيمموا، فقال أُسَيْدُ بْنُ حضير: ما هي بأَوَّل بَرَكَتِكِمْ يا آل أبي بكر. والحديثُ في البخاريِّ مطوَّلًا.

الشـــرح

في هذا أيضًا بيانُ عناية الله -تعالى- بالعباد، وتفريج كُرُباتِهم، وإزالة غمومهم؛ لأن سبب نزول آية التيمم، أنه ضاع عِقْدٌ لعائشة -رضي الله عنها-، والعِقْدُ هو ما تلبسه المرأةُ في عنقها، كما قال الشاعر[٢]:

.... وَفِي عُنُقِ الْـحَسْنَاءِ يُسْتَحْسَنُ الْعِقْـدُ

جرى ذلك والناسُ على غير ماءٍ، فأغمَّهم ذلك الأمرُ، ولا يمكن أن يعصوا الرسولَ ﷺ فيدفعوا عن هذا المكان، والنبي ﷺ حَبَسهم على هذا العِقْدِ لأمور:

أولًا: لأنه مال، والمال قليل.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ...﴾، رقم (٣٣٤)، ومسلم: كتاب الحيض، باب التيمم، رقم (٣٦٧).

(٢) البيت للمتنبي، وانظر شرح ديوانه (١/ ١٤٢)، وتمامه:

وأَصْبَحَ شِعري منهُما في مكانِهِ وفي عُنُقِ الحَسْناءِ يُستَحسنُ العِقدُ

ثانيًا: أن عائشة -رضي الله عنها- تتحلَّى به للرسول -عليه الصلاة والسلام- أشرفِ الخلق، فهو عِقْدٌ ذو قيمةٍ.

ثالثًا: أن الرسول ﷺ مربٍّ لأمته بمقاله وفعاله؛ حتى يعلموا ما للزوجات من الحقوق، وأنه تـجب مراعاتهن، وحتى يعرِفوا قدرَ المال، فلا يضيعوه بلا فائدة.

فالمهم أنه حبسهم -عليه الصلاة والسلام- على هذا، وليس معهم ماءٌ، والصلاة قد حانت، فما هو الحل؟

أنزل الله آيةَ التيمُّم، فتيمَّمُوا بدلًا عن الماء، فكان فيها فرجٌ عظيمٌ، وهي مصداق قوله -تبارك وتعالى-: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦]، وما أكثر الشواهد لهذه القاعدة العامة، في إرضاع المرأة المطلقة ولدَها، يقول -عز وجل-: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ [الطلاق:٦]، فلن يضيع الولدُ، لا بد أن ييسر الله من يرضعه، ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾، والسين للقرب والتحقيق، فإذا تَعَاسر الأَبَوَان في إرضاع الزوجة للولد في مقدار النفقة، أو ما أشبه ذلك، فالحل قريبٌ جدًا: ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ من أين؟ من فاطر السموات والأرض، يُيَسِّر الله له ذلك؛ لأن وعد الله حقٌّ.

فقال أُسَيْدُ بْنُ حُضَيرٍ: «ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر»، والبركة هنا أن ضَياع عِقْدِها صار سببًا لتفريج كُرُبات الناس، ونزول آية التيمم، وصدق -رضي الله عنه-، فآل أبي بكر لهم بَرَكاتٌ، ليس على النبي ﷺ فقط،

بل وعلى الأمة أيضًا، ولو لم يكن مِن بركات آل أبي بكر على الأمة إلا خلافة أبي بكر لكفى بها بركةً، وحصل بها خيرٌ كثيرٌ، فقِتَالُ أهل الردَّةِ وعزة المسلمين وتولية الفاروق -رضي الله عنه-، هذه كلها من حسنات أبي بكر -رضي الله عنه- أنه حَسَم النزاع لولاية العهد لعمر -رضي الله عنه-، وأنه وضع الحقَّ في نصابه تمامًا، ولهذا تُعدُّ خلافةُ عمر -رضي الله عنه- من مناقب أبي بكر -رضي الله عنه-، فبركتُهم كثيرة.

وفي هذا التعبير دليل على أنه يجوز أن تقول لشخص: (هذه من بركتك) وما أشبه ذلك، إذا كان سببًا للخير، فإنَّ من الناس من يكون مباركًا، ويحصل على يديه من الخير والبركات ما لا يحصل لغيره، ومن الناس ما لا يكون كذلك، فإذا قلت لإنسان مثلًا: (هذه من بركاتك، أنك حضرت، وأحضرت فلانًا)، أو: (هذه من بركاتك، أنك أصلحت بين القوم) أو ما أشبه هذا؛ فإن ذلك لا بأس به.

أما إذا كان من بركات الميت، ولم يكن هذا الشيءُ وَقَع في زمنه، فهذا لا يجوز، لكن لو وقع في زمنه فلا بأس، ولهذا نحنُ الآن نقول: إن نزول آية التيمم من بركات عائشة، وهي من آل أبي بكر -رضي الله عنهم-.

والمقصود أنك إذا قلت: (هذا من بركة فلان) وهو مَيِّتٌ، أنه إن كان حصل الشيءُ بعد موته فهو حرام ولا يجوز، بل قد يصل إلى حدِّ الشرك الأكبر، وإن كان شيءٌ حصل في حياته وكان سببًا له فهذا لا بأس به، كما لو أن شخصًا أشار على إنسان تاجر أن يبنيَ مكتبةً لطلبة العلم، واستمرَّت هذه المكتبة يطالع فيها طلاب العلم وينتفعون بها، ومات الرجل، فنقول: هذه من

بركة فلان، ولا بأس بذلك؛ لأنه حقًا هو الذي كان سببًا لوجودها.

فإن قال قائل: هل يجوز مصاحبة أهل الخير لالتماس البركة مثلًا؟

الجواب: إن كان هذا الرجلُ إذا صَحِبْتَه وجدتَ عنده خيرًا، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويعلمك ما لم تكن تعلم، فهذه بركة، أما مجرد صحبته يكون له بركة، فهذا غير صحيح.

***

«٤- فهم الآية على الوجه الصحيح.

مثال ذلك: قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨] أي يسعى بينهما، فإن ظاهر قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ أن غاية أمر السعي بينهما أن يكون من قسم المباح، وفي صحيح البخاري[1] عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك -رضي الله عنه- عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، وبهذا عُرِف أن نفيَ الجَناح ليس المراد به بيانَ أصل حكم السعي، وإنما المراد نفي تحرجهم بإمساكهم عنه، حيث كانوا يرون أنهما من أمر الجاهلية، أما أصل حكم السعي فقد تبين بقوله: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب ما جاء في السعي بين الصفا والمروة؛ ومسلم: كتاب الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به، رقم (١٢٧٨).

الشـرح

هذه الآية إذا قرأها الإنسانُ أولَ ما يقرأها: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨]، فإنه يظن أن السعي ليس بأمرٍ مشروعٍ، وغاية ما فيه أنه مباح، لكن إذا عرفنا سبب النزول، عرفنا أن المراد بنفي الجناح نفي التحرج الذي كان يصيبهم عند السعي بينهما، إذ كان السعي من أمر الجاهلية فتحرَّج عنه المسلمون، وقالوا: عبادة جاهلية فلا نطوف بها بين الصفا والمروة.

وفي صحيح البخاري عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك -رضي الله عنه- عن الصفا والمروة فقال: «كنا نُرى أَنَّهما من أمر الجاهلية»، «نُرى» يعني: نظن -أو «نَرى» بمعنى: نعتقد ونعلم- أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما فصاروا يطوفون بالبيت ولا يسعون، فأنزل الله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، فجعلهما من الشعائر، ويكون: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ نفيًا لما يُتوَهَّم من الإثم.

فتبين أن المراد بنفي الجناح ليس بيان حكم أصل السعي، وإنما المراد به نفي التحرج الذي وقع في نفوسهم، أما حكم السعي فإنه يفهم من قوله: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ فإذا كان من شعائر الله، فإن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب، فيكون أمرًا مطلوبًا.

فهذه أربعة فوائد لمعرفة أسباب النزول.

* * *

«عموم اللفظ وخصوص السبب:

إذا نزلت الآيةُ لسببٍ خاصٍّ، ولفظها عامٌّ كان حكمها شاملًا لسببها، ولكلِّ ما يتناوله لفظها، لأن القرآنَ نزل تشريعًا عامًّا لجميع الأمة، فكانت العبرةُ بعموم لفظه، لا بخصوص سببه».

الشـرح

أي: إذا ورد نصٌّ من الكتاب أو السُّنَّة على وجه العموم، وكان السبب خاصًّا، فهل يختص الحكم بهذا السبب، أو يعمُّه وغيرَه؟

الجواب: الثاني، أي: أن العبرةَ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذه قاعدةٌ معروفةٌ، ولكن ليعلم أن خصوصَ السبب إذا كان وصفًا أو معنىً من أجله ورد العامُّ، فإنه يختصُّ بهذا المعنى أو الوصف.

مثال ذلك: قال النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «**لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ**»(١)، فلو أخذنا هذا اللفظَ على عُمومِهِ، لكان الصومُ في السفرِ مخالفًا للبرِّ سواء شقَّ، أم لم يَشُقَّ، لكن سبب هذا الحديث أن النبيَّ ﷺ رأى زحامًا، ورجلًا قد ظُلِّل عليه، والناسُ حوله ينظرون ماذا يحصل له، فقال «**مَا هَذَا؟**» قالوا: صائم، فقال: «**لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ**»، فهذا

(١) أخرجه أحمد برقم (١٤٠١٧)، وأبو داود: كتاب الصوم، باب اختيار الفطر، رقم (٢٤٠٧)، والترمذي: كتاب الصوم، باب ما جاء في كراهية الصوم في السفر، رقم (٧١٠)، والنسائي: كتاب الصيام، باب العلة التي من أجلها قيل ذلك، رقم (٢٢٥٧)، وأخرجه بتمامه البخاري: كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ لمن ظلل، رقم (١٩٤٦)، بلفظ: «**ليس من البر الصوم في السفر**»، وبنحوه عند مسلم: كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر، رقم (١١١٥).

العموم يتنَزَّل على من كانت حالُه مثلَ حالِ هذا الرجل، بدليل أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- كان يصومُ في السفر.

وعليه فخصوص السبب إما أن يكون خصوصًا عينيًّا، أو خصوصًا وصفيًّا، فإن كان عينيًّا فإنه لا يُخَصَّص به العمومُ قطعًا، وإن كان وصفيًّا فإنه يُخَصَّص به العموم؛ لأن حقيقةَ الوصف أنه عامٌّ، فإذا قلنا: (ليس من البرِّ الصيامُ في السفر) فهذا عامٌّ، لكنه خاصٌّ بحالٍ معينة، وهي حالُ من يَشُقُّ عليه الصوم في السفر.

إذ قد يقول قائل: أنتم قعَّدتُم قاعدةً: (أنه ليسَ من البر الصيامُ في السفر)، كذلك قعَّدتم قاعدةً: (أن العبرة بعموم اللفظ)، وهذا لفظٌ عامٌّ، ليسَ من البر الصيامُ في السفر مُطلَقًا، فما الجواب؟

يقال: إن النبي ﷺ ذكره على حالٍ مخصوصةٍ، وهي حالُ من شَقَّ عليه الصومُ.

***

«مثال ذلك: آيات اللعان، وهي قوله -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور:٦- ٩]، ففي صحيح البخاري(١) من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن هلالَ بْنَ أميةَ قذف امرأته عند النبيِّ ﷺ بشريكِ بْنِ سَحْمَاءَ، فقال النبيُّ ﷺ: «الْبَيِّنَةَ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب إذا دُعِي أو قُذِف فله أن يلتمس البينة وينطلق لطلب البينة، رقم (٢٦٧١).

أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فقال هلالٌ: والذي بعثك بالحق إني لصادقٌ، فليُنْزِلنَّ اللهُ ما يُبَرِّئُ ظهري من الحدِّ، فنزل جبريل، وأنزل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [النور:٦] فقرأ حتى بلغ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور:٩] الحديث.

فهذه الآيات نزلت بسبب قذف هلال بن أمية لامرأته، لكن حكمها شامل له ولغيره، بدليل ما رواه البخاري من حديث سهل بن سعد -رضي الله عنه-، أن عويمر العجلاني جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، رجل وجد مع امرأته رجلًا أيقتله فتقتلونه، أم كيف يصنع؟ فقال النبي ﷺ: «قَدْ أَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ». فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمى الله في كتابه، فلاعنها. الحديث(١)، فجعل النبيُّ ﷺ حُكْمَ هذه الآيات شاملًا لهلالِ بْنِ أميةَ وغيرِه».

الشـــرح

اللِّعَانُ يكون بين الزوجين، وسببُه قذْفُ الزوج زوجتَه بالزِّنَا، وسُمِّيَ لِعَانًا لأن الزوجَ يقول فيه: «وأنَّ لعنة الله عليَّ»، ولم يُسَمَّ غضبًا لأن اللعان يُبتدأ به أولًا، ولأنه في حقِّ الرجلِ، والرجلُ أشرفُ من المرأة، يقول: ففي صحيح البخاريِّ مِن حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- أن هلالَ بْنَ أميةَ قذف امرأتَه عند النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- بشريكِ بْنِ سحماءَ، كلاهما صحابيٌّ، لكن الصحابةَ -رضي الله عنهم- ليسوا معصومين من كبائر الإثم والفواحش، فقد يُوجَد فيهم من يزني، ويقتلُ النفسَ، ويشرب الخمرَ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله -عز وجل-: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، رقم (٤٧٤٥)؛ ومسلم: كتاب اللعان، رقم (١٤٩٢).

لكنّ هذه الأشياء التي تقع منهم لا بد أن يكون لها ما يكفِّرها، وقد ذكر شيخُ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-في كتابه (العقيدة الواسطية) أسبابًا متعددةً لتكفير ما وقع مِنهم من أشياء، منها:

١- أن الله قال لأهل بدر: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»، وتعلمون ما جرى في قصة حاطبٍ وجاسوسِيَّتِه على النبي ﷺ عند أهل مكة، لما قال عمر -رضي الله عنه-: «دعني أضرب عنقه»؛ لأن الجاسوسَ الذي يجس على المسلمين للكفار يجب وجوبًا أن يقتل، حتى لو تاب؛ لأنه لو تاب فإن مضرته لا تنقطع، بل يُقتل حتى لا يعودَ غيرُه إلى ذلك.

لكن الرسول ﷺ منع عمرَ -رضي الله عنه- وقال له: «**وَمَا يَدْرِيكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»، فوقع هذا الذنب مغفورًا من قِبَلُ، وقوله -تعالى-:«**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»، أي: غفرت لكم ما تعملون بعدَ هذه المعركة التي أعزَّ الله بها المسلمين عزًّا عظيمًا.

وفي زمن عمر -رضي الله عنه- شهد قومٌ على أحد الصحابةِ بأنه زانٍ، فأتى بهم عمر -رضي الله عنه- وقال لهم: أتشهدون؟ قالوا: نعم نشهد. فقال لهم عمر: أتشهدون أنكم رأيتُم ذَكَره في فرج المرأة؟ فقال ثلاثة منهم: نعم نشهد، فثبتوا على هذه الشهادة، أما الرابع فلما جاء يشهد قال له المشهود عليه: اتَّقِ اللهَ، اتَّقِ اللهَ، والله لو كنتَ بين أفخاذِنا ما شهدتَ بهذه الشَّهادَةِ. فقال: أنا رأيت إستًا تنبو وذَكَرًا ينزو، يعني رجلًا ينزو، لكن لا أستطيع أن أشهد أن ذكَره كان في فرجها، فكَبَّر عمرُ تكبيرًا عظيمًا أن نجَّى الله أحدَ

الصحابةِ من هذه الفِرية، ثم جلد الثلاثةَ ثمانينَ جلدةً، وبرَّأ الرابعَ، وبرأ المكذوبَ عليه[١].

ونحن نقول: «المكذوب عليه» بملأ أفواهنا؛ لقوله -تعالى-: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور:١٣].

وهلالُ بْنُ أميةَ -رضي الله عنه- وهو أحدُ الثلاثةِ الذين نزلت توبتُهم من عند الله -عز وجل- قال له النبي ﷺ: «**الْبَيِّنَةَ، أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ**»، فقال هلالُ -رضي الله عنه-: «والذي بعثَك بالحق إني لصادقٌ، فلَيُنْزِلَنَّ الله ما يُبَرِّئُ ظهري من الحدِّ»، وهذا ثقةٌ بالله، وحسنُ ظنٍّ به -عز وجل-، أكَّد أن الله سيُنزل ذلك، بالقسم واللام ونون التوكيد: «فليُنْزِلنَّ الله»؛ لأنّ هذه الجملة مؤكَّدَةٌ بالمؤكدات الثلاثة: القسم، واللام، ونون التوكيد، فنَزَل جبريلُ -عليه السلام-، وأنزل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ...﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، قال: فهذه الآياتُ نزلت بسبب قذفِ هلالِ بْنِ أميةَ لامرأتِه؛ لكنَّ حُكْمَها شَامِلٌ له ولغيرِه.

قوله: «**البينةَ**» بالفتح، ويجوز بالضم «**البينةُ**»، فأما على النصب فالمعنى «أقم البينة»، وأما على الرفع فالتقدير: «عليك البينةُ».

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ يعني: بالزنا، يقول الرجل: إنَّ امرأته زنت فيقال: أقمِ البينةَ، فإن أقام عُلم الحكم، بأنه يقام عليها الحدُّ، وإذا لم يقم البينة، سألناها، فإن أقرَّت ثبت الحكمُ بإقرارها وحُدَّتْ، وإن أنكرت جرى

---

(١) الحاوي الكبير للماوردي (١٣/ ٤٨٣)، والمجموع للنووي (٢٠/ ٢٥٢).

اللعان، ومن هذه النقطة يختلف قذفُ الزوجةِ وقذفُ غيرها؛ لأن قذفَ غيرِها إذا وصل إلى هذه النقطة جُلِد القاذفُ ثمانين جلدةً، ولو كان من أعدل الناس، ولو كان المتهم أهلًا للزنا.

وفي هذه النقطة يختلف الزوجُ وغيره، نقول للزوج: إن لم تقم البينةَ، ولم تُقِرُّ المرأةُ فعليك اللعان، وكيفية اللعان: أن يأتي بهما القاضي ويقول للزوج: لاعِنْ، فقل أربع مرات: (أشهد بالله أن زوجتي هذه قد زنت)، ويقول في الخامسة: (وأن لعنة الله عليَّ إن كنت من الكاذبين)، ثم يقال لها: لاعِنِي أنت، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، وفي الخامسة: وأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، هذا هو اللعان، وإذا تمَّ وجب التفريقُ بين الرجل والمرأة، وحُرِّمَتْ عليه تحريمًا مؤبَّدًا.

وفي قوله: «وجد مع امرأته رجلًا أيقتله فتقتلونه، أم كيف يصنع؟» نقول: لو قَتل الزوجُ هذا الرجل وهو على امرأته، فإنه لا يُقْتَل، لكن قوله: **«فتقتلونه»** يعني: إذا لم يقم بينة، أما إذا أقام بينة فإنه لا يقتل، يعني: إنسان دخلَ البيتَ -والعياذ بالله- وجد رجلًا على زوجته يفعل بها، فأخذ السيف فَقَدَّ الرجل نصفين، فقتلَ الرجلَ، هل يُقتل هذا الزوج أو لا؟ نقول: لا يُقتل إذا ثبتَ ذلك ببينةٍ، فإن لم يثبت فإنه يقتل.

وعلى هذا تَتنزَّل الأحاديثُ، ولا يكفي اللعان؛ لأنها قد تكون مكرهة، والبينة أن يأتي بشهود يشهدون بأنهم رأوا هذا الرجل المقتول على هذه المرأة التي هي زوج القاتل، فإن سعد بن عبادة لما نزل قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور:٤]، قال

يا رسول الله: كيف يكون هذا؟! أجد لكع بن لكع على زوجتي، وأذهب لأَجِيءَ بأربعة شهداء؟! فقال النبيُّ ﷺ: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، وَاللهِ إِنِّي لَأَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي**»(١)، فأقرَّه النبيُّ -عليه الصلاة والسلام-، وبيَّن أن هذا غَيْرَةٌ، فإذا كانت غيرةُ سعدٍ تقتضي أن يضربه بالسيف غيرَ مُصْفِحٍ، يعني: بحدِّه وليس بصفحته، فكذلك أنا.

وقد وقعت هذه المسألة في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، فادَّعى أولياءُ المقتول على القاتل، فدافع القاتلُ عن نفسِه، وقال: يا أميرَ المؤمنين إن كان أحدٌ بين فخِذَي امرأتي فقتلتُه فثبت ذلك، فأخذ عمرُ سيفَه، أي: سيفَ الرجل وهَزَّه، وقال: إن عادوا فَعُدْ(٢).

ولكن إذا لم تكن بينةٌ، فهل يُقتل هذا الزوجُ الذي ادَّعى أن الرجل كان يزني بامرأته، وقتله حين زناه بها؟

الجواب: نعم يُقتل، وقال شيخ الإسلام -رحمه الله-: «لا يقتل»(٣)؛ لأن الغالب في مثل هذا الحال أنه لا يمكن إقامة البينة عليها، إذ إن الزاني -والعياذ بالله- لن يزني بامرأة الرجل علنًا، وإنما يزني بها في خفاء، فتتعذر إقامة البينة، قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: «ويجب النظر إلى حال الرجل، إن كان من أهل الخير والصلاح، وصاحبه المقتول من أهل الشر والفساد، فيقبل قوله، وإلا فلا يقبل»، وهذا القول هو الراجح؛ لأن الحكم بالقرائن

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب من رأى مع امرأته رجلا فقتله، رقم (٦٨٤٦)، ومسلم: كتاب اللعان، رقم (١٤٩٨).
(٢) حلية الأولياء (٤/ ٣٢١-٣٢٢).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٤/ ١٦٨).

قد ثبت في الشرائع السابقة، وفي شريعتنا أيضًا.

وفي قصة يوسف -عليه السلام- قال الشاهد الذي حكم: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ﴾ -يعني يوسف -عليه السلام- ﴿قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٢٦]، فحكم بالقرائن.

وسليمان بن داود -عليهما السلام- لما تنازعت امرأتان في طفل، وكانتا قد خرجتا إلى البر، فأكل الذئبُ ولدَ إحداهما، فتنازعتا عند داود -عليه الصلاة والسلام- وحكم به للكبرى، ثم حكم بينهما سليمان بحكم آخر، فدعا بالسكين، وقال: كل منكما تدعي الولد، فنحن نشقه إلى نصفين، وكل واحدة نعطيها النصف، أما الكبيرة فباركت هذا الحكم ووافقت عليه؛ لأنه إذا مات فولدُها قد مات من قبل، وأما الصغيرةُ فقالت: لا، يا نبي الله، الولدُ لها. فحكم سليمان -عليه السلام- به للصغرى(١).

***

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفرائض، باب إذا ادعت المرأة ابنًا، رقم (٦٧٦٩)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب بيان اختلاف المجتهدين، رقم (١٧٢٢).

٤- المكي والمدني

«نَزَل القرآنَ على النبيّ ﷺ مفرقًا في خلال ثلاث وعشرين سنة، قضى رسول الله ﷺ أكثرها بمكة، قال الله -تعالى-: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء:١٠٦]، ولذلك قسَّم العلماء -رحمهم الله تعالى- القرآن إلى قسمين: مكي ومدني:

فالمكي: ما نزل على النبي ﷺ قبل هجرته إلى المدينة.

والمدني: ما نزل على النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة.

وعلى هذا فقوله -تعالى-: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣] من القسم المدني، وإن كانت قد نزلت على النبيِّ ﷺ في حَجَّة الوداع بعرفة، ففي صحيح البخاري[١] عن عمر -رضي الله عنه- أنه قال: قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، نزلت وهو قائم بعرفة يوم جمعة».

الشـرح

نزل القرآن على النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- مفرَّقًا في خلال ثلاثٍ وعشرين سنةً؛ لأنه ابتدأ نزولُه وله أربعون سنةً، وتُوفِّي وله ثلاث وستون سنةً، فيكون زمنُ إنزال القرآن ثلاثًا وعشرين سنةً، قضى النبي -عليه الصلاة والسلام- أكثرها بمكة: ثلاث عشرة سنة، وعشر سنوات في المدينة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (٤٥)، ومسلم: كتاب التفسير، باب في تفسير آيات متفرقة، رقم (٣٠١٥).

قال الله -تعالى-: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ أي: فرقناه وجعلناه مفرَّقًا، ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾، يعني: على مَهَل، فيقرؤونه شيئًا فشيئًا، فيرسخ في قلوبهم، ويكون عملهم به أيضًا ليس جملةً واحدةً، بل على التدريج: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾، قال العلماء: يعني نزَّلناه شيئًا فشيئًا.

والقرآن الكريم ينقسم إلى: مكي ومدني، هذا هو الذي عليه الجمهور، ولم يعبؤوا بالمكان المعيَّن؛ لأن ذلك يشق، فإن هناك آياتٍ كثيرةً نزلت على النبي ﷺ في أسفاره، فلو قلنا: إن الآيةَ قد تكون بحَسَب المكان الذي نزلت فيه على الرسول -عليه الصلاة والسلام- من بَرٍّ، أو مدينةٍ؛ لشَقَّ ذلك، ولكن العلماء قسموه إلى قسمين: مكي ومدني، فما كان قبل الهجرة فهو مَكِّيٌّ، وما كان بعدها فهو مَدَنِيٌّ، وهذا التقسيم هو الصحيح، وهو الراجح، وبناءً على ذلك نقول: إن قوله -تعالى-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ من القسم المدنيِّ، مع أنه نزل بعرفةَ، وعرفةُ تابعةٌ لمكة، وهذا القول هو الراجح.

وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ «أل» هنا للعهدِ الحضوريِّ، ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يعني: جعلته كاملًا، ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ بإكمال الدين، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، يعني: ولا أرضى غيره، ويدل على هذا قوله -تعالى-: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥]، يقول هذا من القسم المدنيِّ، وإن كانت قد نزلت على النبي ﷺ في حَجّة الوداع بعرفةَ، ففي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: «قد عرفنا ذلك اليومَ، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، نزلت وهو قائم بعرفةَ، يوم الجمعة»، فصار فيها شرفُ الزمان من وجهين: أنه يوم عرفةَ، وأنه يوم جمعة، وشرف

المكانِ أيضًا؛ لأن عرفة هي المشعر الحلال، قال ذلك -رضي الله عنه- ردًّا على قولِ يهوديٍّ، قال له: «لقد نزلت عليكم آيةٌ، لو نزلت على يهود لاتخذوا ذلك اليوم عيدًا»، فبيَّن عمر -رضي الله عنه- أنها نزلت في يوم عيد: يوم الجمعة، ويوم عيد: يوم عرفة، يوم عيد للحجاج، فقد نزلت في يومي عيد.

***

«ويتميز القسم المكي عن المدني من حيث الأسلوب والموضوع:

أ- أما من حيث الأسلوب فهو:

١- الغالب في المكيِّ قوةُ الأسلوب، وشدة الخطاب؛ لأن غالب المخاطَبِين مُعْرِضون مستكبرون، ولا يليق بهم إلا ذلك، اقرأ سورتي المدثر، والقمر.

أما المدني: فالغالب في أسلوبه اللِّينُ، وسهولة الخطاب؛ لأن غالب المخاطَبين مُقْبِلون مُنْقادُون، اقرأ سورة المائدة.

٢- الغالب في المكِّيِّ قِصَرُ الآيات، وقوة المحاجَّة؛ لأن غالب المخاطَبين معاندون مشاقُّون، فخوطبوا بما تقتضيه حالُهم، اقرأ سورة الطور.

أما المدني: فالغالب فيه طول الآيات، وذِكْر الأحكام مرسلةً بدون محاجَّة؛ لأن حالهم تقتضي ذلك، اقرأ آية الدَّيْن في سورة البقرة».

الشـــرح

يتميز القسم المكي عن المدني من حيث الأسلوب والموضوع؛ لأن كل واحدٍ منهما له مميزات، حتى يكاد الإنسان الذي يقرأ القرآنَ ويكرره دائمًا يعرف أن هذه الآيةَ مكيَّةٌ أو مدنيَّةٌ، أو السورة مكية أو مدنية، وإن لم يرجع

إلى التاريخ؛ لأن مَن داوم على الشيء وكرَّره صار في نفسه انطباعٌ في معرفته بدون أن يبحث عن أصله وثبوته.

ولهذا نجد العلماء الحفَّاظ ربما يحكمون على الحديثِ بأنه موضوع، وإن لم يُرَاجِعوا سندَه، وذلك من أسلوبه وموضوعه، وما أشبه ذلك، لكن هذا يحتاج إلى أن يكون الإنسانُ دائمًا يكرر كلامَ النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

ونجد أيضًا أن بعض الناس يكون يكثر المطالعة في كتب بعض المؤلفين كشيخ الإسلام ابن تيميةَ، فإذا مرّ عليه كلام شيخ الإسلام ابن تيمية عرفه، وإذا نسب إليه كلام ولكنه ليس على أسلوبه عرف أنه ليس من كلامه.

لكن لا بد لهذا من الممارسة الكثيرة للقرآن الكريم حتى تعرف المكي والمدني.

والمكي والمدني يتميز بعضه عن بعض في هذين المعنيين:

الأول: الغالب في المكي قوة الأسلوب، وشدة التعبير، وقوة المحاجة؛ لأنه يخاطب قومًا مستكبرين يحتاجون إلى شدة في الخطاب، وغلظة في المقال، ومحاجة؛ لأن هذا هو اللائق بحالهم، ولذلك تجد البلاغة في الحقيقة: أن يأتي الكلام مطابقًا لمقتضى الحال، ومقتضى الحال بالنسبة للمكي، أن يكون قويًّا شديدًا فيه المحاجة، والمناظرة... إلى آخره.

وأما المدني: فالغالب في أسلوبه اللين، وسهولة الخطاب، لكن أحال المؤلف إلى سورتي المدثر والقمر، فسورة المدثر فيها شدة الأسلوب، كقوله -تعالى-: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٨-٢٥]، ما العقوبة؟ ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٢٦-٣٠]، هذا كلام عظيم جدًا قويٌّ في التهديد والإنذار، أما القمر فكذلك أيضًا إذا تأملتها وجدتها في غاية القوة في الأسلوب، وانظر إلى قصة نوح ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١١-١٢]، تأمل هذه الكلمات العظيمة لم يقل: «فجرنا عيونًا في الأرض»، بل الأرض كلها كانت عيونًا تنبع، حتى التنور الذي هو محل الإيقاد، وهو أبعد ما يكون من الماء، صار هذا التنور يفور ماءً.

وفي عاد ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر:١٩-٢٠]، إلى قول الله -تبارك وتعالى- في آخر الأمم في قوم فرعون: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر:٤٣-٤٤]، والجواب على قولهم هذا ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر:٤٥-٤٦]، ثم ذكر أن المجرمين يسحبون في النار على وجوههم، ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾؛ لأنه يخاطب قومًا عتاةً مستكبرين يحتاجون إلى هذا الأسلوب الشديد العظيم، الذي يناسب حال المشركين؛ لأنهم أشداء على المؤمنين مستكبرون عن طاعة رب العالمين، ولكل مقامٍ مقالٌ، ولهذا أنت في مخاطبتك للناس العادية، تخاطب

هذا باللين، وهذا حسب ما يقتضيه المقام والحال.

الغالب في المكي قصر الآيات، وقوة المحاجة؛ لأن غالب المخاطبين معاندون مشاقون، فخوطبوا بما تقتضيه حالهم.

اقرأ سورة الواقعة، قوله -تعالى-: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة:٥٨-٦٢]، ولهذا لما سمع جبير بن مطعم -رضي الله عنه- هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]، قال: كاد قلبي يطير لأنَّ المُحَاجَّةَ قويةٌ، قال -تعالى-: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ الأموال والنفقات ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾، عندهم قوة السلطان، ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ فإن كان ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ -والرسول -عليه الصلاة والسلام- لا يسألهم أجرًا بل يعطيهم أجرًا أليس يعطي المؤلفة قلوبهم الأموال الكثيرة- ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ جملة اسمية مؤكدة بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾.

أما المدني فبالعكس؛ لأن الغالب فيه طول الآيات، وذكر الأحكام مرسلة بدون محاجةٍ، والأسلوب فيه سهل لين؛ لأنه يخاطب المهاجرين، والمهاجرون ليس عندهم استكبار، بل عندهم القبول والإذعان فصار المناسب لمخاطبتهم اللين وهم قوم مؤمنون مقبلون على القرآن الكريم، فآية

الدَّيْن في سورة البقرة طويلة وسهلة، وليس فيها إلا أحكام وتوجيه؛ لأن القوم منقادون مستسلمون، لا يُناظِرون ولا يُجادلون.

فسبحان الله العظيم أن جعل القرآن مناسبًا تمامًا لمقتضى الحالِ، وهذا غايةُ ما يكون من البلاغة.

والمؤلف يحيل على الآيات أو على السور التي تدل على هذا، **فإن قال قائل**: هل يرد في السور المكيةِ آياتٌ مدنية؟

الجواب: هذا يحتمل، لكن إذا تتبعها الإنسان، وكان سنده صحيحًا قبلت، وإلا فالأصل أن السور المكية كلها مكية، وأن السور المدنية كلها مدنية، فهذه الاستثناءات التي تذكر غير مُسَلَّمٍ بها، حتى يتبين أنها بسند صحيح.

* * *

«ب- وأما من حيث الموضوع فهو:

١- الغالب في المكّيِّ تقرير التوحيد والعقيدة السليمة، خصوصًا ما يتعلق بتوحيد الألوهية والإيمان بالبعث؛ لأن غالب المخاطَبين ينكرون ذلك.

أما المدني: فالغالب فيه تفصيل العبادات والمعاملات؛ لأن المخاطَبين قد تقرر في نفوسهم التوحيد والعقيدة السليمة، فهم في حاجة لتفصيل العبادات والمعاملات».

الشــرح

هذا من حيث الموضوع:

الغالبُ في المكي هو تقريرُ توحيد الله -عز وجل- وتقرير العقيدة، لا سيما فيما يتعلق بتوحيد الألوهية والإيمان باليوم الآخر؛ لأن أكثرهم ينكر هذا، يقولون للرسول -عليه الصلاة والسلام-: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥]، ويقولون في البعث: ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٢] فهم ينكرون هذا وهذا، فلذلك جاءت آيات السور المكية مقررة لهذا المعنى؛ لأن الحال تقتضي ذلك.

ولهذا يُبْدِئُ الله ويعيد في إثبات البعث؛ لأن القوم ينكرونه، حتى يجئ أحدهم إلى الرسول -عليه الصلاة والسلام- بعظام بالية يفتتها بين يديه، ويقول: من يحي العظام وهي رميم؟! فقال الله -عز وجل-: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩] وهذا دليلٌ أول؛ لأن القادر على ابتدائها قادرٌ على إعادتها، كما قال الله -عز وجل-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم:٢٧]، وهذا دليلٌ ثانٍ، وقوله -تعالى-: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ [يس:٨٠] وهذا دليلٌ ثالثٌ، ووجه الدلالة: أن الشجر الأخضر فيه رطوبة وبرودة، فكيف تتولد من الرطوبة والبرودة حرارة ويبوسة؟ هذا من أعظم ما يكون من القدرة، ثم أكد سبحانه فقال: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾، ولا يمكنكم إنكار هذا، أنتم تستعملونه وتوقدون منه: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس:٨١]؟ الجواب: بلى.

وأيضًا هناك دليلٌ رابعٌ، وهو قوله -تعالى-: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

والدليل الخامس: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢].

والسادس انظر إلى القدرة العظيمة الإلهية أنها زجرة واحدة تقيم الناسَ من قبورهم، يقول الله -عز وجل-: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس:٥٣]، كلهم، لا يتخلَّف أحدٌ، وهل يتباطأ المخلوق: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر:٥٠] -سبحان الله العظيم، والله أكبر- ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [يس:٨٣]، والذي بيده ملكوت كل شيء منزه عن العجز -عز وجل-، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ هذا أيضًا دليل، وجه الدلالة: أنه لو لم نرجع إلى الله -عز وجل- وكان منتهى أمرنا أن ندفن تحت التراب لكان هذا منافيًا للحكمة، فلا بد من الرجوع إلى الله -عز وجل- فيحاسبنا على أعمالنا.

كذلك أيضًا القدرة على البعث، ذكر الله -عز وجل- في القدرة على البعث أدلة حسية، يقول الله -عز وجل-: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾، ﴿ٱهْتَزَّتْ ﴾ بأشجارها وزرعها ﴿وَرَبَتْ ﴾ علت، قيل: إن علوها هو قشرة الأرض، يدفعها النبات، وقيل: إن علوها علو النبات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت:٣٩].

فالمهم أن الآيات المكية لها وضع خاص في المحاجة والمجادلة.

أما المدني فبالعكس؛ فيه تفصيل العبادات، والمعاملات، وآداب الجلوس، وآداب دخول البيوت، وما أشبه ذلك؛ لأن الناس قد استقر في قلوبهم التوحيد والعقيدة السليمة، ولم يبقَ عليهم إلا التفصيل في العبادات والمعاملات.

«٢- الإفاضة في ذكر الجهاد وأحكامه، والمنافقين وأحوالهم، في القسم المدني لاقتضاء الحال، ذلك حيث شرع الجهاد، وظهر النفاق، بخلاف القسم المكي».

الشـــرح

قوله: «الإفاضة في ذكر الجهاد وأحكامه» أي: الكثرة والتطويل في ذكر الجهاد وأحكامه، والناس في مكة لا يحتاجون إلى هذا؛ لأنهم لم يؤمروا بالجهاد، ولا يستطيعون الجهاد أيضًا، لكن في المدينة أمروا بالجهاد وكانوا يستطيعون الجهاد، ولهذا تجد الآيات مفرطة ومكثرة في الكلام عن الجهاد حثًّا عليه، وترغيبًا فيه، وتبيينًا لأحكامه، بخلاف السور المكية.

كذلك المنافقون: لا تكاد تجد في الآيات المكية ذكرًا للمنافقين، ولكن قوله -تعالى-: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت:١١] هذه في سورة العنكبوت وهي مكية، لكن الإفاضة في ذكر المنافقين والتحدث عنهم لا يوجد إلا في السور المدنية، والسبب في ذلك؛ أن النفاق لم يبرز إلا في المدينة، ويظهر بروزه بعد غزوة بدر، حين انتصر المسلمون ورأى المنافقون أنهم مخذولون، فصاروا يظهرون أنهم مؤمنون وهم منافقون: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة:١٤].

***

«**فوائد معرفة المدني والمكي:**

معرفة المكي والمدنيِّ نوعٌ من أنواع عُلُوم القرآن المهمة، وذلك لأن فيها فوائد منها:

١- ظهور بلاغة القرآن في أعلى مراتبها، حيث يخاطب كلَّ قومٍ بما تقتضيه حالهم من قوة وشدة، أو لين وسهولة».

الشـرح

وهذه من أهم الفوائد، أن نعرف أن القرآن أبلغ ما يكون في الكلام؛ لأنه يخاطب كلَّ قوم بما تقتضيه حالهم.

ويتفرع على هذه الفائدة: أن نسلك مسلك القرآن، فنخاطب كلَّ قوم بما تقتضيه حالهم؛ لأن هذا هو البلاغة، وهذا هو الأفضل، فلا يستوي الجاهلُ جهلًا بسيطًا، الذي يأتي بأدنى سبب، والعالمُ المعاند، فالثاني: يُعامَل بشدةٍ، والأولُ يُعامَل بلين.

***

«٢- ظُهور حكمة التشريع في أسمى غاياته، حيث يتدرَّج شيئًا فشيئًا بحَسَب الأهمِّ، على ما تقتضيه حالُ المخاطَبين، واستعدادِهم للقبول والتنفيذ».

الشـرح

وهذا أيضًا من الفوائد: أن نعرف حكمة التشريع، ومن المعلوم أنه لو جاء الشرع دفعة واحدة والناس بعيدون عن الشرع فإنه يصعب، لكن نجد

أنه يأتي شيئًا فشيئًا، مثلًا: لم يفرض الصيام، ولم تفرض الزكاة، ولم يفرض الحج، وفي الآيات المدنية فُرِض هذا وبُيِّن.

وهل الحكمة أن نبدأ بالأهم فالمهم، أو بالمهم دون الأهم؟

البدء بالأهم فالمهم هو الحكمة في التشريع، وهل ينطبق هذا على حال المدعوِّ؟

والجواب: نعم، بمعنى أننا إذا رأينا شخصًا عنده منكرات متعددة فنبدأ عند نصيحته بالأمر الأهم فالمهم، وأيضًا في الأوامر لا نعطيه الأوامر جملة، بل نعطيه الأوامر شيئًا فشيئًا حتى يلين.

ومن ذلك لو أن رجلًا ذهب إلى قوم يدعوهم إلى الله -عز وجل-، ورأى ما هُمْ عليه من البدع والخرافات والأشياء، وأراد أن يتكلَّمَ بأشياءَ يطمئنون إليها أولًا، مثل أن يتكلم عن الصلاة، أو عن الجنة، أو عن النار، وبأشياء متَّفَقٌ عليها حتى تلين قلوبُهم لموعظته، ولا يبدأ من أول الأمر يقول لهم: أيها المبتدعون المخالفون الضالُّون، كل بدعة ضلالة؛ لأنه لو بدأ بمهاجمتهم ما قَبِلُوا منه، وانظر إلى قوله -تعالى-: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأنعام:١٠٨].

فابدأ -أولًا- بالشيء المتَّفَقِ عليه، الذي لا يكون فيه معارضةٌ، وفَتِّح لهم أبوابَ العلم التي أعطاك الله؛ حتى يعرفوا أنكَ رجلٌ عالمٌ، ويُقبِلُوا عليك ويَقْبَلُوا منك.

* * *

«٣- تربية الدعاة إلى الله تعالى، وتوجيههم إلى أن يتبعوا ما سلكه القرآن في الأسلوب والموضوع، من حيث المخاطبين، بحيث يبدأ بالأهم فالمهم، وتُستعمل الشدة في موضعها، والسهولة في موضعها».

الشــرح

الإنسانُ الحكيمُ الذي آتاه الله الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، يعرف كيف يتصرف، انظر إلى حال الرسول ﷺ يُنزل الجاهلَ منزلته، ومن يظهر منه العناد منزلتَه، وجاء رجلٌ أعرابيٌّ فاحتاج إلى قضاء الحاجة فتنحَّى ناحيةَ المسجد، وجعل يبول، يظن أن المسجدَ كالبَرِّ الخالي، فصاح به الناس وزجروه، فنهاهم النبي ﷺ، قال: «**لَا تُزْرِمُوهُ**»، يعني: دعوه يقضي بَوْلَه، فلما قضى بوله أمر النبي ﷺ أن يُراق على بَوْلِه ذَنُوبٌ من ماء، فزالت المفسدةُ من هذا البول بتطهيره، ثم دعا الرجلَ، وقال له: «**إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلاَ الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وَالصَّلاَةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**»، فانْشَرح صدرُ الأعرابيِّ لكلام النبي ﷺ، وكان قد ضاق صدرُه بزجر الصحابة له، فظهر ما في الباطن على اللسان، وقال: «**اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا**»[1]، فضَيَّق الرحمةَ الواسعة التي وسعت كل شيءٍ؛ لأن هؤلاء الصحابةَ ضيَّقوا صدرَه، لكن الصحابةَ معذورون؛ لأن هذا مُنْكَرٌ يجب إنكاره، إلا أن الحكمةَ فيما فعله الرسول -عليه الصلاة والسلام-، ويقول العلماء: لو قام هذا الرجل

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم (٦٠١٠)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات، رقم (٢٨٥).

من بوله صارَ هناك مفاسد، منها:

أولًا: أنه لو قام إما أن يكون كاشفًا عورته لئلا يصيب ثيابَه البولُ، وهذه مفسدة، وإما أن يغطي عورتَه فيصيب ثيابَه البولُ، وهذه مفسدة.

ثانيًا: إذا قطع بولَه كان ضررًا على قنوات البول؛ لأنها ستحبس بعد أن انصب البول من المثانة فيها، وهذا يؤدي إلى ضرر.

ثالثًا: لو قام فلربما تساقطت نقط من البول فتتسع رقعة النجاسة.

فانظر إلى الحكمة النبوية، كيف كانت هي المطابقة في حال هذا الأعرابي.

أما الموضع الثاني فهو موضع الشدة: فإن النبي ﷺ بعث رجلًا يقال له عبد الله بن اللُّتْبِيَّةِ على الصدقة، فلما رجع بإبل الصدقة قال: هذا لكم وهذا لي، غضب النبي -عليه الصلاة والسلام- وخَطب وقال: «**مَا بَالُ الْعَامِلِ نَسْتَعْمِلُهُ فَيَأْتِينَا فَيَقُولُ: هَذَا مِنْ عَمَلِكُمْ، وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَنَظَرَ: هَلْ يُهْدَى لَهُ أَمْ لَا؟**»(١)، فهذه كلماتٌ قوية لأن المقامَ يقتضي ذلك.

ولما رأى رجلًا عليه خاتم ذهب وكان خاتم الذهب محرمًا أخذ بيده الكريمة الخاتم ونزعه ورماه وهذا أسلوب شديد وقال: «**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ**»(٢)، ولما انصرف النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قالوا للرجل: خُذ خَاتَمَك، انتفع به، قال: والله لا آخذ خاتمًا رمى به النبي ﷺ، غضبًا على نفسه أن وصلتِ الحالُ إلى هذا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيل، باب احتيال العامل ليهدى له، رقم (٦٩٧٩)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، رقم (١٨٣٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم خاتم الذهب على الرجال، رقم (٢٠٩٠).

إذن: أرجو من إخواني الدعاة -وأسأل الله أن يجعلنا من دعاة الخير وأنصاره- أن نستعمل هذا الأمر، وأن نتأنَّى ونصبرَ على ما ينالُنا من الأذى، ونصبر على ما كان عليه إخوانُنا المدعوُّون من المخالفة؛ لأنه لا يمكن أن تتغيَّر الأمورُ وتصلح بين عشيةٍ وضحاها.

إذن: ينبغي أن يتخذ المنهجُ القرآنيُّ منهجًا إلى الدعوة إلى الله، بحيث نتدرج شيئًا فشيئًا، فنبدأ بالأهم ثم المهم، فإذا رأيناه مُفرِّطًا في الصلاة، ومُفرِّطًا في الصيام، فنبدأُ بالصلاة؛ لأنها أَهَمُّ، وإذا رأيناه يُفَرِّط في صلاة الفريضة، ويتقن صلاةَ النافلة -كما يوجد في كثير من الناس الآن، نجده في صلاة النافلة يطمئن، ويكثر من التسبيح، وفي الفريضة لا يطمئن- فإننا ننصحه، فيبدأ بالفريضة؛ لأنها أهم، فمن حيث الأسلوب والموضوع، ينبغي للإنسان أن يُرَاعِي ذلك؛ حتى يكون موافقًا للقرآن الكريم من جهة التربية.

* * *

«٤- تمييزُ النَّاسخ من المنسوخ فيما لو وردت آيتان مكية ومدنية، يتحقق فيهما شروط النسخ، فإن المدنية ناسخةٌ للمَكيَّة، لتأخر المدنية عنها».

الشـرح

تقدم أن المكيَّ: هو ما نزل قبل الهجرةِ، والمدنيّ: هو ما نزل بعد الهجرة، فإذا وجدنا آيتين متعارضتين لا يمكن الجمع بينهما، فإننا نعمل بالنسخ، ونقول: الآياتُ المدنية ناسخةٌ للآيات المكية، والنسخ ثابتٌ في الشريعة الإسلامية، وفيما قبلها أيضًا، اقرأ قول الله -تعالى-: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [آل عمران:٩٣]، واقرأ قوله -تعالى-: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء:١٦٠]، كانت في الأول حلالًا ثُمّ حُرِّمت عليهم، واقرأ قولَه تعالى عن عيسى -عليه السلام-: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فالنَّسخ ثابتٌ في جميع الشرائع، لكن له شروط.

ومن أهم شروط النسخ: أن نعلم التاريخ، أي: أن هذا بعد هذا، فإن جَهِلْنا فلا يجوز أن نقول: هذا ناسخ لهذا؛ لأن معنى النسخ أن هذا النصَّ الآخر باطلٌ مُلْغى؛ لأن النسخ فيه إلغاء، ولا يسوغ لإنسان إذا عجز عن الجمع بين النصين أن يلجأ إلى مصعد وعر فيقول هذا منسوخ.

وما أكثر هذا في عبارات كثير من الناس، تجده إذا عجز عن الجمع يقول: إنه منسوخ، وهذا غلط عظيم؛ لأن قولك: هذا منسوخ، يتضمن الكذبَ على الله -عز وجل- أنه نسخ هذا بهذا؛ فأبطل الحكمَ الأول وأثبت الثاني.

ويقول ابن القيم -رحمه الله- أن النسخ لا يبلغ أكثر من عشر مواضع(١)، مع أنك لو أردت أن تنظر إلى كلام كثيرٍ من العلماء لوجدتَ أشياءَ كثيرةً، وذلك أن بعضَ الناس إذا عجز عن الجمع بين النصوص قال: هذا منسوخ.

* * *

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ٢٥٨).

«**الحكمة من نزول القرآن الكريم مُفَرَّقًا:**

من تقسيم القرآن إلى مكي ومدني، يتبين أنه نزل على النبي ﷺ مفرقًا. ولنزوله على هذا الوجه حِكَمٌ كثيرةٌ، منها:

١- تثبيت قلب النبي ﷺ، لقوله -تعالى-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ﴾ «يعني كذلك نزلناه مفرقًا» ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ ليصدوا الناس عن سبيل الله ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٢-٣٣]».

الشـــرح

هذا من الحِكَمِ في نزول القرآنِ مُفَرَّقًا:

أولًا: تثبيت قلب النبي ﷺ؛ وذلك أنه لو نزل القرآن جملةً واحدةً، لحصلت الموعظة في أول نزوله، لكن قد ينسى الإنسانُ، وقد يغفل، فإذا نزل مرة ثانية ازداد ثباتًا، ولهذا نجد الإنسان عند المصائب الكبيرة ينسى ما نزل من القرآن، ولا يخفاكم ما وقع حين تُوفِّي الرسولُ ﷺ من إنكار عمر لوفاته، وتهديد من يقول: إنه تُوفِّي، حتى جاء أبو بكر، وقرأ الآيات التي تدل على أنه سيموت، فكأنها نزلت في ذلك اليوم(١)؛ لأنه من شدة المصيبة ذهلوا عما جاء في القرآن من أن الرسول ﷺ بشر سيموت، كما يموت الناس، ثم استدل المؤلف لهذا بقوله -تعالى-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ يعني: كما نزل في الكتب السابقة، والله -تعالى- مجيب لهذا الإيراد.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم (٤٤٥٤).

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: أنزلناه كذلك مفرقًا.

قوله: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾، أي: لأجل أن يكون مرتلًا، والترتيل معناه أن يقرأه شيئًا فشيئًا، ثم قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾؛ الله أكبر، هذا من نصر الله لنبيه، فإن الله تعالى يأتي بالحق وأحسن تفسيرا، أي: بيانًا ووضوحًا لأن الشبهة تَرِدُ على النبيِّ ﷺ لا في آنٍ واحد، بل في أوقات مختلفة، فإذا وردت الشبهة عليه نزل القرآن في حلها، وهذه من الفوائد الكبيرة أيضًا.

* * *

«٢- أن يسهل على الناس حفظه وفهمه والعمل به، حيث يقرأ عليهم شيئًا فشيئًا، لقوله -تعالى-: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]».

الشـرح

وهذه أيضًا من الفوائد العظيمة: أنه إذا نزل مفرقًا سهل حفظه وسهل على الناس فهمه وسهل على الناس العملُ به، ثلاثة أشياء: الحفظ، والفهم، والعمل به، لكن لو نزل جملة واحدة فإنه يصعب حفظه، وكذلك العمل به؛ لأنه يلزم من نزوله جملة واحدة، أن تثبت جميع أحكام الشريعة جملة واحدة، وهذا فيه صعوبة؛ فينزل مفرقًا لأجل أن يتروض الناس على العمل به، فيتلقونه شيئًا فشيئًا.

وربما يُستفاد من هذه الفائدة فائدة أخرى وهي: أن من أراد أن يحفظ

القرآن عن ظهر قلب، فنقول له: الأفضل ألا تقرأ جملة واحدة، بل اجعله مفرقًا، مثل: أن تقرأ خمسة أسطر حتى تحفظها، ثم خمسة أسطر أخرى، فإذا أتممت جملة صالحة للإعادة أعدها كلها.

* * *

«٣- تنشيط الهمم لقبول ما نزل من القرآن وتنفيذه، حيث يتشوق الناس بلهف وشوق إلى نزول الآية، لا سيما عند اشتداد الحاجة إليها، كما في آيات الإفك واللعان».

الشـرح

هذا أيضًا من فوائد نزول القرآن مفرَّقًا، وهو تنشيط الهمم لقبول ما نزل؛ لأنه إذا تأخر النزول صار الناسُ يتشوَّقون، وينتظرون نزول الآية بفارغِ الصبر، لا سيما عند اشتداد الحاجة، مثل آية اللعان، والإفك، وكذلك آية الظِهار وغيرها مما هو معروف، ولا شك أن هذه فائدة عظيمة؛ لأنه إذا نزل القرآن والناس في شدة اشتياق شديدة صار هذا أدعى لقبوله، والعمل به، والراحة فيه.

* * *

«٤- التدرج في التشريع حتى يصل إلى درجة الكمال، كما في آيات الخمر الذي نشأ الناس عليه وألفوه، وكان من الصعب عليهم أن يُجابَهُوا بالمنع منه منعًا باتًّا، فنزل في شأنه أولًا: قوله -تعالى-: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩] **فكان**

في هذه الآية تهيئة للنفوس لقبُول تحريمِه، حيث إن العقل يقتضي ألا يمارس شيئًا إثمه أكبر من نفعه.

ثم نزل ثانيًا قوله -تعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣] فكان في هذه الآية تمرين على تركه في بعض الأوقات وهي أوقات الصلوات.

ثم نزل ثالثًا قوله -تعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة:٩٠-٩٢]، فكان في هذه الآيات المنع من الخمر منعًا باتًّا في جميع الأوقات، بعد أن هُيِّئَتِ النفوس، ثم مُرِّنَت على المنع منه في بعض الأوقات».

الشــرح

وهذا أيضًا من فوائد نُزول القرآن مُفرَّقًا، وهو التدرج في التشريع، وأظهرُ مثال على ذلك الخمر، ومن ذلك أيضًا الصلوات، والصيام، فالصلوات أولَ ما فُرضت ركعتين، ثم زيدت في صلاة الحضر، ومن المعلوم أن الركعتين أخفُّ من الأربعة.

وكذلك أيضًا في الصيام، كان ما نزل فرضه في أن الإنسان مخير إن شاء صام، وإن شاء أطعم، والصيام أفضل، ثم بعد ذلك تعين الصيام؛ لأنه إذا قيل للإنسان: إن شئت صمت، وإن شئت أفطرت والصوم أفضل، تهيأت

نفسه للصيام، وصار إيجابه بعد أن تهيأت النفس من أبلغ الحِكَم.

وهذا هو التدرج في التشريع، فإذا وجدنا أحدًا مقصرًا في شيء من الأمور وإيمانه ضعيف، وأنَّا لو أوردنا عليه الأمور جميعًا لانتكس.

فهل لنا أن ندرجه فيما هو عليه؟

الجواب: نعم؛ وذلك لأننا لا نحاول انسلاخه من الدين، أو إقراره على المعصية، بل نحن نريد انتشاله من المعصية، لكن بطريق يسهل عليه، ومثله لو رأينا مبتلىً يشرب الدخان، وقلنا له: اترك الدخان، وقال: لا أستطيع أن أتركه مرة واحدة، لكن اسمحوا لي أن أشربه في اليوم مرتين، فنقول له: لا بأس اشربه مرتين؛ لأنه ربما بالتدريج ينتفع، فالمهم متى كان التدريج في تغيير المنكر أنفع، فإننا نسلكه، أما الواجب فإننا لا نتساهل فيه، بل نقول له: قم بالواجب.

فإن قال قائل: لو أن رجلًا قال: اسمحوا لي أن أصلي الظهر والعصر والمغرب، وأما الفجر والعشاء فإنه يصعب عليَّ، فما الجواب؟

فالجواب: أن نقول: الظاهر أننا نلزمه بأن يصلي الجميع، وإن كان قد جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن: «**أن قومًا أتوا إلى رسول ﷺ ليسلموا فاشترطوا عليه ألا يصلوا فقال: لكم هذا، قالوا: يا رسول الله كيف هذا؟ قال: إنهم إذا أسلموا صلوا**»، وهذا السائل نقول له: إذا صلى الثلاث صلوات عن إيمان ويقين، فلا بد أن يصلي العشاء والفجر، لكن مع ذلك لا تطمئن نفسي أن أقول: لا بأس أن نوافقه على هذا الشرط، بل نرغبه في الصلوات الخمس.

ثم مَثَّل المؤلفُ بمثال عن الخمر الذي نشأ الناسُ عليه، وأَلِفوه، وكان من الصعب عليهم أن يُجابَهوا بالمنع منه منعًا باتًّا، ولا بد أن نعرف ما هو الخمر، هل هو عصير العنب، أو عصير الرطب، أو عصير البُرّ، أو الشعير، أو ما أشبه ذلك؟

نقول: إن النبي ﷺ قال: «**كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ**»(١)، فكل ما أسكر فهو خمر.

فما معنى الإسكار؟

الإسكار هو تغطيةُ العقل على وجه الطرب واللَّذة، ولهذا قيل: (خمر) من الخِمار الذي تُغطي به المرأة وجهها ورأسَها، فكذلك الخمر يُغطي العقلَ على وجه اللذة والطرب؛ لأن تغطيةَ العقل قد تكون لذلك، وقد تكون لغير ذلك، فربما يدوخ الإنسان من شيء شرِبَه، أو شمَّه، فهذا ليس بِسُكْرٍ؛ لأنه لا يطرب، ولا يتلذَّذ به، بخلاف الخمر، ولذلك لا نقول إن البنج خمر؛ لأنه يغطي العقل، ولكنه ليس على سبيل الطرب واللذة.

أما السكران -والعياذ بالله- فإنه يجد نشوة عظيمة، كأنه يطير بين السماء والأرض، وكأنه ملك من الملوك.

وهكذا يقول حسان بن ثابت -رضي الله عنه- في جاهليته(٢):

وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا ....

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، رقم (٢٠٠٣).

(٢) ديوان حسان بن ثابت (ص:٤)، وتمام البيت:

وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا ... وَأُسْدًا لَا يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ

وانظر إلى قصة حمزة -رضي الله عنه- عمِّ الرسول -عليه الصلاة والسلام-، جاء علي -رضي الله عنه- يشكو عمَّه حمزةَ إلى الرسول -عليه الصلاة والسلام-؛ لأن عليًّا كان له نَاضِحان -يعني: بعيرين- فمرَّا بحمزةَ وهو سكرانُ، وعنده جارية تغني، فتقول:

أَلَا يَا حَـمْزُ لِلشُّرُفِ النَّوَاءِ ....

تحثُّه على نحرهما، فقام وَجَبَّ أسنمتَهما، وَبَقَرَ بطونهما، وأكل من أكبادِهما، فجاء عليٌّ إلى النبيِّ ﷺ يشكو إليه عمَّه، فذهب النبي ﷺ إليه ومعه الناسُ، فلما أقبل عليه حمزة قد ثمل وسكر، فقال: «**يَا عَمِّ مَا هَذَا؟**» قال: اذهب، فهل أنتم إلا عبيدُ أبي، يعني الرسول ﷺ وعليَّ بْنَ طالب والقرابة، فتراجع النبي -عليه الصلاة والسلام-[1]؛ لأن هذا القول لو قاله حال صحوه لكان كفرًا؛ لأنه في غاية ما يكون من الإذلال للرسول -عليه الصلاة والسلام-، لكن الرسول -عليه الصلاة والسلام- عرف أن حمزةَ سكرانُ لا يُؤاخَذ بقوله.

إذن: الخمر يُغَطِّي العقلَ على وجه اللذة والارتفاع والسلطان والنشوة، كان حلالًا في أول الإسلام؛ لأن اللهَ أقرهم عليه، وقيل إنه كان حلالًا بقوله -تعالى-: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ [النحل:٦٧]، وأن هذا إباحةٌ لهم صريحةٌ، ثم قال المؤلف في تدرج التشريع الخاص بالخمر:

أولًا: إن الله أنزل فيه هذه الآية؛ وهي قوله -تعالى-: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المساقاة، باب بيع الحطب، رقم (٢٣٧٥)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر وبيان أنها تكون من عصير العنب، رقم (١٩٧٩).

﴿ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ﴾ يعني: عن حكمهما ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ [البقرة:٢١٩] لم يقل: حرام، بل عرّض -عز وجل- بتحريمهما: ﴿إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾، هذه بالكيفية ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ بالكمية؛ لأن المنافع جمع منفعة، وهي صيغة منتهى الجموع، والإثم واحدٌ لكنه في الكيفية أشدُّ؛ لأن ﴿مَنَٰفِعُ﴾ من حيث الكمية أكثر، والإثم الكبير من حيث الكيفية أعظم، ولهذا قال: ﴿وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾، ولم يقل: (أكثر)؛ لأن هذا في الكيفية لا في الكمية.

فتكون منافع كثيرة، لكن الإثم أكبر من النفع، وقوله: ﴿وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ يعني: أشد من النفع، وانظر إلى قوله: ﴿مَنَٰفِعُ﴾، وقوله: «نفع» حيث جمع في الأول، وأفرد في الثاني؛ لأن الثاني مصدر، والمصدر يكون مفردًا دائمًا، ولهذا قال ابن مالك -رحمه الله-[1]:

وَنَعَتُوا بِمَصْدَرٍ كَثِيرَا فَالْتَزَمُوا الإِفْرَادَ وَالتَّذْكِيرَا

أيضًا هذه المنافع كلها لو اجتمعت فهي نفعٌ واحِدٌ، وإن ظنَّ الظَّانُّ أنها منافعُ كثيرةٌ؛ لأن نفعه يعود على مسائل دنيوية، فهذه الآية إذا قرأها العاقل فإنه لا يُقْدِم على شرب الخمر؛ وذلك لأن العاقل لا يُقْدِم على شيءٍ إثمُه أكبر من نفعِه، فتتهيَّأُ النفوس للمنع.

أما الميسر فهو القمار، وهو المغالبة على عوض وما أشبه ذلك من المعاملات، وضابطها: كل معاملة يكون الإنسان فيها إما غانمًا، وإما غارمًا

(١) البيت رقم (٥١٣) من الألفية.

فهي ميسر، وسُمِّيَتْ ميسرًا ليسر الربح فيها؛ لأن الإنسان في القمار -نسأل الله العافية- ربما يربح في ليلة واحدة الملايين.

فكان في هذه الآية تهيئةٌ للنفوس لقبول تحريم الخمر والميسر؛ حيث أن العقلَ يقتضي ألَّا يمارِسَ شيئًا إثمُه أكبرُ من نفعه، فالعاقل امتنع عنه.

ثم قال المؤلف: ثم نزل ثانيًا قوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾، فالصلوات الخمس أوقاتُها خمسةٌ، فهي أوقات معينة، لا بد أن تُصلَّى فيها، فإذا قيل: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ امتنع الناس عن شرب المسكر في خمس أوقات؛ لأنهم إذا سكروا وجاء وقت الصلاة فسوف يمتنعون، وفي هذه الآية تمرين على تركه في بعض الأوقات، وهي أوقات الصلوات، أوقات الصلوات الخمس لا بد من تجنبه فيها، والنوافل.

وقوله: ﴿وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]، فيه دليل على أن السكران لا يعلم ما يقول، وهذه الآية يستفاد منها فوائد كثيرة:

منها: لو أن السكران أعتق جميع عبيده فإنهم لا يعتقون؛ لأنه لا يعلم ما يقول، وكذلك لو أوقف أمواله لم توقف؛ لأنه لا يعلم ما يقول، وكذلك لو طلق نساءه فإنهن لا يطلقن؛ وذلك لأنه لا يعلم ما يقول، وكذلك يقاس عليه الغضبان، وذلك إذا أطبق عليه الغضب فإنه يلحق بذلك، ولهذا كان القول الراجح: أن طلاق الغضبان الذي لا يعلم ما يقول لا يقع.

ومن فوائد هذه الآية: أن في هذه الآية دليلًا على وجوب الخشوع في

الصلاة، وهو إحضار القلب؛ لأنه لا يمكن أن يعلم ما يقول إلا إذا كان قلبه حاضرًا، فإن لم يكن حاضرًا صار ركوعُه، وسجودُه، وتسبيحُه، وقرآنُه، من غير قصد، بل هو عبارة عن آلة ميكانيكية، وقد ذهب إلى هذا بعضُ العلماء، وقال: إنه إذا غلب الوسواس على أكثر الصلاة فإنها تبطل.

وهل نقول على هذا القول: إنه يستلزم أن تبطل صلوات الناس الآن أو لا يستلزم؟

والجواب: أنه لا يستلزم، إنما يستلزم أن يستقيم الناس على إحضار قلوبهم، ولهذا لو جاء رجل يستفتيك في أنه لم يستحضر الصلاة، بل كان ذهنه غائبًا، فقلت له: (أعد الصلاة) فإنه لا يوسوس إذا جاءت الصلاة الأخرى، ولهذا كان القول -أعني بطلان صلاة الناس بالوسواس- قد يهدف إلى مصلحة، ولكنه ضعيف فيما نعتقد، والقول الراجح: أن الصلاة لا تبطل، وذلك أن النبي ﷺ أخبر أن الشيطان إذا أذن المؤذن أَدْبَر وله ضراط(١)، فإذا فرغ من الأذان أقبل على الإنسان.

فإذا أقيمت الصلاة ولَّى، فإذا انتهت الإقامة حضر، وصار يقول للإنسان في صلاته: أتذكر كذا وكذا؟ فتجده يذكره بالأشياء، ولم يقل الرسول ﷺ: إن صلاته تبطل.

ثم نزل ثالثًا: قوله -تعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠]، فصدَّر اللهُ هذه

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل التأذين، رقم (٦٠٨)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، رقم (٣٨٩).

الآية بهذا النداء للتنبيه على أهمية ما سيذكر بعده، ثم وجَّه النداء إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، أي: الذين يقتضي إيمانهم الامتثالَ والطاعةَ لأمر الله -عز وجل-، ولهذا يُذكر عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنه قال: «**إذا سمعت الله يقول:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ **فأرعها سمْعَك، فإما خيرٌ تؤمر به، وإما شرٌّ تنهى عنه**»[١].

ثم ذَكر -عز وجل- العلةَ قبل الحكم؛ لأن ذِكْرَ العلةِ قبلَ الحكم يجعل النفسَ تُقْبِلُ الحكمَ عن اقتناع وعقل، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، هذه العلة يترتب عليها قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾، ثم ذَكَر الثمرةَ في اجتنابه، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قوله: ﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾ هي الأوثان، وهي جمع نَصَب، كأسباب جمع سَبَب، وهي ما يُعبد من دون الله.

﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ هي ما يُستَقْسَم به، وكانوا في الجاهلية يستقسمون بالأزلام، بدل أن يصلوا سُنَّةَ الاستخارة.

وهنا قَرن اللهُ -تعالى- هذه الأربعةَ بحكمٍ واحد، فهل هي متساوية في هذا الحكم؟

الجواب: لا؛ لأن من المعلوم أن الأنصاب أشدُّ من الخمر والميسر، إذ أن الأنصاب كفر، والأزلام دون الأنصاب، والميسر والخمر دونهما، وعلى هذا فيكون الاشتراك في أصل الحكم لا في نوعه، وإنما قرن الله تعالى ذلك بالأنصاب التي هي عبادة الأصنام لشدة التحذير منها، وأنها تنافي كمال التوحيد.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٨٣)، وتفسير ابن كثير (١/ ٣١٥)، وحلية الأولياء (١/ ١٣٠)، وسنن سعيد بن منصور (١/ ٢١١، رقم ٥٠).

وقوله: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ﴿رِجْسٌ﴾ بمعنى نجس، والنجس ينقسم إلى قسمين: نَجِسٌ نجاسة حسية، كما في قوله -تعالى-: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤٥]، وهذا الرجس الحسي وكما في حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ أمره أن ينادي: «إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ؛ فَإِنَّهَا رِجْسٌ»[١]، هذه نجاسة حسية، وكما جاء عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قضى حاجته فأتاه عبد الله بن مسعود بحجرين وروثة، فأخذ الحجرين وألقى الروثة، وقال «إِنَّهَا رِجْسٌ» أو قال: «رِكْسٌ»[٢]، هذه نجاسة حسية، أما النجاسة المعنوية، فمثل قول الله -تعالى-: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج:٣٠]، وقوله -تعالى-: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ وقوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب:٣٣]، هذه نجاسة معنوية.

قوله: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ «من» هذه بيانية؛ لأن الرجس قد يكون من الأوثان، أو من غيرها، فالأوثان -سواء من حجر أو وما أشبه ذلك- هي من الأشياء الطاهرة، ومثل قول الله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨] أي: نجاسة معنوية.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم (٤١٩٨)، ومسلم: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب تحريم أكل لحم الحمر الإنسية، رقم (١٩٤٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب لا يتسنجي بروث، رقم (١٥٦).

وقوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ دليل على أنها نجاسة معنوية وليست حسية، وجه ذلك: أن كلمة ﴿رِجْسٌ﴾ خبرٌ عن كل ما سبق من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، فلا يصح أن نقول: (هي بالنِّسبة إلى واحدة منها رجس حسي، وبالنسبة للآخر رجس معنوي) إلا بدليل، ثم إن الرجس هنا لم يطلق، بل قُيِّد فقيل فيه: رجس من عمل الشيطان، فهو رجس عملي، وليس رجسًا حسيًا، وبهذا التقدير يتبين أن كلَّ من استدلَّ بهذه الآية على نجاسة الخمر نجاسة حسية، فقد أبعد النجعة، وخالف ظاهرَ الكلام.

فإن قال قائل: أليس هو حرامًا؟

فالجواب: بلى، لكن لا يلزم من التحريم النجاسة، فها هو السمُّ حرام، وليس بنجس، والدخان كذلك حرام وليس بنجس، فلا يلزم من التحريم النجاسة.

فإذا قال قائل: أليس الرسول ﷺ سمَّاها أم الخبائث؟

فالجواب: بلى، لكنَّها أمُّ الخبائث المعنوية.

ثم إن الأصل الطهارة، وليس هناك دليل على أن نجاسته نجاسة حسية، ثم نقول: وقد جاءت السنة ببيان طهارته، وهذه زيادة على قولنا بالأصل، وهو أن الأصل الطهارة، وذلك حين حرمت الخمر وهي في أواني الصحابة، وخرجوا بها إلى الأسواق أراقوها، ولم يغسلوها، ولم يؤمروا بغسلها، ولو كانت نجسة لأمروا بغسلها.

فإن قال قائل: حكم بنجاستها بعد أن تخمرت، فتكون في أول الأمر

طاهرة، ولذلك لم يؤمروا بغسلها؟

فالجواب: هذا ينتقض بلحوم الحمر، فإنها حُرِّمت ولحمها يغلي في القدور، فأمر النبي ﷺ بإراقتها وكسر القدور، فقالوا: يا رسول الله أو نغسلها؟ فقال: «**أَوِ اغْسِلُوهَا**»[١]، فأمر بغسلها مع أنها لم تُحَرَّمْ إلا بعد أن كانت في القدور، ثم نقول: الصحابة -رضي الله عنه- بعد أن حُرِّمت أراقوها في الأسواق، ولا يمكن أن يُراق الشيء النجسُ في أسواق المسلمين؛ لأنه يلوث عليهم ثيابهم وأبدانهم.

ثم نقول ثالثًا: أتى رجل إلى رسول الله ﷺ، بِرَاوِيَةٍ من خمر -والرَّاوِيَة: قربة كبيرة-، يريد أن يتودد بها إلى رسول الله ﷺ، فقال الرسول ﷺ: «**إِنَّهَا حُرِّمَتْ**»، فتكلم معه أحد الصحابة سرًّا مع الرجل، فقال: «**بِمَ سَارَرْتَهُ؟**» قال: قلت يا رسول الله بعه، فقال: «**لَا؛ إِنَّ اللهَ إِذَا حَرَّمَ شَيْئًا حَرَّمَ ثَمَنَهُ**»، ففتح الرجل فَمَ الراوية، وأراق الخمر بحضرة النبي ﷺ[٢]، ولم يقل له: اغسل الراوية، وهذا دليل واضح على عدم نجاستها، ولهذا كان الرجل لا يعرف التحريمَ فضلًا عن النجاسة، ولو كانت الخمرُ نجسةً نجاسةً حسية، لوجب أن يُعْلِمه الرسولُ ﷺ؛ لأنه جاهلٌ.

وهذه أدلة واضحة، والقول بأنها نجسة نجاسة حسية، لا يقتضي أن يُلزم الناس بتجنبها، يكفي أن تقول: إنها نجسة نجاسة معنوية لمن كان مؤمنًا، وإلا فإنَّ غير المؤمن لا يهمه.

(١) أخرجه أحمد (١٦٠٧٨).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم بيع الخمر، رقم (١٥٧٩).

إذنْ: الخمر طاهرةٌ طهارةً حسية، نجسةٌ نجاسةً معنويَّةً لا شك فيها.

وكيف يطهر الناس منها؟

يطهرون منها بالرَّدْع، يعني: بالتأديب، ولهذا كان الرجل يُؤْتى به على عهد الرسول ﷺ شاربًا، فيقوم الناسُ إليه، هذا يضربه بيده، وهذا يضربه بنعله، وهذا يضربه بثوبه، وهذا يضربه بسوطه، نحو أربعين جلدة، وفي عهد أبي بكر -رضي الله عنه- تقرَّر أربعين جلدةً، وفي عهد عمر -رضي الله عنه- في أول خلافته تقرر أربعين جلدة، ثم كثر شرب الناس للخمر؛ لأنهم حديثو عهدٍ بإسلام؛ ولأن الفتوحات في عهد عمر -رضي الله عنه- كثرت، فدخل في الدِّين مَنْ إيمانُه ضعيف، وكثر شرب الخمر.

وكان من عادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- على كونِه صائبَ الرأي أن يجمع الناس للأمور العامة المشكلة، ويشاورهم فيها، فجمع الناس وقال لهم: إن الخمر قد كثر كما ترون، فقال له عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه-: «**يا أمير المؤمنين، إن أخفَّ الحدود ثمانون**»، فجعل عمر -رضي الله عنه- عقوبة الخمر إلى ثمانين[1].

وهذا الذي سبق يدل على أن عقوبة شارب الخمر ليست حدًّا، وإنما هي ردع وتعزير؛ لأن عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- طرح القضيةَ، وقال: «**أَخَفُّ الحدود ثمانون**»، وكُلُّ الصحابة وافقوا على هذا، ولو كانت عقوبةُ الخمر حدًّا لكان أخفُّ الحدود أربعين، فعُلِم بهذا اتفاقُ الصحابة

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحدود، باب حد الخمر، رقم (١٧٠٦).

-رضي الله عنهم- على أن عقوبةَ شارب الخمر ليست حدًّا، لكنها تعزيرٌ، إلا أنه لا يقل عن أربعين.

ويدل أيضا على أن شارب الخمر جلدُه عقوبةٌ أنه لو كان حدًّا أربعين، فإنه لم يكن من الممكن لعمر -رضي الله عنه- أو غير عمر أن يرفعه إذا كثر وقوع الناس فيه؛ ولهذا لو كثر الزنا والعياذ بالله في الناس فإننا لا نزيده بدلَ مئةِ جلدةٍ مئتين؛ لأنها حدود لا تُتَعَدَّى.

ودليلٌ آخر أنَّ الرسول ﷺ قال في شارب الخمر: «**مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِذَا شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِذَا شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِذَا شَرِبَ فِي الرَّابِعَةِ فَاقْتُلُوهُ**»[١]، وواضح أنه ﷺ لم يُحَدِّد الجلدَ، ولكن قال: اجلدوه، أي: اجلدوه الجلدَ الرَّادِع، وما دام أن الرسولَ ﷺ أطلق ولم يَرِدْ عنه حديثٌ صحيحٌ أو ضعيفٌ في التحديد، فهو إِذنْ عقوبةٌ، وفي الرابعة يقتل.

وهل يقتل وجوبًا أو حسب ما يراه الإمام؟

الجواب: الثاني، لكنَّ ابْنَ حزمٍ عليَّ بْنَ محمدٍ -رحمه الله وعفا الله عنه- أبى ذلك، فقال: يُقتل في الرابعة وجوبًا حدًا، وكيف نخالف أمر الرسول ﷺ فيما أمر به، فيُقتل في كل حال[٢]، وكلامُه جيِّدٌ إذا صحَّحْنا الحديثَ، فليس لنا بدٌّ من العمل به، والحديث صحيحٌ، لكنه عند الجمهور منسوخٌ،

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٦١٦٢)، وابو داود: كتاب الحدود، باب إذا تتابع في شرب الخمر، رقم (٤٤٨٤)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب ذكر الروايات المغلظات في شرب الخمر، رقم (٥٦٦١).

(٢) انظر المحلي (١١/ ٣٦٦-٣٧٠).

والنسخ في هذه المسألة أبعدُ من الثرى عن الثريَّا؛ وذلك لأن النسخ يحتاج إلى العلم بالتأريخ، ويحتاج إلى تعذر الجمع.

وأما شيخ الإسلام -رحمه الله- ففَصّل في هذا فقال: «إذا لم ينتهِ الناس إلا بالقتل في الرابعة قُتل»[١]، فجعل مناطَ الحكم راجعًا إلى الإمام، أي: جعله تعزيرًا، وكلام شيخِ الإسلام -رحمه الله- كلام جيد، ولا مانعَ من أن يُحمل الحديثُ على هذا، وهو الذي يترجَّح عندي، من أنَّ الناسَ إذا لم ينتهوا من دون القتل في الرابعة قُتلوا[٢].

ومع الأسف الذي يأسف له الإنسان ويحزن أنه يوجد في البلاد الإسلامية اليوم من يُحِلُّون الخمر، فقد لا يستطيع الحاكمُ أن يقول: الخمر حلال، لكن تمكينه من إعلان هذا الخمر، ووضعه في المحلات، أو ثلاجات المياه التي في الشوارع هذا بمنزلة استحلاله، لكنه استحلال عمليٌّ لا قولي.

وقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ أي: كل ما ذُكر، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، «لعل» هنا للتعليل، أي: لتفلحوا، والفلاح هو حصول المطلوب، والنجاةُ من المرهوب.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١] إذن: كل عمل يُوجب العداوةَ بيننا فهو من وحيُ الشيطان، وهو من مُرادات الشيطان، وهو من محبوبات الشيطان، ﴿أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [المائدة:٩١]،

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٣٦).

(٢) انظر الشرح الممتع على زاد المستقنع (٩/ ٣٠٣)، لفضيلة الشيخ الشارح -رحمه الله تعالى-.

فالعداوة ضد الولاية، والبغضاءُ ضد المحبة، فلا محبةٌ ولا ولايةٌ، وإنما هي العداوةُ، ولهذا تجد الشيطانَ يلعب ببني آدم، إذا سمع من أخيه كلمةً تحتمل الخيرَ والشرَّ يوسوس له الشيطان، ويقول: احملها على الشرِّ.

وقوله -تعالى-: ﴿فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ أي: بسببهما، ففي للسببية، وهي قد تأتي كذلك كثيرًا، ومنه قول النبي ﷺ: «**دَخَلَتِ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا**»، يعني بسبب هرة حبستها، «**لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ سَقَتْهَا**»(١).

وقوله -تعالى-: ﴿وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ -الله أكبر- يقول لي بعض الناس: إنه لا ينام سريعًا، فإذا شرع يذكر الله، ويسبح: «سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر»، نام مباشرة؛ ليصده الشيطانُ عن ذكر الله، وهذا واقعٌ، حتى في غير هذه الحال، وقد لا يصدُّنا عن الذكر باللسان، ولكن يصدنا عن الذكر بالجنان بالقلب، وهذا هو البلاء.

وقوله: ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ والصلاة من ذكر الله، بل هي أفضل أنواع الذكر؛ لأن فيها القرآن والتسبيح والدعاء، وهيئات تدل على التعظيم والذل، ولكن نص عليها لشرفها، لأن ذكر الخاصِّ بعد العام يدل على شرفه، ومنه قوله -تعالى-: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر:٤]، المراد بالروح جبريل -عليه السلام- وهو من الملائكة، لكن التنصيص عليه يدل على شرفه، والشيطان يصدنا عن الصلاة كثيرًا، إذا أُذِّنَ للصلاة والإنسان يكتب شيئًا أو يراجع شيئًا أو يخيط شيئًا أو يغسل شيئًا، قال: سأقضيه لسهولته الآنَ، وإذا به تفوته

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، رقم (٢٣٦٥)، ومسلم: كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، رقم (٢٢٤٢).

الصلاة، وهذا واقع كثيرًا.

ثم إذا قُدِّر أن الإنسان دحر الشيطان وذهب يُصلي صدَّه من جهة أخرى، وهي الوسوسة؛ ولهذا شكا رجلٌ إلى الرسول ﷺ الوسوسةَ، فقال له: «**ذَلِكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ: خِنْزَب**»، وقد عَلِمَ ﷺ هذا الاسمَ بالوحي، وقال للرجل: «**إِذَا أَحْسَسْتَ بِهِ فَاتْفُلْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثًا، وَاسْتَعِذْ بِالله مِنْهُ**»(١). ففعل الرجلُ، يقول: فذهب عني ما أجد؛ لأنه فعل ذلك عن إيمان وتصديق فصار الدواء ناجعًا.

وقد تجد من الناس من يتفل عن يساره ثلاث مرَّاتٍ، ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، لكن من حين أن يلتفتَ إلى الصلاة تأتيه الوساوس؛ لأن الإيمان بهذا الدواءِ ضعيفٌ؛ ولهذا فإنَّ من أهم ما يكون أن يصدِّقَ الإنسانُ بالدواء.

ذكر الله -عز وجل- أن اثنين من هذه الأربعة تُوجب العداوة والبغضاء، وهي الخمر والميسر، وسكت عن الأنصاب التي هي الأوثان، وعن الأزلام التي كانوا يستقسمون بها؛ لأنها لا توجب العداوة والبغضاء، إذ إن الأنصاب -وهي الأصنام- يتضرر بها من عَبدها، ولا توجب النزاعَ بين الناس، وليس هناك عقدٌ حتى يُقال: إنها تُوجب العداوةَ بين المتعاقِدين، وكذلك الأزلام.

فالأزلام: هي أقداحٌ، وهي جمع قدح، وهو ما يكون في السهم، كانت يستقسم بها العرب، فإذا همَّ الإنسانُ بأمر وتردد فيه استقسموا بالأزلام،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة، رقم (٢٢٠٣).

ووضعها في كيس، وكان مكتوبًا على أَحَدِها (افعل)، والثاني (لا تفعل)، والثالث ليس فيه شيء، فإن خرج (افعل) فعل وأقدم وقال: هذا خير، وإن خرج (لا تفعل) أحجم وترك، وقال: هذا شرٌّ، وإن خرج الخالي من الكتابة أعاد الاستقسام مرة أخرى، فأبدل الله الأمة الإسلامية عن هذا الاستقسام بصلاة الاستخارة التي هي عبادة ولجوء إلى الله -عز وجل-، يصلي ركعتين، ثم يدعو بدعاء الاستخارة.

وقوله -تعالى-: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٩١]؛ لأن من ابْتُلِي بالسُّكْرِ -والعياذ بالله- غفل عن ذكر الله، وصار لا ينتهي من فِعْلٍ إلا تلبَّس بالآخر؛ لأنه يربطه.

وقوله: ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ العطف هنا على ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، من باب عطف الخاصِّ على العامِّ، وإنما خصَّها بالذكر؛ لأهميتها، وإلا فلا شَكَّ أنها من ذكر الله -عز وجل-.

وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ يعني: فبعد هذا البيان هل تنتهون أم لا؟ وهو استفهام بمعنى الأمر، أي: فانتهوا، لكنه أتى بصيغة الاستفهام لتوبيخ من لا ينتهي عن ذلك مع سماعه بأضراره.

وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ﴾ [المائدة:٩٢] أي: واحذروا مخالفتهما.

وأحيانًا يقول -سبحانه وتعالى-: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، ولا فرق بينهما، لكن في بعض الأماكن يحتاج إلى ذكر الطاعة للرسول -عليه الصلاة

والسلام- بخصوص، وذلك كلما كان الأمر أهمَّ.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة:٩٢]، أي أنه لا حساب عليهم من قِبَلِكُمْ؛ لأنه بلغ -عليه الصلاة والسلام-.

وفي قوله -تعالى-: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ ولم تحذروا المخالفة: ﴿فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ تنبيهٌ عظيمٌ، يعني: اعلموا أن الرسول لا ينفعهم، وأنه ليس مسئولًا عنهم، و﴿أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، هذا فيه حصرٌ، أداته (أنما)، يعني: ما عليه إلا البلاغ، فإذا بلَّغ برِئَتْ ذمتُه.

وقوله: ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ يعني البَيِّن، أو المُوَضِّح، وبلاغُ الرسول ﷺ جامعٌ بين أمرين، فهو بَيِّنٌ بنفسه، مُبَيْنٌ لمن يسمعه، ومن وَرِثَ الرسول -عليه الصلاة والسلام- من العلماء ما عليه إلا البلاغ المبين، وعسى أن يقوم به، وليس عليه هداهم، ولهذا ينبغي لطلبة العلم إذا وعظوا أو نصحوا ورأوا الناس لم ينصاعوا، ينبغي عليهم ألا يثوروا على النَّاس، ولا يقولوا لهم أنتم لا تعرفون ولا تتعظون؛ لأنه إذا قال لهم هذا أوغر قلوبَهم عليه، ولم يقبلوا منه، وعليه أيضًا أن يصبر ويحمد الله، فما دام الرسول محمدٌ ﷺ ليس عليه إلا البلاغ، فإن غيرَه من باب أولى، فكان في هذه الآيات المنع من الخمر منعًا باتًّا في جميع الأوقات، بعد أن هُيِّئَتِ النفوس ثم مُرِّنَتْ على المنع منه في بعض الأوقات.

وفي هذه الآيات فوائدُ كثيرةٌ منها: أن الشَّيء إذا خالطه الخمر ولم يؤثر به فليس بخمر، وبه نعرف خطأ من قالوا: إنه إذا كان فيه جزءٌ من مئة جزءٍ

من الخمر فهو حرام، واستدل بقوله ﷺ: **«مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ»**[١]، ففهموا النصَّ على غير مراده؛ لأن مراد الحديث **«مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ»** يعني إذا كان الشيءُ إذا شربت منه كثيرًا حصل الإسكارُ، وإن شربت قليلًا فلا إسكار، فالقليل الذي ليس فيه إسكارٌ حرامٌ؛ لأنه قد يُتَوصَّل بالقليل إلى الكثير، وقد لا يستطيع منعَ نفسه إذا ذاق الخمرَ أن يشربه حتى يسكر، هذا هو معنى الحديث الذي لا يحتمل سواه.

وأما ما خالطه الخمرُ ولم يؤثر فيه فهذا لا يضر، ومِن ثَمَّ نعرف أن بعض الأدويةِ التي فيها شيءٌ من الكحول لا تُحَرَّم إذا كانت بنسبة قليلة.

وأيضًا ما يوجد الآنَ من الأطياب في الأسواق التي يقال: إن فيها مادةَ الكحول، الأثيل المسْكِر، فهل تدخل هذه المواد في هذه الآية، أو لا تدخل؟

والجواب: تدخل؛ لأن النبي ﷺ وصف الخمر بأنه ما أَسْكَر، فقال **«كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ»**[٢]، وهذه الأطياب بعضُها يسكر.

فهل قوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ أمرٌ باجتناب السُّكْرِ من هذه الأطياب، أو أنه أمرٌ مطلَقٌ؟

والجواب: الاحتياط أن نجعله أمرًا مطلقًا، وأن نجتنب هذه الأطياب التي تُسْكِر، سواءٌ أكان ذلك في البيع، أو الشراء، أو التطيُّب بها، أو غير

(١) أخرجه أحمد برقم (١٤٢٩٣)، وابو داود: كتاب الأشربة، باب النهي عن السكر، رقم (٣٦٨١)، والترمذي: كتاب الأشربة، باب ما جاء ما أسكر كثيره فقليله حرام، رقم (١٨٦٥)، وابن ماجه: كتاب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام، رقم (٣٣٩٣).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، رقم (٢٠٠٣).

ذلك؛ لأن الله قال: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾، ويحتمل أن يقال: إن قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ أي: اجتنبوا شربه، بدليل قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾، وهذا لا يكون في البيع والشراء وما أشبه ذلك، ولهذا نرى أن الورع اجتناب هذه الأطياب، ولا سيما التي يركز الناس فيها على الإسكار، لكن إذا دعت الحاجة إلى استعمالها لتعقيم الجروح أو ما أشبه ذلك فلا بأس.

فإن قال قائل: إذا كانت نسبة الكحول قليلةً في هذه الأطياب، بحيث لا تُسْكِر، فهل يكون التطيُّب بها جائزًا؟

الجواب: نقول: إذا كانت نسبةُ الكحولِّ قليلةً بحيثُ لا يُسْكِر كثيرُه، فهو حلالٌ، ولا إشكالَ فيه.

وهل يقع طلاق السكران؟ وما الدليل على ذلك؟

الجواب: لا يقع؛ والدليل أنه لا يعلم ما يقول فهو كالمجنون، ودليل آخر قوله ﷺ: «**لَا طَلَاقَ ولَا عتاقَ فِي إِغْلَاقٍ**»[1]، وهذا مغلَقٌ عليه.

وما حُجة القائلين بوقوع الطلاق عليه؟

قالوا: زيادة في الردع، فنجيبهم بأمرين:

أولًا: أنكم تقولون إن عقوبة الخمر حدٌّ، والحدُّ لا يجب الزيادةُ عليه.

ثانيًا: إنَّ إيقاع الطلاق ليس عقوبةً عليه ولا حدًّا له وحده، بل هو عقوبةٌ على امرأته وأولاده أيضًا، وكيف نعاقب من لا وزر منه، والقول بأن

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٥٨٢٨)؛ وابن ماجه: كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، رقم (٢٠٤٦).

طلاق السكران يقع ضعيف جدًا.

والصواب: أنه لا طلاق عليه، لكن ما يتعلق بحقوق الآدميين يجب استيفاؤه.

ولكن هل يُقتل فيما إذا قتل عمدًا، أو نقول: هذا لا عقل له فلا عمد له؟

والجواب: أنه يقتل على قول كثير من العلماء، **وبعضهم قال**: لا يقتل، إلا إذا علمنا أنه شرِبَ الخمرَ ليَقْتُل، كأن يكون عنده شيء من الفقه فيقول: أنا لا أريد أن أقتله عمدًا فأُقْتَل به، فيشرب الخمر حتى يكون في غير وعيِه، ويَقتل، فهذا يُقتل لأنَّ الحِيَل لا تُبطل الأحكامَ الشرعية.

***

«ترتيب القرآن:

ترتيب القرآن: تلاوته تاليًا بعضُه بعضًا، حسبما هو مكتوب في المصاحف، ومحفوظ في الصدور.

وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ترتيب الكلمات بحيث تكون كلُّ كلمة في موضعها من الآية، وهذا ثابت بالنص والإجماع، ولا نعلم مخالفًا في وجوبه وتحريم مخالفته، فلا يجوز أن يقرأ: (لله الحمدُ ربِّ العالمين) بدلًا من ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

النوع الثاني: ترتيب الآيات بحيث تكون كلُّ آية في موضعها من السورة، وهذا ثابت بالنص والإجماع، وهو واجب على القول الراجح، وتحرم مخالفته ولا يجوز أن يقرأ: (مالك يوم الدين، الرحمن الرحيم) بدلًا من: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٣-٤]، ففي (صحيح البخاري)[١] أن عبد الله بن الزبير قال لعثمان بن عفان -رضي الله عنهم- في قوله -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖ﴾ [البقرة:٢٤٠]، وقد نسختها الآية الأخرى، يعني: قوله -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا﴾ [البقرة:٢٣٤]، وهذه قبلها في التلاوة، قال: فلم تكتبها؟ فقال عثمان -رضي الله عنه-: يابن أخي لا أُغيِّر شيئًا منه من مكانه.

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائيُّ والترمذيُّ من حديث عثمان -رضي الله عنه-: أن النبيَّ ﷺ كان ينزل عليه السُّوَرُ ذواتُ العددِ، فكان إذا نزل عليه الشيءُ، دعا بعضَ من كان يكتب، فيقول، ضعوا هذه الآيات في السورةِ التي يُذْكَر فيها كذا وكذا[٢].

النوع الثالث: ترتيب السُّوَر بحيث تكون كل سورة في موضعها من

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا﴾، رقم (٤٥٣٠).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٤٠١)، وابو داود: كتاب الصلاة، باب من جهر بها، رقم (٧٨٦)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٨٦)، والنسائي في الكبرى (٨٠٠٧).

المصحف، وهذا ثابت بالاجتهاد فلا يكون واجبًا، وفي (صحيح مسلم)[1] عن حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه-: أنه صلّى مع النبي ﷺ ذات ليلة، فقرأ النبي ﷺ البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، وروى البخاري[2] تعليقًا عن الأحنف: أنه قرأ في الأولى بالكهف، وفي الثانية بيوسف أو يونس، وذكر أنه صلى مع عمر بن الخطاب الصبح بهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «تجوز قراءة هذه قبل هذه، وكذا في الكتابة. ولهذا تنوعت مصاحف الصحابة -رضي الله عنهم- في كتابتها، لكن لما اتفقوا على المصحف في زمن عثمان -رضي الله عنه-، صار هذا مما سنه الخلفاء الراشدون، وقد دلَّ الحديثُ على أن لهم سنة يجب اتباعها[3]» ا.هـ.

الشرح

هناك أربعة أنواع من الترتيب:

أولًا: ترتيب الحروف في الكلمة.

ثانيًا: ترتيب الكلمات بعضِها مع البعض.

ثالثًا: ترتيب الآيات بعضها مع بعض.

رابعًا: ترتيب السور مع بعضها البعض.

فهذه أربعة أنواع، لكننا لم نذكر النوعَ الأوَّلَ؛ لأنه لا أحد يتجرَّأُ عليه،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الجمع بين السورتين في الركعة.

(٣) ذكره في الفروع (١/ ٣٦٩).

ولا شك في تحريمه، وهو مخالفة الترتيب في الحروف في الكلمة الواحدة، فإنَّ ذلك بالنصِّ والإجماع غيرُ جائزٍ؛ لأنه تحريفٌ للكلمة عن مواضعها.

الثاني: ترتيب الكلمات بعضها مع بعض؛ فهذا على القول الراجح توقيفيٌّ، فلا يجوز تقديمُ كلمةٍ في آيةٍ على كلمةٍ أخرى؛ لأن النبيَّ ﷺ هكذا تلاها.

مثال ذلك: لا يجوز أن يقرأ: (لله الحمدُ ربِّ العالمين) بدلًا من: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فإن قال قائل: لو قدَّم المصلِّي كلمةً على كلمةٍ، وقلنا: إن ترتيب الكلماتِ توقيفيٌّ، فهل تبطُل صلاتُه؟

فالجواب: نقول: إذا كان عن غير قصدٍ فإنها لا تبطل، وإن كان عن قصدٍ فإنَّ صلاتَه تبطل، فلا يجوز أن نُغيِّرَ فيه.

الثالث: ترتيب الآيات؛ بحيث تكون كلُّ آيةٍ في موضعها من السورةِ، وهذا قد اختلف العلماءُ فيه، هل هو بالاجتهاد أو بالنص؟ والصحيحُ: أنه ثابتٌ بالنص والإجماع، وهو واجبٌ على القول الراجح، وتحرُم مخالَفَتُه؛ لأنَّ الآيات مرتبةٌ ترتيبًا توقيفيًّا، فلا يجوز أن يقرأ: (مالك يوم الدين، الرحمن الرحيم)، بدلًا من: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، والمخالفة في هذا النوع أقل من المخالفة في ترتيب الكلمات؛ لأنَّه لو قدَّم آيةً على آيةٍ لكن يبقى ترتيب كلمات الآية حسبَ ما جاء في القرآن، ومع ذلك فهو حرامٌ؛ ولأنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا نزلت عليه الآية قال: «**ضعوا آية كذا في مكان كذا**»،

ولحديث البخاري عن عبد الله بن الزبير أنه سألَ عثمانَ عن آيتين في كتاب الله إحداهما نَسخت الأخرى، والناسخة متأخرة في الترتيب، وهي قوله -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة:٢٤٠]، فهذه الآية تدل على أن الإنسان إذا مات، فإنه يجب عليه أن يُوصي وصيةً تكون لزوجته عامًا كاملًا تبقى في بيته، فإن خرجت فلا جناح عليها، كما قال -تعالى-: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ [البقرة:٢٤٠]، هذه الآية منسوخة بقوله -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤]، وهذه الآية الثانية قبلها في الكتابة، فسأل عثمان -رضي الله عنه- عن ذلك فقال: يا ابن أخي لا أُغيِّر شيئًا عن مكانه أو من مكانه، وهذا يدل على أن ترتيب الآيات توقيفيٌّ وليس باجتهاد، وإذا كان توقيفيًّا، أي: موقوفًا على النص، فإنه لا يجوز أن نُقدِّم بعضَ الآيات على بعض.

فإن قال قائل: بالنسبة لترتيب الآيات قلتم: إنه ثابت بالنص والإجماع، وذكرتم أن هذا هو القولُ الراجح، فكيف يكون القولَ الراجحَ مع وجود الإجماع؟

فالجواب: يكون هو القولَ الراجحَ؛ لأن الذي ادَّعى هذا مخالفٌ للإجماع.

النوع الرابع: ترتيبُ السُّوَر؛ وهذا ثابت بالاجتهاد، وبعضه ثابت بالتوقيف كما سيُذْكر فلا يكون واجبًا، فلك أن تقرأ آل عمران قبل البقرة،

وأن تقرأ النساء قبل آل عمران، وأن تقرأ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ قبل سورة الفلق، وهلمَّ جرًّا؛ لأن ذلك ثابتٌ بالاجتهاد هذا ما قررناه، ولكن الذي يظهر لي أن منه ما هو ثابت بالاجتهاد وهو الأكثر، ومنه ما هو ثابت بالنص، مثل: الجمعة والمنافقين، فقد كان النبي ﷺ يقرأ في الركعة الأولى من صلاة الجمعة بالجمعة، وفي الثانية بالمنافقين[1]، ومثل ﴿سَبِّحِ﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، فإن النبي ﷺ كان يقرأ بهما في صلاة الجمعة، وفي العيدين مُرَتَّبَتَيْن[2].

فقد يقول قائل: إن ترتيب السور منه ما هو ثابت بالنَّص، ومنه ما هو ثابت بالاجتهاد، وهذا هو الأكثر، واستدل القائلون: بأنه بالاجتهاد بحديث حذيفة أن النبيَّ ﷺ قرأ ذاتَ ليلةٍ البقرةَ، ثم النساء، ثم آل عمران[3]، فبدأ بالنساء قبل آل عمران، مع أنها في الترتيب في المصحف بعدها، وكذلك أيضًا ما رُوي عن عمر -رضي الله عنه- أنه قرأ في الأولى بالكهف، وفي الثانية بيوسف أو يونس[4].

وهذا يدل على أن الترتيب بين السور ليس توقيفيًّا، ولا شك أن هذا هو الأصح، إلا أن يَدَّعي مدع أن ما قرأه النبيُّ ﷺ من السور مرتبًا فإنه يكون مرتبًا بالتوقيف، مثل المعوِّذتين فإنها توقيفيَّة، فقد كان النبي -صلى الله

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة، رقم (٨٧٧).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة، رقم (٨٧٨).
(٣) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).
(٤) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الجمع بين السورتين في الركعة.

عليه وعلى آله وسلم- يقرأ بهما: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وقبل ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. كذلك سبح والغاشية، فقد كان النبي ﷺ يقرأ بهما في الجمعة، ويبدأ بسَبِّح، وكذلك الجمعة والمنافقون، كان الرسول ﷺ يقرأ في صلاة الجمعة بهما، فيبدأ بسورة الجمعة، فمثل هذا نعرف أنه توقيفيٌّ.

فإن قال قائل: كيف خالف الصحابةُ -رضي الله عنهم- رسولَ الله ﷺ في تقديم آل عمران على سورة النساء؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن النبي ﷺ يجمع بينهما في الفضل، أي بين البقرة وآل عمران، كما في قوله: «**اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ -أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ- أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا**»[(١)] فجمع بينهما.

ثانيًا: لعل الْعَرْضَة الأخيرة التي عرض فيها الرسول ﷺ القرآن على جبريل -عليه السلام- قد تغيَّر بعدها الترتيبُ، بعد أن سمعه حذيفةُ، وحينئذٍ يزول الإشكال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «تجوز قراءة هذه قبل هذه، وكذلك في الكتابة، ولهذا تنوعت مصاحف الصحابة -رضي الله عنهم- في كتابتها».

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، رقم (٨٠٤).

ثم بعد اتفاق الصحابة على هذا الترتيب العثماني، هل نقول: إن هذا مما سَنَّهُ الخلفاء الراشدون، وأجمعت عليه الأمة بعد العصر الأول، فيلزم اتباعه أولا؟

قد يقال: هذا، وقد يقال: إن هذا إجماعٌ خالفه الخلافُ قبله، وكذلك اختلاف مصاحف الصحابة، فإنها كانت مختلفةً في الترتيب، إلا أنه فيما يتعلق بقراءتها أمام العوامِّ، فإنه لا ينبغي أن يُخالف الإنسانُ الترتيبَ الذي في المصحف، واستثنى بعضُ العلماء من ذلك مجالَ التعليم، وقالوا: إنه في مجال التعليم لا حرج أن نبدأ بالمتأخِّر قبل المتقدِّم، ولذلك كان المسلمون يُعلِّمون الصبيانَ بادئين بسورة الناس، ثم يصعدون، فهذه للحاجة لا بأس بها.

ولو قال قائل: فِعْلُ عثمان -رضي الله عنه- في جعل المصاحف مصحفًا واحدًا، وبَعْثُه إلى كل أُفْقٍ من الآفاق الإسلامية، فإذا كان الذي يظهر أنها صورةٌ عن أصل واحد، فكيف أتت هذه القراءاتُ السَّبْعُ أو العشر؟

فالجواب: إن هذه القراءات لا تخرُجُ عن هذه المصاحف أبدًا.

* * *

٥- كِتَابَةُ الْقُرْآنِ وَجَمْعُهُ

لكتابة القرآن وجمعه ثلاثُ مراحل:

المرحلة الأولى: في عهد النبي ﷺ، وكان الاعتماد في هذه المرحلة على الحفظ أكثر من الاعتماد على الكتابة، لقوة الذاكرة، وسرعة الحفظ، وقلة الكاتبين ووسائل الكتابة، ولذلك لم يجمع في مصحف، بل كان مَنْ سَمِع آيةً حفظها، أو كتبها فيما تيسر له من عُسُبِ النخل، ورقاع الجلود، ولخاف الحجارة، وكِسر الأكتاف، وكان القراء عددًا كبيرًا.

ففي (صحيح البخاري)[1] عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-: أن النبي ﷺ بعث سبعين رجلًا يقال لهم: القرّاء، فعرض لهم حيَّانِ من بني سليم -رعل وذكوان- عند بئر معونة فقتلوهم، وفي الصحابة غيرُهم كثير كالخلفاء الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأُبيٍّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي الدرداء -رضي الله عنهم-».

الشــرح

وهذه هي المرحلة الأولى في كتابة القرآن، وهذه الكتابة في هذه المرحلة تعتمد على الحفظ أكثر من الكتابة؛ للأسباب التي ذُكرت في هذا البحث.

أولًا: قوة الذاكرة، فإن الذاكرةَ في الصحابة قويَّةٌ جدًّا، لا يكاد الواحد منهم ينسى ما حفظه، وكان الشاعر منهم يأتي إلى المجلس وينشد القصيدة

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب العون بالمدد، رقم (٣٠٦٤).

التي تبلغ خمسين بيتًا أو مئة بيت مرة واحدة، ثم يحفظونها ويتناقلونها.

ثانيًا: سرعة الحفظ؛ فإن حفظهم سريعٌ، وبينهما فرق، فقوة الذاكرة أنه إذا أراد الشيء استحضره بسرعة، وسرعة الحفظ يعني: يحفظ سريعًا.

والناس في هذا أربعة أقسام: سريع الحفظ والنسيان، بطيء الحفظ والنسيان، بطيء الحفظ سريع النسيان، سريع الحفظ بطيء النسيان، وأحسنهم سريع الحفظ بطيء النسيان.

ولهذا تجد الواحدَ منهم يروي الحديثَ عن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- يبلغ الصفحة أو الصفحتين، مع أنه لم يسمعه إلا مرةً واحدةً.

ومنها أيضًا: قلة الكتبة في عهد الرسول -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-؛ لأن العرب أمة أمية، قال الله تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ**﴾ وقال النبي ﷺ: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ**»(١)، لكنْ بعد أن جاء الإسلام صاروا علماء بل علماء العالم كله.

ومنها: أن وسائل الكتابة كانت قليلة؛ فكان لا يوجد ورق ولا حبر ولا أقلام؛ فلذلك صاروا يعتمدون على الحفظ، وكما قيل: (الحاجة أُمُّ الاختراع)، فإذا احتاج الناسُ إلى الحفظ صارت حافظتُهم قويةً، يعني: معتمِدِين عليها، ولهذا كانوا يعتمدون في كتاباتهم على ما تيسَّر لهم من عُسُب النخل، وعسبُ النخل (جريد النخل، إذا نُحي عنه خوصه)، فالعسيب

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ: «لا نكتب»، رقم (١٩١٣)، ومسلم: كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، رقم (١٠٨٠).

الذي هو منبت الأوراق ويكتب فيه، كذلك أيضًا رقاع الجلود: وهي عبارة عن رقعة الجلد، يأخذها مدبوغةً فيكتب فيها، وأيضا لخاف الحجارة: وهي حجارة ملساء تشبه العظمَ يكتبون فيها، وكذلك كِسَر الأكتاف: وهي أكتاف الحيوان كالبعير، والشاة، والبقر يكتبون عليها، فلما قَلَّت الوسائل في عهد النبي -عليه الصلاة والسلام- وسائل الكتابة، احتاج الناس إلى الحفظ فحفظوا، ولهذا تجدون الآن الذين يعتمدون في الحساب على الآلة الحاسبة يقل تصورهم بالأشياء ومعرفتُهم بها، ولما ظهر الحاسب الآليُّ في الفرائض أشرنا على الذين أخرجوه بألا يُخرجوه على وجه عامٍّ شاملٍ؛ لأن هذا يُمِيت أذهانَ الطلبة.

فإن قال قائل: بعضُ أهل العلم يقول: إنَّ بعض القرآن أتى آحادًا، ويستدل بحديثٍ: «ما جَمَع في عهدِ النبيِّ ﷺ القرآنَ إلا أربعةٌ، ذكر منهم ابن مسعود وأُبي»[1]، يقول: إن بعض الصحابة كانوا يكتبون القرآنَ، وأن أوله آحاد؟

الجواب: يرد على قولهم هذا بأنه أولًا: قبول خبر الآحاد في الآيات؛ لقول النبي -عليه الصلاة والسلام-: «**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرآنَ غضًّا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**»[2]، وهذا خبر واحد، أمرنا الرسول -عليه الصلاة والسلام- أن نعتمده.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب مناقب زيد بن ثابت، رقم (٣٨١٠)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بن كعب وجماعة من الأنصار، رقم (٢٤٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٧١، رقم ٨٥٢٧).

ثانيًا: أن الإجماع حصل بعد ذلك من الصحابة، فهذا القرآنُ الذي بين أيدينا أجمعَ الصحابةُ عليه، وعلى صحَّتِه وقَبُولِه.

ثالثًا: أن القرآنَ خبرٌ دينيٌّ، والأخبارُ الدينيَّةُ جاءت السُّنَّةُ مُطَّرِدَةً بأنها تُقبل من الواحد، كما في رؤية هلال رمضان[1]، وما أشبه ذلك.

***

المرحلة الثانية: في عهد أبي بكر -رضي الله عنه- في السنة الثانية عشرة من الهجرة. وسببه أنه قُتل في وقعة اليمامة عددٌ كبيرٌ من القُرَّاء منهم، سالم مولى أبي حذيفة، أحدُ مَنْ أَمر النبيُّ ﷺ بأخذ القرآن منهم.

فأمر أبو بكر -رضي الله عنه- بجمعه لئلا يضيع، ففي صحيح البخاري[2] أن عمرَ بن الخطاب أشار على أبي بكر -رضي الله عنهما- بجمع القرآن بعد وقعة اليمامة، فتوقَّف تورُّعًا، فلم يزل عمرُ يراجعه حتى شرح الله صدرَ أبي بكر لذلك، فأرسل إلى زيد بن ثابت فأتاه، وعنده عمر فقال له أبو بكر: إنك رجلٌ شابٌّ عاقلٌ لا نتَّهِمُك، وقد كنتَ تكتب الوحيَ لرسول الله ﷺ فتتبَّعِ القرآنَ فاجمَعْهُ، قال: فتتبعتُ القرآنَ أجمعُه من العُسُب واللِّخاف

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصوم، باب في شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان، رقم (٢٣٤٠)، والترمذي: كتاب الصوم، باب ما جاء في الصوم بالشهادة، رقم (٦٩١)، والنسائي: كتاب الصيام، باب قبول شهادة الرجل الواحد على هلال شهر رمضان، رقم (٢١١٢)، وابن حبان (٨/ ٢٣٠)، والحاكم (١/ ٢٩٧)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، متداول بين الفقهاء، ولم يخرجاه».

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾.

وصدور الرجال، فكانت الصُّحُفُ عند أبي بكر حتى توفَّاه الله، ثم عندَ عمر حياتَه، ثم عندَ حفصةَ بنت عمر -رضي الله عنهما-. رواه البخاري مطوَّلًا.

وقد وافق المسلمون أبا بكر على ذلك وعدوُّه من حسناته، حتى قال علي -رضي الله عنه-: «أعظمُ الناس في المصاحف أجرًا أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله»(١).

الشــرح

وهذه هي المرحلة الثانية، وكانت على يد أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- في السنة الثانية عشرة، بمشورة عمر الفاروق -رضي الله عنه- لما قُتِل في اليمامةِ كثيرٌ من القراء، خاف الخليفةُ الراشدُ أبو بكر -رضي الله عنه- أن يضيع القرآنُ، فأشار عليه عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أن يجمعه ويكتبه، فتوقف -رضي الله عنه- تورُّعًا؛ لأن هذا لم يكن على عهدِ الرسول -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، فخاف أن يكون إذا جمعه تصرَّف في كتاب الله بما لم يفعله الرسول -عليه الصلاة والسلام-، فلم يزل عمرُ يراجعه حتى شرح اللهُ صدرَ أبي بكر لذلك، فدعوا هذا الشابَّ زيدَ بْنَ ثابتٍ -رضي الله عنه- وجمعه من العُسُب واللِّخاف وغيره، وصارت المصاحفُ عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر، ثم عند حفصة زوجة النبي ﷺ وهي ابنةٌ لعمر، فهي أم المؤمنين، وبنت أمير المؤمنين، وهي ذاتُ ذكاءٍ وفِطنة، ولذلك لما وقَّفَ عمرُ -رضي الله عنه- أرضَه في خيبر، جعل الناظر عليه ابنته حفصة(٢)، ولم يجعل الناظرَ

(١) أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (ص:١١)، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٩/ ١٢).
(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الوصايا، باب ما جاء في الرجل يوقف الوقف، رقم (٢٨٧٨).

عبد الله ولا غيره من أولاده؛ لأنها ذاتُ ديانةٍ، وأمانةٍ، وعقلٍ، وحسن تصرُّفٍ، فبقيت عند حفصةَ حتى تولى عثمان -رضي الله عنه-.

وهذا هو الجمع الأول في عهد أبي بكر -رضي الله عنه-، وقد وافق المسلمون أبا بكر على ذلك، وعدُّوه من حسناته، حتى قال عليٌّ بن أبي طالب -رضي الله عنه-: «**أعظم الناس في المصاحف أجرًا أبو بكر، رحمةُ الله على أبي بكر، هو أولُ من جمع كتابَ الله**»، وفي هذا وخزة وطعنة في صدور الرافضة الذين يبغضون أبا بكر، وربما كان بعضُهم يلعنه -والعياذ بالله-، فها هو عليٌّ ابن طالب -رضي الله عنه- الذي يرَوْنَ أنه إمام الأئمة، يقول فيه هذا القول؛ لأن عليَّ بْنَ أبي طالبٍ -رضي الله عنه- رجلٌ مؤمِنٌ تقيٌّ عاقل عادل، فقال الحق، لكن أولئك الرافضة على العكس من ذلك، ولهذا يخالفون عليَّ بْنَ أبي طالب في مسائلَ.

خالفوه في المتعة، وهو -رضي الله عنه- ممَّن روى تحريم المتعة(١).

وخالفوه في المسح على الخفين، وهو مَن روى المسحَ على الخفين(٢).

وهذا يدُلُّ على أنهم إنما أَتَوْا بعليِّ بْنِ أبي طالبٍ -رضي الله عنه- للترويج على العامَّة، وخداعهم أنهم ينتصرون لآل البيت.

***

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب نهي رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة آخرًا، رقم (٥١١٥)، ومسلم: كتاب النكاح، باب نكاح المتعة وبيان أنه أبيح ثم نسخ ثم استقر تحريمه إلى يوم القيامة، رقم (١٤٠٧).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب كيف المسح، رقم (١٦٢).

المرحلة الثالثة: في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله عنه- في السنة الخامسة والعشرين، وسببُه اختلافُ النَّاسِ في القراءة بحسب اختلاف الصحف التي في أيدي الصحابة -رضي الله عنه-، فخِيفت الفتنة، فأمر عثمان -رضي الله عنه- أن تُجمع هذه الصحفُ في مصحف واحد؛ لئلا يختلف الناس، فيتنازعوا في كتاب الله تعالى ويتفرقوا.

ففي صحيح البخاري[1] أن حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- قدِم على عثمانَ -رضي الله عنه- من فتح أرمينية وأذربيجان، وقد أفزَعَه اختلافُهم في القراءةِ، فقال: يا أمير المؤمنين، أَدْرِكْ هذه الأمةَ قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلافَ اليهود والنصارى، فأرسل عثمانُ إلى حفصةَ أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردُّها إليك، ففعلتْ، فأمر زيدَ بْنَ ثابتٍ، وعبدَ الله بْنَ الزبير، وسعيدَ بْنَ العاص، وعبدَ الرحمنِ بْنَ الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف -وكان زيدُ بْنُ ثابتٍ أنصاريًّا، والثلاثة قرشيين- وقال عثمان للرهط الثلاثة القرشيين: إذا اختلفتُم أنتم وزيدُ بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريشٍ؛ فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحفَ في المصاحف، ردَّ عثمانُ الصحفَ إلى حفصة، وأرسل إلى كل أُفُقٍ بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق.

وقد فعل عثمان -رضي الله عنه- هذا بعد أن استشار الصحابةَ -رضي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، رقم (٤٩٨٧).

الله عنهم-، لما روى ابْنُ أبي داودَ عن عليٍّ[١] -رضي الله عنه- أنه قال: والله ما فعلَ الذي فعلَ في المصاحف إلا عن ملأٍ مِنَّا، قال: أرى أن نجمعَ الناس عَلى مصحفٍ واحدٍ، فلا تكون فُرْقَةُ ولا اختلافٌ، قلنا: فَنِعْمَ ما رأيت.

وقال مصعب بن سعد[٢]: أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، أو قال: لم ينكر ذلك منهم أحد، وهو من حسنات أمير المؤمنين عثمان -رضي الله عنه- التي وافقه المسلمون عليها، وكانت مكملة لجمع خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر -رضي الله عنه-.

والفرق بين جمعه وجمع أبي بكر -رضي الله عنهما-: أن الغرض من جمعه في عهد أبي بكر -رضي الله عنه- تقييد القرآن كله مجموعًا في مصحف، حتى لا يضيع منه شيء دون أن يحمل الناسَ على الاجتماع على مصحف واحد؛ وذلك أنه لم يظهر أثر لاختلاف قراءاتهم يدعو إلى حملهم على الاجتماع على مصحف واحد.

وأما الغرض من جمعه في عهد عثمان -رضي الله عنه- فهو تقييد القرآن كله مجموعًا في مصحف واحد، يحمل الناس على الاجتماع عليه لظهور الأثر المخيف باختلاف القراءات.

وقد ظهرت نتائج هذا الجمع حيث حصلت به المصلحة العظمى

---

(١) أخرجه الخطيب في كتابه الفصل للوصل المدرج (٢/ ٩٥٤)، وفي الإسناد المحفوظ محمدُ بن أبان الجعفي (علل الدراقطني ٣/ ٢٢٩-٢٣٠): قال ابن معين: ضعيف (الجرح والتعديل للرازي ٧/ ٢٠٠)، وأخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف (ص:٢٢).

(٢) أخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف (ص:١٢).

للمسلمين من اجتماع الأمة، واتفاق الكلمة، وحلول الأُلفة، واندفعت به مفسدة كبرى من تفرق الأمة، واختلاف الكلمة، وفشوِ البغضاء والعداوة.

وقد بقي على ما كان عليه حتى الآن متَّفقًا عليه بين المسلمين متواترًا بينهم، يتلقاه الصغير عن الكبير، لم تعبث به أيدي المفسدين، ولم تطمسه أهواء الزائغين، فلله الحمد لله رب السماوات ورب الأرض رب العالمين.

الشــرح

وهذا هو الجمع الثالث الذي أجمع عليه المسلمون، وبقيت إلى يومنا هذا -والحمد لله- محفوظةً بحفظ الله، وهو أن القرَّاء في عهد أبي بكر، وفي عهد عمر، وفي أول خلافة عثمان -رضي الله عنهم- كُلٌّ يقرأ بما سمع من النبي -عليه الصلاة والسلام- فاختلفوا؛ لأن القرآن نزل على سبعة أحرف، فخاف المسلمون من هذا الاختلاف أن يؤدي إلى اختلاف القلوب، واختلاف الآراء، وأن يؤدي إلى القتال، فرأوا أن يُجْمَع على حرف واحد، فأمر عثمانُ بن عفان -رضي الله عنه- زيدَ بْنَ ثابتٍ ومن معه أن يجمعوه على حرف واحد، وإذا اختلفوا فليجمعوا على حرف قريش، يعني: على لغتِها؛ لأن القرآن نزل بلغتهم، ففعلوا وبقي هكذا مجموعًا، ولا يُعَارِض جمعَ عثمان هذا وجودُ بعض الآيات الكثيرة في القرآن بغير لغة قريش؛ لأن هذا إما أن يقال: إن الحكم للأغلب، أو أن هذه الكلمات أصلها ليست عربية، ولكن قريش تكلموا بها.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ تغْيِيرَ ما كان في عهد النبيِّ -عليه الصلاة والسلام- لوسائل حفظه لا بأس به.

لو قال قائل: لماذا لم يتركوا القرآن على سبعة أحرف، وكلٌّ يقرأ بحرف، ووسعوا على الأمة، ولم يحصروها في حرف واحد؟

فالجواب: من أجل اجتماع الكلمة، وعدم التفرق، وهذا أعظم من مراعاة التوسعة على بعضهم.

وبذلك نعرف مثلا أن ما ينكره بعضُ الناس اليوم من هذه الخطوط التي تُسوَّى بها الصفوف، ومن الخطوط التي يستدل بها على القبلة في المسجد الحرام وما أشبه ذلك، نعلم أن هذا بعيد عن الفقه في الدين؛ لأن هذه الوسائل في عهد الرسول -عليه الصلاة والسلام- لم تتوفر، فمسجد الرسول -عليه الصلاة والسلام- كان مفروشًا بالحصباء، فكيف يمكن أن يجدوا خطًّا، وأيضًا ما وُضع في المسجد الحرام الآن من الخطوط الزرقاء التي يستدل بها على الاتجاه الصحيح للكعبة، ففي عهد الرسول -عليه الصلاة والسلام- ما احتاجوا إلى ذلك؛ لأن المسجد الحرام كان صغيرًا جدًا، وكان الناس أيضًا أشدَّ دِينًا، وأقوى ورعًا من الناس اليوم، يأتي الإنسان ويُكَبِّر على الجهة حتى وإن كانت الكعبة على يمينه أو يساره لا يتحرَّوْن لدينهم، لكن في عهد الرسول ﷺ يتحرون.

وقد قال العلماء -رحمهم الله-: إن الإنسان يدخل إذا قدم مكة معتمرًا أو حاجًّا من باب بني شيبة، وباب بني شيبة موضعه صحن المطاف، وأنا قد أدركتُ ذلك قريبًا من مقام إبراهيم، هذا يدل على أن المسجد كان صغيرًا جدًّا، ومثل هذا لا يحصل فيه الاختلاف، لكن الآن اتسع المسجد اتساعًا باهرًا، وضعف الورع في كثير من الناس، فكان وضع هذه الخطوط من أحسن ما يكون.

فعلى الإنسان أن يعرف أنَّ الوسائل ليست غايات، فنحن مثلًا لم نتعبد لله -تعالى- لوضع هذه الخطوط الصُّفر مثلًا في المسجد، أو لوضع الخطوط الزرقاء التي تدل على الاتجاه الصحيح في المسجد الحرام، ولكننا اتخذناها وسيلةً، كما جمع الصحابة -رضي الله عنهم- القرآنَ على حرفٍ واحدٍ، مع أنه في عهد الرسول ﷺ على سبعة أحرف، فكذلك أُلِّفَتِ الكتب، وبُوِّبَت المعاني والموضوعات.

فإن قال قائل: مكبرات الصوت الآن بدعة؛ لأنه ليس في عهد الرسول -عليه الصلاة والسلام- فما الجواب؟

الجواب: بل هي وسيلة صحيحة، والدليل على هذا أنَّ رفع الصوت مقصودٌ، كما في غزوة حنين؛ حيث أمر الرسولُ ﷺ العباسَ بن عبد المطلب أن ينادي في الناس؛ لأنه كان جَهُوريَّ الصوت، فكان يقول: «**يَأَهْلَ السَّمُرَةَ، يَأَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، هَلُمُّوا**»(١)؛ وذلك لأن الناس فروا، ولم يبقَ من اثني عشر ألف رجلٍ مع الرسول ﷺ إلا نحوُ ثمانين رجلًا، حتى أنزل الله سكينته عليهم، ورجعوا.

فالحاصل: أن الوسائل ليست غايات، وهذه قاعدةٌ ينبغي لنا أن نفهمها حتى لا نقع في الخطأ، وحتى لا نجعل كلَّ شيء بدعةً، فنفرق بين الغايات والوسائل، لكن إذا كانت الوسيلةُ محرمةً، فمن المعلوم أننا لا نتخذها.

مسألة: لو قال قائل: بعضُ الناس يُحسِّنُ البدعةَ، ويستدل بقصة

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم (١٧٧٥).

أبي بكر -رضي الله عنه- حين جمع القرآن؛ لأنه فعل شيئًا لم يفعله النبيُّ ﷺ، فما الجواب؟

الجواب: أننا نفرق بين ما كان مشروعًا وبين ما لم يكن مشروعًا، فما كان وسيلةً لمشروع، فهو مشروع، أما أن يشرع الإنسان شيئًا ابتداءً فهذا لا يجوز؛ لأنه بدعة.

مثال ذلك: لو قال قائل: وسائل الدعوة كثيرةٌ، لكن عندي أناس لا يتجهون إليَّ إلا إذا ضربتُ الموسيقى، وآلات اللهو التي يطربون لها، حينئذٍ يلتفون حولي، فهل أفعل ذلك؟

الجواب: لا يجوز؛ وذلك لأن الوسائل المحرمة لا تجوز، ولا يمكن أبدًا أن تكون نتيجةُ الوسيلةِ المحرمةِ خيرًا، أما الوسائل المباحة، فإنها إذا أدت إلى الغرض المقصود شرعًا، فالأصل أنها مطلوبة، وهذه قاعدة ينبغي لنا أن نفهمها، انظر إلى الصحابة -رضي الله عنهم- عندما حصروا الناس على مصحف واحد، وعلى حرف واحد، وهو لغة قريش، بينما كان الناس في الأول كُلٌّ يقرأ على لغته، لكن لما كان يخشى من هذا الاختلاف أجمع الصحابةُ على ذلك، أي: على مصحف واحد، وعلى لغة قريش.

فإن قال قائل: من المعلوم أن أهل المشرق لهم قراءة، وأهل المغرب لهم قراءة، فهل لأهل المغرب أن يقرؤوا عند أهل المشرق بقراءتهم، وكذلك العكس؟ مع العلم أنه قد يحصل فتنةٌ للناس عند قراءة أهل المشرق عند أهل المغرب والعكس؟

فالجواب: نمنع هذا الشيء، ونقول: أنت يا صاحب المغرب لا تقرأ بقراءتك إلا في مكانك، وكذلك صاحب المشرق، لكن ليعلموا أن هذه القراءات السبع على حرف واحد، وهي على حرف قريش، وليست على سبعة أحرف، فمن قال: إن القراءات السبع على سبعة أحرف، فقد أبعد النجعة؛ لأنها على حرف واحد، لكن اختلف القراء فيها حسب الرواية، وحسب الكتابة، وكتابة القرآن فيما سبق ليست مُشَكَّلَة ولا مُنَقَّطة.

***

التفسير

١- الواجب على المسلم في تفسير القرآن.

٢- المرجع في تفسير القرآن.

٣- الاختلاف الوارد في التفسير المأثور.

٤- ترجمة القرآن.

٥- المشتهرون بالتفسير من الصحابة.

٦- المشتهرون بالتفسير من التابعين.

التفسير

التفسير لغةً: من الفَسْر، وهو: الكشف عن المغطى.

وفي الاصطلاح: بيان معاني القرآن الكريم.

وتَعَلُّمُ التفسير واجب؛ لقوله -تعالى-: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، ولقوله -تعالى-: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤].

وجه الدلالة من الآية الأولى: أن الله تعالى بَيَّن أن الحكمة من إنزال هذا القرآن المبارك؛ أن يتدبر الناسُ آياته، ويتعظوا بما فيها.

والتدبُّر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلى معانيها، فإذا لم يكن ذلك، فاتت الحكمةُ من إنزال القرآن، وصار مجردَ ألفاظٍ لا تأثيرَ لها، ولأنه لا يمكن الاتعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه.

ووجه الدلالة من الآية الثانية: أن الله -تعالى- وبَّخ أولئك الذين لا يتدبرون القرآن، وأشار إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم، وعدم وصول الخير إليها.

الشرح

قال المؤلف: «التفسير لغةً: من الفسر، وهو: الكشف عن المغطى»؛ ومنه فَسْرُ القشر عن الثمرة حتى يتبين ما بداخل القشر.

«**وفي الاصطلاح: بيان معاني القرآن الكريم**»، وبيان معاني غيره يسمى تفسيرًا في الواقع، إذ يصحُّ أن نسميه تفسيرًا، لكن في العُّرف يسمون ما سوى القرآن شرحًا، ولهذا قَلَّ أن تجد من يقول شرح الآية الكريمة، بل يقول: تفسير، أو يقول: تفسير الحديث، بل يقول شرح، وهذه مسألة عُرْفية، وإلا فمعنى التفسير والشرح واحدٌ.

وبيان معاني القرآن واجبٌ؛ لأنَّ المقصود من إنزاله هو فهم معناه والعمل به، وإذا كنا لا نفهم المعنى صار القرآن بيننا كأنه عربيٌّ بين أعاجم، لا يُعرف معناه، ولا يُعرف المراد به، والإنسان لو أراد أن يعمل بكتاب فقهٍ من كتب الفقهاء فإنه لا بد أن يعرف معناه، ولو أُلقي إليه وهو يطلب علم الطب كتابٌ فيه الطب وأنواعه وما يتعلق به ولم يشرح له لم يستفد منه، إذن: فلا بد من أن نفهم معاني القرآن.

وهل فهم معنى القرآن صعب؟

لا، قال الله -عز وجل- وهو أصدق القائلين: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]، أي: هل من متذكر؟، و«هل» هنا للتشويق؛ لأنه لما أخبر وأكَّد أن الله -تعالى- يسَّره للذكر شوَّق إلى ادِّكاره وفهمه؛ فأنت إذا أقبلت بصدق لتفهم معنى كلام ربك -عز وجل- فإنه لا بد أن يُيَسِّر لك، إما بفتح يفتحه الله عليك، وإما بجلب عَالم يُبَيِّن لك معناه، وإما بكتب تفسير توضح لك المعنى؛ لأن الله تعالى أخبرَ وأكَّد هذا الخبر، بقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، وتعلُّم التفسير واجبٌ يأثم الإنسانُ بتركه.

وهل هو واجبٌ عينيٌّ، أو واجبٌ كفائيٌّ؟

نقول: أما ما لا يسوغ جهله فإنه واجب عيني، يجب على كل إنسان أن يعرف ما أُمر به في القرآن الكريم، فمثلًا: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فيجب أن يعرف كيفيةَ إقامة الصلاة. ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، فكذلك يجب أن يعرف كيف يزكي إذا كان عنده مال، ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، فكذلك يجب أن يعرف كيف يحج إذا كان مستطيعًا، وهلمَّ جرّا، وما زاد عن ذلك فإنه فرض كفاية يجب على المسلمين عمومًا أن يقوموا به، فإن قام به أحد يكتفي به، لكونه مأمونًا موثوقًا مرجعًا للمسلمين، في التفسير وإلا فالواجب تعلم التفسير.

ولا يمكن للمسلمين أن يَدَعوا كتاب ربهم بدون أن يفهموا معانيه؛ لقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، وصفَ اللهُ هذا القرآن بأنه مبارك، أي: مبارك من كل ناحية، وذلك من جهة تلاوته، والتعبد به، ومن جهة صلاح القلب، وصلاح العمل، وكان خُلُقُ النبيِّ ﷺ القرآنَ(١)، وهو أكمل الناس خلقًا -عليه الصلاة والسلام-، فوالله ما أبرك هذا القرآن! فلما كان المسلمون يعملون به ظاهرًا وباطنًا، سرًّا وعلنًا، عقيدةً وعملًا، خُلُقًا وأدبًا، نالوا ببركته وسادوا العالم، وجاهدوا به أعداء الله، ولما تخلَّفوا عنه نُزِعت بركة القرآن منهم، وصاروا يعظمون القرآنَ تعظيمَ طقوسٍ لا تعظيمَ عملٍ، يكتبونه على الجدران، ويكتبونه في الأحراز التي يسمونها الحُجُب، وما أشبه ذلك، يأخذ الإنسان المصحفَ ويقبله ويسجد عليه، وليس هذا من التعظيم، بل تعظيم القرآن

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٤٠٧٩).

يكون بالعمل به، تصديقًا بأخباره، وعملًا بأحكامه، وما أشبه ذلك.

قوله: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ «**اللام**» هنا للتعليل، وهو بيان الحكمة من إنزاله، وكل الآيات -سواء طالت الآية أم قصرت- يجب علينا أن نتدبرها، فمثلًا قوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وهي أطول آية في القرآن، يجب علينا أن نتدبرها، وعلينا أن نتدبر قول الله -تعالى-: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر:٢١]، وهي من أقصر الآيات، مَنِ الذي نظر؟ وهل نظر بفكره، أم نظر بعينه؟ لا بد أن نعرف هذا.

قوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: ليتعظ أولو العقول، والعقل هو اللب، ورجل بلا عقل ليس برجل في الواقع.

وقوله -تعالى-: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ «**الهمزة**» هنا للاستفهام الذي يُراد به التوبيخ.

قوله: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ «**أم**» هنا هل هي متصلة، أم منقطعة؟

نقول: الضابط إذا كانت «**أم**» بمعنى «**بل**» فهي منقطعة، وإذا كانت بمعنى «**أو**» فهي متصلة، فإذا قلت: أجاء زيد أم عمرو، فهي متصلة، وفي هذه الآية ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ أي: بل على قلوب أقفالها، فقلوبهم مقفلة عن تدبر القرآن، والأقفال: جمع قفل، وهو ما يغلق بها الأشياء.

وجه الدلالة من الآية الأولى: أن الله -تعالى- بيَّن الحكمة من إنزال هذا القرآن المبارك، وهو أن يتدبر الناس آياته، ويتعظوا بما فيها هذه هي الحكمة،

وليست الحكمة أن يتبركوا به، أو أن يتلوه تلاوة مجردة، هذه لا شك أنها منفعة، ومصلحة، ورحمة بالخلق، لكن المهم أن يتدبروه ويتعظوا به.

فلو قال قائل: كيف يكون التدبر والاتعاظ في آيات الأحكام، مثل قوله -تعالى-: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٢]؟

الجواب: أن نقول: إن الموعظة ليس معناها لين القلب، أو خشوع القلب وما أشبه ذلك، فالاتعاظ هو التزام الأحكام، ولهذا قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء:٥٨]، فَجَعَل هذه موعظة، فالتزام الأحكام اتعاظٌ لا شك، وليست الموعظة فقط ما يرقق به القلوب.

أرأيت لو أن إنسانًا أعطاك كتابًا في الطب، فهل ستنتفع بما فيه من الإرشادات الطبية دون تدبره وتفهمه؟

الجواب: لا يمكن هذا، فكذلك القرآن الكريم لا يمكن أن ينتفع به الإنسانُ تمام الانتفاع إلا بالتدبر، ثم بعد ذلك يتعظ.

ثم قال المؤلف: «يقول وجه الدلالة: أن الله بيَّن أن الحكمة من إنزاله هذا القرآن المبارك أن يتدبر الناس آياته ويتعظوا بما فيها، والتدبر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلى معانيها».

هذا هو التدبر، أنك تتأمل، وسُمِّي تدبرًا؛ لأن الإنسان يجول بعقله بين الأفكار والمعاني المحتمَلة؛ حتى يصل إلى المعنى المراد.

قوله: «فإذا لم يكن ذلك» يعني التدبر.

قوله: «فاتت الحكمة من إنزال القرآن وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها»، وهذا واضح، أن الله لم يكن لِيُنَزِّل قرآنًا يقول للناس: (اقرؤوا ألفاظه دون أن تفهموا معانيه) أبدًا.

وقوله: **«لأنه لا يمكن الاتعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه»،** وهذا صحيحٌ، ولا يمكن أن تتعظ بالقرآن وتعمل بما أراد الله منك بدون فهم لمعانيه؛ ولذلك تَبيَّن وجه الدلالة على وجوب التدبر من قوله -تعالى-: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

«ووجه الدلالة من الآية الثانية: أن الله وبخ أولئك الذين لا يتدبرون القرآن»، وذلك بمجيء الهمزة للاستفهام. والمراد به التوبيخ، وإشارة إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم، وعدم وصول الخير إليها.

* * *

وكان سلف الأمة على تلك الطريقة الواجبة، يتعلمون القرآن ألفاظه ومعانيه؛ لأنهم بذلك يتمكنون من العمل بالقرآن على مراد الله به، فإن العمل بما لا يعرف معناه غير ممكن.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي[1]: «حدثنا الذين كانوا يُقرِئُونَنا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات، لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن، والعلم، والعمل جميعًا».

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٥٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٩٥٣)، وبنحوه عند عبد الرزاق في المصنف (٦٠٢٧)، وابن أبي شيبة (٦/ ١١٧).

الشرح

هذا الأثر على ما فيه من خلاف في صحته، نقول: إنه يدُلُّ على أن من عادة السلف أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات تعلموا معناها، ثم عملوا بها، وهكذا ينبغي لنا نحن أن نتعلم المعنى، ثم نعمل حتى يكون القرآن نزل مباركًا، ليتدبر الناس آياته، ويتذكروا به.

* * *

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: «والعادة تمنع أن يقرأ قومٌ كتابًا في فنٍّ من العلم كالطب، والحساب، ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتُهم، وبه نجاتهم، وسعادتهم، وقيام دينهم، ودنياهم».

الشرح

هذا مثال من شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: العادة أن الإنسان إذا قرأ كتابًا في فنٍّ من الفنون، فإنه لا يقرؤه قراءة مجردة لفظية؛ ولو فعل لم ينتفع به، بل لا بد أن يستشرحه، أي: يطلب من يشرحه له معلمًا يعلمه المعنى، أو من التلميذ الذي فوقه أن يعلمه، وهلم جرًّا.

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٢)، وانظر شرح مقدمة التفسير لفضيلة الشيخ الشارح (ص:٢٥).

ويجب على أهل العلم أن يبينوه للناس عن طريق الكتابة، أو المشافهة، لقوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧]، وتبيين الكتاب للناس شامل لتبيين ألفاظه ومعانيه، فيكون تفسير القرآن مما أخذ الله العهد على أهل العلم ببيانه.

الشــرح

حكم التفسير أنه واجبٌ على التفصيل الذي ذكرناه، وطريقة السلف في القرآن أنهم يتعلمون ألفاظه ومعانيه ويعملون به، فإذا نزلت آياتٌ في البيع تعلموا هذه الآيات وعملوا بها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة:٩]، ولا يمكن أن يظن الظَّانُّ أن الصحابة -رضي الله عنهم- يدعون الصلاة ويُقبلون على البيع، فهم لم يعملوا بذلك مطلقًا، وهكذا بقية الآيات؛ حتى إن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- لما خطب النساء وأمرهن بالصدقة وقال: «**إِنَّكُنَّ أَكْثَرُ أَهْلِ النَّارِ**»(١)، صارت المرأة تأخذ خرصها من أذنها وخاتمها من أصبعها، وتلقيه إلى بلال -رضي الله عنه-، امتثالٌ تامٌّ، نسأل الله أن يجعلنا من المتبعين لآثارهم.

مسألة: هل يجب على أهل العلم أن يبينوا للناس معنى القرآن سواء سألوهم أم لا؟

نقول: نعم، يجب إذا سأله الناسُ بلسان الحال، أو بلسان المقال، فمثلًا: إذا سَمِع الإنسانُ أن الناسَ يُفسِّرونَ بعض الآيات على غير ما أراده الله،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، رقم (٨٠).

فالواجب عليه أن يُبَيِّن المعنى الذي أراده الله؛ لأن العوام أحيانًا يفسرون الآيات بغير ما أراده الله، بل أحيانًا يصنعون آيات من عندهم، تجده مثلًا يقول: صدق الله العظيم، وجعلنا لكل شيء سببًا، وهذا ليس موجودًا في القرآن، لكن هم يعلمون أن الأشياء بأسبابها، فالمهم أنه إذا رأى الإنسان أنه لا بد أن يبين معنى القرآن بلسان الحال، أو بلسان المقال، وجب عليه البيان، وينبغي أن يجعل للعامة مجلسًا لتفسير القرآن.

وكان شيخنا عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- يفعل ذلك، كان بين العشائين يفسر القرآن من أوله إلى آخره، لكنها قراءة عامة، يكون في المحراب، ويقرأ عليه أحد الطلاب، ويشرح معاني الآيات، فيبين ويحضر العامة ويفهمون، ولو جعل طالب العلم في مسجده الخاص درسًا في تفسير القرآن لنفع وانتفع.

***

والغرض من تعلُّم التفسير هو الوصولُ إلى الغايات الحميدة والثمرات الجليلة، وهي التصديق بأخباره والانتفاع بها، وتطبيق أحكامه على الوجه الذي أراده الله؛ ليُعْبَدَ اللهُ بها على بصيرة.

الشـرح

وهذا غرضٌ سامٍ يتحقق به قول الله -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وتصديق الأخبار هذه من غايات علم التفسير، أن تصدق الخبر وتنتفع به لا مجرد أن تفهمه فقط.

فمثلًا: إذا قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨]، فهذا خبر ينتفع به الإنسان، والانتفاع ليس مجرد أن تعلم أن الله سميع بصير، بل الانتفاع أن تخشى اللهَ، فلا تقولَ ما يسمع منك وهو مما لا يرضاه، ولا تفعل ما يبصره ويراه وهو مما لا يرضاه.

ولما قصَّ الله -عز وجل- علينا قصص الأنبياء السابقين قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]، ينتفع بها الإنسان، ينتفع بها إذا كانت وعيدًا وهلاكًا، ينتفع بها إذا كانت فوائد وحكمًا، كما في قصة ذي القرنين، وقصة أصحاب الكهف، وفي قصة يوسف وغيرها من القصص النافعة، كما قال الله -عز وجل-: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣].

وخلاصة هذا البيان: أن تفسيرَ القرآن هو بيانُ معناه، وأن تعليم التفسير واجبٌ، وأن الوجوب عينيٌّ وكفائيٌّ، وأن عادة السلف في القرآن أنهم إذا تعلموا عشرَ آيات أو نحوها، تعلموا معانيها وعملوا بها، وأنه ينبغي لخلف الأمة أن يتَّبِعوا أَثَرَ سلفهم؛ لأنه هو الخير.

***

الواجب على المسلم في تفسير القرآن

الواجب على المسلم في تفسير القرآن أن يُشْعِر نفسَه حين يُفَسِّر القرآن بأنه مترْجِمٌ عن الله تعالى، شاهدٌ عليه بما أراد من كلامه.

الشــرح

وهذه مسئولية عظيمة، فالمفسر لكلام الله -عز وجل- هو بمنزلة المترجم له؛ لأنك تقولُ للناس: (أراد الله كذا وكذا)، فاحذر أن تكذب وأن تقول: (أراد الله كذا) وهو لم يرده، فتكون كاذبًا على الله -عز وجل-، وهو كذلك شاهدٌ عليه بما أراد من كلامه؛ لأنك إذا فسَّرت كلامَ الله، فقد شهدت على ربك بأنه أراد كذا وكذا.

مثال ذلك: ذهب بعض المتأخرين إلى أن قوله -تعالى-: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ [النمل:٨٨] أن المراد بها في الدنيا، وأن هذا إشارة إلى أن الأرض تدور، فنقول: أنت الآن مترجِم، هل الترجمة مطابقة للمترجَم؟ الجواب: يجب أن تكون مطابقة، ثم ثانيًا: هل أنت الآن تشهد على الله بأنه أراد هذا المعنى الذي ذكرت أم لا؟ وسوف يُسأل الإنسان عن هذه الشهادة.

كذلك لما ظهرت الأقمار الصناعية، وظهر الوصول إلى الفضاء الخارجي، تحذلق بعض الناس وقال: هذا موجود في القرآن أن الناس يخرجون إلى الغلاف الخارجي، وذلك في قوله -تعالى-: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمن:٣٣] وهؤلاء الذين خرجوا

عن الغلاف الجوي، نفذوا من أقطار السماوات والأرض، فالآية تدل على أنه سيكون أناس على هذه السفن الفضائية، وينفذون من أقطار السموات والأرض، وهذا لا شك أنه تحريف، ونقول: أول ما بدأ الله بالسموات قبل الأرض، فهل نفذ هؤلاء من أقطار السموات؟ الجواب: لا، وحتى هم يقولون: ما نفذنا من أقطار السموات، ولو قربنا من الشمس لذُبْنا.

فعلى كل حال أقول: إن المفسر يجب عليه أن يستشعر هذا الشعور، وهو: أنه مترجم عن الله، وثانيًا: أنه شاهد على الله بأنه أراد كذا، وبهذا نعرف عظمة التفسير، وعظم القول به.

* * *

فيكون معظِّمًا لهذه الشهادة، خائفًا من أن يقول على الله بلا علم، فيقع فيما حرم الله، فيُخْزَى بذلك يوم القيامة، قال الله -تعالى-: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣]، وقال -تعالى-: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر:٦٠].

الشــرح

إذن: الذي يفسِّر القرآنَ بغير ما أراد الله كاذبًا على الله، تكون وجوههم -بلا شك- ممن قال الله فيهم: ﴿مُّسْوَدَّةٌ﴾ فالتفسير خطيرٌ، لكن مع ذلك هو مع النية الصادقة يسير، وييسره الله ويسهله ويوفق الإنسان للصواب فيه.

فإن قال قائل: وهل يـجوز لي أن أفسره بما تقتضيه اللغة؛ لأنه بلسان عربي؟

الجواب: إذا كنتَ تعلم ذلك فلا بأس، أما إذا كنت لا تعلم فاتركه لغيرك لمن يعلم.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ، يعني: ما حَرَّم إلا هذا.

وقوله: ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وهي جمع فاحشة، والفاحشة: هي كل ما يستفحش شرعًا أو عقلًا، ولا يجوز أن نقول: عادة؛ لأن بعضَ الفواحش العظيمة لا يستفحش عنها بلد، بل تقام فيه الحفلات والرقص وما أشبه ذلك. بل في بعض البلاد يترددون إلى القبور ويدعون أصحابها ولا يرون هذا فاحشة، بل يرون هذا قربة ووسيلة، فهل نقول أصبح التردد إلى القبور لدعائها غير حرام؟ لا، بلا شك.

فإن قال قائل: إننا نسمع كثيرًا من يقول: إن العقل والشرع متلازمان، فهل هذا صحيح؟

الجواب: نعم، هما متلازمان ولا يمكن أن يكون الشيء فاحشًا في الشرع إلا وهو فاحش في العقل، وقد يستفحش العقلُ شيئًا لا يستفحشه الشرع، لكن الغالب أنهما متلازمان.

وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ نقول: لها معنيان:

المعنى الأول: ما ظهر منها للناس، وما بطن، أي: ما خفي عليهم.

المعنى الثاني: ما ظهر فحشه، وما بطن أي: ما خفي؛ لأن من الفواحش ما هو ظاهر، ومنها ما هو خفي.

وقوله: ﴿وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ «الإثم» كلُّ ما يأثم الإنسانُ به داخل في الآية، و﴿وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: العدوان على الناس بغير حق، فإن قال قائل: وهل هناك بغي بحق؟ الجواب: لا، لكن قوله: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ هذه صفة كاشفة مبينة لكون البغي غيرَ حقٍّ، ونظير هذا قوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة:٢١]، وهل معنى هذا أنه يوجد ربٌّ لم يخلق؟ الجواب: لا، إذنْ هي صفة كاشفة.

وقوله: ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ [الأعراف:٣٣] أي: تشركوا بالله في ذاته، وفي ربوبيته، وفي ألوهيته، وفي أسمائه وصفاته، فمثلًا: الممثلة أشركوا في الأسماء والصفات، وعابدو الأوثان أشركوا في الألوهية، والقائلون بأن هناك ربًّا مدبرًا أشركوا في الربوبية.

وقوله: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾، هل معنى هذا أن هناك شركًا فيه سلطان؟ الجواب: لا، ولكن هذه صفة كاشفة مبينة؛ لأنه ما من شرك إلا وليس فيه سلطان.

وقوله: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣] أي: أن تقولوا على الله ما لا تعلمون، وسواء كان ذلك في تفسير كلامه، أو في إثبات أحكامه، أو نفيها، أو غير ذلك، وكل من قال على الله بغير علم فهو داخل في هذه الآية فمثلًا لو قلت عن شيء: أنه واجب، وأنت لا تعلم أن الله أوجبه فحرام

عليك، ولو قلت: أظن أن هذا حرامٌ أيجوز أو لا يجوز؟ **الجواب**: يجوز؛ لأن الله -عز وجل- قال: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فإن قال قائل: إن الله -سبحانه وتعالى- لا يُوصف بالإتيان والنزول وما أشبه ذلك، فهل قال على الله ما لا يعلم؟

الجواب: نعم، لو قال يجب على الله كذا، ويمتنع عليه كذا، بدون علم فقد قال على الله ما لا يعلم، حتى في المسائل الفقهية، تقول: (إن الله حرم كذا) بغير علم؛ ولهذا كان من ورع الإمام أحمد-رحمه الله-أنه لا يقول عن شيء إنه حرام إلا ما جاء به النص بالتحريم وإلا فهو يقول: لا ينبغي، أكرهه، لا يعجبني، وما أشبه ذلك[1]؛ إلا ما نص الله عليه كالميتة والدم، والأم والبنت، وما أشبه ذلك.

مسألة: وهل هذه الآية من باب الترقي، أو من باب ذكر الأعلى فالأعلى؟

الجواب: الأول، يعني: أن أشد شيء أن يقول على الله ما لا يعلم.

فإن قال قائل: كيف يكون هذا أشد من الشرك؟

فالجواب: لأنه لو قال على الله بلا علم لم يقتصر إفسادُه على نفسه، بل على غيره؛ لأنه بذلك أبطل الشيء، وأحل محلها شيئًا آخر؛ ولأنه إذا قال: (إن هذا يجب) وهو ليس بواجب في الشرع، معناه أنه رفع الحِلّ وجعل محله الإيجاب، لكن المشرك يضر نفسه، وإذا اهتدى زالت المفسدة بالكلية، لكن الذي يقول على الله بلا علم، لو اهتدى ورجع، وصار لا يقول إلا عن علم،

---

(١) انظر إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٤٠).

فإن إفساده الأول لا يزال باقيًا، فلهذا صار القول على الله بلا علم أشدَّ من الإشراك بالله -عز وجل-، وهذا -والله- معنىً لا نعقله أكثرَ من أن نغفل عنه، فإن أكثر من يُستفتى تجده يقول: هذا حرام، وهذا حلال، وكأنه أكبر إمام في الدنيا، وهذا خطر عظيم.

فلا يستعجل الإنسان السيادة، لكن نقول: إذا كنت تريد أن تسود الناس بالعلم فانتظر حتى ييسر الله لك علمًا راسخًا، أما أن تجلس بين العوام وتفتيهم، فنقول لك: اصبر؛ لأن العوام لو جلس عندهم إنسان فصيح اللسان أضلهم ولاغتروا به، وهذا لا ينافي قوله ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»(١)، لكن مع هذا نقول: انتظر؛ لأن الأمر خطيرٌ؛ فلذلك صار خطرُ الذي يقول على الله ما لا يعلم أعظم من خطر الشرك.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١).

المرجع في تفسير القرآن

يُرجع في تفسير القرآن إلى ما يأتي:

أ- كلام الله -تعالى-: فيفسر القرآن بالقرآن، لأن الله تعالى هو الذي أنزله، وهو أعلم بما أراد به.

ولذلك أمثلة، منها:

١- قوله -تعالى-: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، فقد فسر أولياء الله بقوله في الآية التي تليها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣].

الشـــرح

إذن: لا أَحْسَنَ من هذا التفسير، لو أراد أحدٌ أن يفسِّر ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ لرددناه عليه؛ لأن الذي أنزل القرآن قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، وقد أخذ شيخُ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- من هذه العبارة اللطيفة فقال: «من كان مؤمنًا تقيًّا كان لله وليًّا»، وهذا من القرآن: لا شك. وإذا ادَّعى مُدَّع، وقال: (أنا وليٌّ لله)، بهذا اللفظ، قلنا: القرآن يكذبك؛ لقوله -تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، ويقول -تعالى-: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾، وأنت الآن زَكَّيْتَ نفسك فلم تتَّقِ الله فلست بوليٍّ.

وإذا قال أنه من أولياء الله وأنه يحل له أن يتزوج خمسين امرأة، وأن يأخذ ما صفا له من أموال الناس.

قلنا: أنت الآن من أعداء الله، أين الإيمان والتقوى الذي به تستحق أن تكون لله وليًّا؟

وسمعتُ أنه يوجد في بعض البلاد من يفعل هذا، يدَّعي أنه وليٌّ لله، وأن له أن يتزوج خمسين امرأة، وسمعت بعضَهم يقول: لا حدَّ له، يأخذ من النساء ما شاء، ويتخير ما شاء.

ولكن هؤلاء الذين أشار إليهم شيخ الإسلام -رحمه الله- بأنهم قومٌ من الصوفية، يقولون إن هذه العبادات من صلاة وصيام وحج يؤمر بها العامة فهي وسيلة حتى يصلوا إلى الغاية، فإذا وصلوا إلى الغاية سقطت. كالإنسان المسافر يشدُّ الرحلَ ويدني البعيرَ، ويحمل الزادَ، فإذا وصل باعَ البعير وكلَّ شيء.

ذُكِرَ أن عبد القادر الجيلاني -رحمه الله- رأى في المنام نورًا عظيمًا، وسمع منه صوتًا يقول: (يا عبد القادر، وصلتَ إلى الغاية، فلا صلاة عليك). ولو أن هذه الرؤيا -وهي حلم من الشيطان- صارت لهؤلاء المدَّعين لطار بها فرحًا، فقال له عبد القادر: «كذبت، ولكنك شيطان»[1]، يقول: فتمزق النور مباشرةً فتبين أن هذا النور من تخييلات الشيطان، فالمهم أن الله تعالى فسر أولياء الله في الآية بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

وقوله: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: لا خوف عليهم فيما يستقبل، ولا يحزنون فيما مضى؛ لأنه قد فات ما مضى بالإيمان والتقوى، والحزن إنما يكون على فوات المحبوب، أما هؤلاء فقد عمروا أوقاتهم بالإيمان والتقوى.

---

(١) شرح المواهب اللدنية (٥/ ٢٩٨)، والموافقات (٢/ ٢٧٥-٢٧٦).

٢- قوله -تعالى-: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ [الطارق:٢]، **فقد فسر الطارق بقوله في الآية الثانية:** ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق:٣].

الشرح

قوله: ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾ هل الواو للقسم أم هي عاطفة؟

الجواب: الأحسن كونها للقسم من كونها عاطفة؛ لأنها إذا كانت عاطفة صار ما بعدها تابعًا لما قبلها، وإذا كانت قسمًا صار ما بعدها مستقلًا.

وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ وهل الطارق هو المسافر الذي يطرق ليلًا؟

الجواب: لا شك أن الطارق هو المسافر الذي يطرق ليلًا، لكن فسرت الآية الطارق بقوله -تعالى-: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ أي الثاقب للظلام بنوره، ولهذا لو أنك في الصحراء وليس حولك إضاءة من الكهرباء لوجدت ظلك في ضوء بعض النجوم الثاقب، أيضًا الثاقب للشياطين الذين يسترقون السمع، كما في قوله تبارك و-تعالى-: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾، ففسر الله -عز وجل- الطارق بأنه النجم الثاقب.

فلو قال قائل: الطارق هو الذي يطرق أهلَه ليلًا فيأتي من السفر بالليل، قلنا له: كذبت، إن الله تعالى قال: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾.

* * *

٣- قوله -تعالى-: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات:٣٠]، **فقدْ فسَّر دحاها بقوله في الآيتين بعدها:** ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ [النازعات:٣١]، ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٢].

الشــرح

قوله -تعالى-: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ هذه الآية مشكلة، إن الله -سبحانه وتعالى- ذكر في سورة فصلت أن الله خلق السموات بعد الأرض، كما قال -عز وجل-: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ [فصلت:٩-١١]، وقال الله -عز وجل-: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات:٢٧-٢٨].

وانظر إلى تلاوة هذه الآيات: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ فنصل أو نقف ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ ثم نقول: ﴿بَنَىٰهَا﴾ ؟

الجواب: نقف، لأنك لو وصلت استلب المعنى فتقول: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ ثم فصل فقال: ﴿بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ بين -سبحانه وتعالى- الدحو بقوله: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [النازعات:٣١-٣٣]، فهذا من تفسير كلام الله بعضه ببعض.

وهذه قاعدة: أننا إذا وجدنا تفسير القرآن بالقرآن فإننا لا نعدل به شيئًا، وذلك لأن الله -عز وجل- هو الذي فسره، وهو الذي أنزله، وهو أعلم بما أراد.

ب- كلام رسول الله ﷺ، فيفسر القرآن بالسنة، لأن رسول الله ﷺ مُبلغ عن الله تعالى، فهو أعلم الناس بمراد الله تعالى بكلامه.

الشـرح

أي: نرجع في تفسير القرآن إلى كلام الرسول -عليه الصلاة والسلام-؛ لأنه لا شك أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- أعلم الخلق بكلام الله، ولا منازعة في ذلك فإذا جاءت السنة تفسر القرآن وجب الرجوع إليها.

ولكني أقول: قد يكون تفسير السنة للآية ذكر بعض أنواع ما يدخل في الآية، لا أن المراد تفسير كل المعنى، وهذه كما تأتي في السُّنَّة تأتي أيضًا في كلام الصحابة، قد يفسرون الشيء ببعض أنواعه.

***

ولذلك أمثلة منها:

١- قوله -تعالى-: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فقد فسَّر النبي ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى، فيما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم صريحًا من حديث أبي موسى(١) وأُبي بن كعب(٢). ورواه ابن جرير من حديث كعب بن عجرة(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٩٤٥، رقم ١٠٣٤١)؛ واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد، المجلد الثاني (٣/ ٤٥٨-٤٥٩، رقم ٧٨٥).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ٦٩، رقم ١٧٦٣٣)؛ واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد، المجلد الثاني (٣-٤٥٦).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ٦٧، رقم ١٧٦٣١)؛ واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد، المجلد الثاني (٣/ ٤٥٦-٤٥٧).

وفي صحيح مسلم[١] عن صهيب بن سنان عن النبي ﷺ في حديث قال فيه: «فيُكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم -عز وجل-»، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

الشـــرح

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مبتدأ مؤخر، و﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ خبر مقدم.

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي: الجنة، يعني الدار الحسنى، ولا شك أن الجنة -جعلنا الله وإياكم من أهلها- أحسن الدور، وقد فسَّر النبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- الزيادةَ بالنظر إلى وجه الله تعالى.

فهل نقول: إن المرادَ بالزيادة زيادة النعيم، كزيادة الأكل والشرب، وما أشبه ذلك؟

الجواب: لا، الزيادة فوق ذلك، وهي النظر إلى وجه الله، الذي هو أحب شيء إلى أهل الجنة، وفيما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم صريحًا من حديث أبي موسى وأبي بن كعب ورواه ابن جرير من حديث كعب بن عجرة ثلاثة صحابة، كلهم رووا عن النبي ﷺ أن المراد بالزيادة النظر إلى وجه الله.

ثم إن المؤلف أتى بشاهد في صحيح مسلم عن صهيب بن سنان عن النبي ﷺ في حديث قال فيه: «فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ»، يعني الرب -عز وجل- وحجابُ الربِّ النورُ، كما أخبر بذلك النبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم[٢].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم -سبحانه وتعالى-، رقم (١٨١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله -عليه السلام-: «إن الله لا ينام...»، رقم (١٧٩).

يقول: «فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى وجه ربهم -عز وجل-»، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، والنبي ﷺ تلا هذه الآية بعد قوله إنه يكشف الحجاب، يدل على أن المراد بالزيادة النظر إلى وجه الله.

وعلى هذا فيكون ما في صحيح مسلم مؤيِّدًا لما رواه ابن جرير وغيره، فالزيادة إِذنْ هي النظر إلى وجه الله.

* * *

٢- قوله -تعالى-: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، فقد فسر النبي ﷺ القوة بالرمي. رواه مسلم(١)، وغيره من حديث عقبة بن عامر -رضي الله عنه-.

الشـرح

الضمير في: ﴿لَهُم﴾ يعود إلى الكفار، وفي قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ يعود للمؤمنين، فقد فسَّر النبي ﷺ القوة بالرمي، رواه مسلم وغيره من حديث عقبة بن عامر -رضي الله عنه- قال: «**أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**»، وصدق رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- هناك سلاحان:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، رقم (١٩١٧)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنفال، رقم (٣٠٨٣)، وفي سند الترمذي مبهم، وأخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الرمي، رقم (٢٥١٤)، وابن ماجه: كتاب الجهاد، باب الرمي في سبيل الله، رقم (٢٨١٣).

أولًا: ما يعرف بالسِّلاح الأبيض؛ وهو السكاكين والخناجر والسيف وعصا الحديد، وما أشبه ذلك، وهذا قوة لا شك.

والثاني: الرمي؛ وهو أقوى؛ لأنَّ الرمي يقتل الإنسانُ به عدوَّه من بعيد، فهو بلا شك أقوى، ولهذا كان الرمي أبلغ من الملاقاة باليد؛ لأن الرامي يكون في الغالب سالمًا، إذ هو يرسل السهم على عدوه.

وهل الرمي يختلف من زمن لآخر؟

الجواب: نعم، ففي عهد الرسول -عليه الصلاة والسلام- كان الرمي بالنبال وما أشبهها، ثم جاء عصرٌ آخر كان الرمي فيه بالبندقية، ثم صار في عصرنا الحالي بالصواريخ عابرة القارات، وكل هذا يدخل في الرمي؛ فكلام النبي -عليه الصلاة والسلام- عامٌّ، ويكون الرمي في كل وقتٍ بحسبه.

وتفسيره ﷺ بأن القوة: الرمي، أراد أن يبين القوةَ الأكمل، وأن الرمي أكملُ من السلاح الأبيض، كما يقولون، فالقوة هي الرمي، ومن ثَمَّ أجاز الشرعُ المسابقةَ بالرمي بعوض، لما في ذلك من تعلُّم الرمي والاستعانة به على الجهاد في سبيل الله.

***

ج- كلام الصحابة -رضي الله عنهم-، لا سيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير.

الشـرح

وهنا تنبيه، وذلك أنا قيدنا الصحابة بقيد، وهو قولنا: «لا سيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير»؛ لأن الصحابة -رضي الله عنهم- فيهم من هو قليل العلم، ومن هو متوسط العلم، وفيهم من فضل أقرانه، ومنهم من اعتنى بالفقه، ومنهم من اعتنى بالتفسير، لكنَّ ذوي العلم المعتنين بالتفسير هم أعلمُ الناس بتفسير كلام الله -عز وجل- فيرجع إليهم.

***

لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم، ولأنهم بعد الأنبياء أصدقُ الناس في طلب الحق.

الشـرح

ولهذا كان الرسول -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- يخطب الناسَ يوم الجمعة بسورة: (ق)[1]، أما الآن فلو خطبت الناس بسورة: (ق) لم تكفِ؛ لأنهم لن ينتفعوا بها، غاية ما في ذلك أن الآيات التي فيها ترقيق للقلوب قد يبكون منها، لكن لا يستفيدون تلك الفائدةَ التي كان يستفيدها الصحابة في عهد الرسول -عليه الصلاة والسلام- إذا قَرأ عليهم: (ق)، كأنما يكون هذا الأمر في عهدهم بخطبة الكلام العاديِّ؛ لأنهم يعرفون المعنى تمامًا فالقرآن

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٧٢).

نزل بلغتهم، وكذلك نزل في عصرهم، فيعرفون القرائن التي يُراد بها المعنى، يقول الله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨]، لو قُرِئَ على إنسانٍ هكذا لقال: هذا يدل على أن السعي جائز وليس بحرام، لقوله -تعالى-: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ لكن الصحابة -رضي الله عنهم- يعرفون أن السبب في ذلك أن الناس كانوا يتحرَّجون من الطواف بينهما فنزلت الآية.

إذن: فكانَ لنزول القرآن في عصرهم أثرٌ في معرفة المراد؛ ولأنهم بعد الأنبياء أصدقُ الناس في طلب الحق، ولو سألك سائلٌ: مَنْ أصدق الناس في طلب الحق بعد الأنبياء؟ لقلت: الصحابة ولا شك، ولهذا كان يرجع الواحد منهم ولو كان أكبر واحد في المجتمع إلى قول امرأة أو إلى قول صبي.

وكان أناس من الأنصار يلومون أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- على كونه يأذن لعبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- وهو صغير أن يحضر مجالسَ الكبار، ويقولون له: لماذا تأتي بابن عباس، ولا تأتي بأبنائنا؟ فجمعهم ذات يوم وقال لهم: ما تقولون في قول الله -تعالى-: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [سورة النصر]، قالوا: إن الله أمر نبيَّه إذا جاء النصر والفتح أن يسبح بحمده ويستغفره، كلهم قالوا هكذا عدا ابن عباس، فقال عمر: ما تقول يا ابن عباس؟ قال: أقول هذا نعي رسول الله ﷺ، يعني الإشعار بقرب أجله. فقال عمر: «**والله ما فهمتُ منها إلا ما فهمت**»[1]، رجع

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦٢٧).

إلى قول ابن عباس مع أنه كان قدْ وافقه من قبلُ.

فأقول إن الصحابة هم أشدُّ الناس قبولًا للحق، وإن كان من صغير، ولأن الصحابةَ هم أسلمُ الأمة من الأهواء -رضي الله عنهم-، وهم أصدق الناس في طلب الحق؛ لأن مَنْ بعدهم قد يبحثون عما يؤيد قولهم لا ما يؤيد الحق، وهذا كثيرٌ في أهل الأهواء وأهل البدع، تجدهم يتبعون المتشابه ليضلوا الناس بغير علم، والصحابة -رضي الله عنهم- أطهر الناس من المخالفات التي تحول بين المرء وبين التوفيق إلى الصواب.

* * *

وأسلمهم من الأهواء، وأطهرهم من المخالفة التي تحول بين المرء وبين التوفيق للصواب.

الشرح

وهنا ثلاث علل:

العلة الأولى: أن الصحابةَ أصدقُ الناس في طلب الحق، وهذا بلا منازعة، فنُشْهِدُ اللهَ تعالى على ذلك، أن أصدقَ النَّاس في طلب الحق هم الصحابة.

ثانيًا: أسلمهم من الأهواء، فإنه بعد الصحابة انتشرت الأمة، وافترقت، وكثرت الأهواء، أما في عهد الصحابة فهذا قليل إن لم نقل معدوم.

ثالثًا: أطهرهم من المخالفات التي تحول بين المرء والتوفيق للصواب؛ لأن مخالفات أمر الله ومعصيته تحول بين المرء وبين التوفيق إلى الصواب، وكم حُرِم الإنسان من الوصول إلى الصواب بمعصيةٍ فعلها! كم حُرِم من

النصر بمعصية فعلها! فالمعاصي تحول بين الإنسان وبين التوفيق -أعاذنا الله وإياكم من شرورها-.

واقرأ قول الله -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧] منطوق الآية أن من اهتدى بما أنزل الله زاده الله هدىً، ومفهومها أن من لم يهتد لم يزده الله، بل ينقصه، واقرأ كذلك قوله -تعالى-: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة:١٣]، لا تلين للحق، فهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.

وقال الله -تعالى-: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء:١٠٥-١٠٦]، قال بعض أهل العلم إذا نزلَتْ بك نازلة فقدم بين يدي حلها الاستغفار؛ لأن المعاصي تحول بين الإنسان وبين الحق والتوفيق للصواب، اللهم اغفر لنا، ويدل لهذا أيضًا قوله -تعالى-: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٣-١٤]، فهذا الرجل لم تصل حلاوةُ القرآن إلى قلبه، بل قال هذا أساطير الأولين، بَيَّن الله -عز وجل- السبب فقال: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فلم يقدروا القرآن حق قدره، فأطهرُ الناس من المخالفات التي تحول بين المرء والتوفيق إلى الصواب هم الصحابة.

إِذنْ: لا شك أنهم أعلم الخلق بتفسير كلام الله بعد النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، لا سيما فيما يتعلق بالأحكام، أما ما يتعلق بالعلوم الفلكية أو الأرضية، فقد يكون مَنْ بعدهم عنده علم كثير؛ لأنهم أوتوا من وسائل

الوصول إلى هذه المعلومات ما لم يؤتَ الصحابة -رضي الله عنهم-، لكن ما يتعلق بالفقه في الدِّين والعقيدة، لا شك أن الصحابة هم أعلم الخلق.

***

ولذلك أمثلة كثيرة جدًا منها:

١- قوله -تعالى-: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء:٤٣]، **فقد صح عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أنه فسر الملامسة بالجماع**[1].

الشـرح

وهذه الآية لما ذكر الله تعالى وُجوبَ الطهارة بالماء، قال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ يعني: فلا تستطيعون الطهارة بالماء، ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ فليس عندكم ماء، ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ ﴿أَوْ﴾ هنا بمعنى الواو، يعني: وجاء أحدكم من الغائط، ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

فإن قال قائل: هل ﴿أَوْ﴾ تأتي بمعنى الواو؟

فالجواب: نعم تأتي بمعنى الواو، وقد جاء ذلك في حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- في قوله ﷺ: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**»[2]، فقوله: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي**

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١/ ١٣٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ١٩٢).
(٢) أخرجه أحمد برقم (٣٧٠٤).

كِتَابِكَ» «أو» هنا بمعنى الواو، ولا بد؛ لأن «أو أنزلْتَ» ليست قسيمةً لما سمَّى به نفسه، بل هو ما سمَّى به نفسه، وعلى هذا فتكون «أو» بمعنى الواو.

إذنْ: قوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ فـ﴿أَوْ﴾ هنا بمعنى: الواو، يعني: وجاء أحد منكم من الغائط، وهذا إشارة إلى موجب الوضوء.

وقوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ ﴿أَوْ﴾ هنا للتقسيم فتكون إشارة إلى موجب الغسل؛ لأنه لو كان المراد اللمس باليد، لصارت الآية مكررة لموجبين، ومغفلةً لموجب آخر، وهذا خلاف البلاغة، مع أن الآية ذكرت الطهارة من النوعين من الوضوء ومن الغسل؛ حيث قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ [المائدة:٦] وذكرت التطهُّرَ بنوعين أيضًا، وهو التطهر بالماء والتراب، وهذه بلاغة عظيمة.

وكيف ذكرت الآيةُ نوعين مما يتطهر به، ونوعين مما يتطهر منه، ونوعين في كيفية الطهارة؟

فأما النوعان في كيفية الطهارة: فالوضوء والغسل، والنوعان فيما يتطهر به: الماء والتراب، والنوعان فيما يتطهر منه: موجب الحدث الأصغر، وموجب الحدث الأكبر.

وبهذا يتبيَّنُ كمال فقه ابن عباس -رضي الله عنه- أن المراد بـ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾ أي: جامعتم، فهنا لو أن أحدًا من الناس قال: ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾ يعني باليد، يفسرها قوله تعالى في نفس الآية قراءة سبعية ﴿أو لمستم النساء﴾، قلنا: كلامُ الله يفسر بعضُه بعضًا، فإن «لمستم» و«لامستم» معناهما واحد، لكن لما كان

الجماع قد يحصل به التلذُّذُ من جانب واحد، ومن الجانبين، جاءت المفاعلة «**لامستم**».

وقد يكون من جانب واحد، فقد تكون المرأة لا تريد الجماع لسبب من الأسباب، فيتردد الرجل، ولا تتردد المرأة، وحينئذٍ يصدق قوله: ﴿أَوۡ لَـٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

وعلى هذا فتكون الآية معناها الجماع على كل تقدير، فلا نعدل إلى غيره.

والعجيب أن العلماء في هذه المسألة اختلفوا في لمس النساء من المتوضئ، فانقسموا إلى ثلاثة أقسام:

قسم يقول: بمجرد ما يلمسها ينتقض وضوؤه، حتى لو أن الرجل قدم من سفر وهو متوضئ، فلاقته ابنته وقالت: مرحبًا بأبي فصافحها، قلنا: يجب عليك أن تتوضأ -سبحان الله-!.

وآخر يقول: لا يجب الوضوء مطلقًا من مس المرأة ولو بشهوة.

والثالث يقول: إن مسها لشهوة وجب الوضوء، وإلا فلا.

والصحيح: أنه لا يجب ولو لشهوة، لكن إن حدث منه حدثٌ بمنيٍّ أو نحوه، وجب عليه بما يقتضيه ذلك الحدثُ، أما مجرد التشهي، فإنه لا يوجب الوضوءَ، ولهذا قال بعضُهم في هذا وفي باب القبلة للصائم: «**لا أُبالي أقبَّلْتُ امرأتي أم شممتُ ريحانًا**»(١)، والجامع بينهما التلذذ، فالإنسان حتى إذا شم ريحانة يتلذذ وينشط، فلا نقول: يجب عليك الوضوء، فكذلك إذا مسَّ المرأة

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١/ ٥٠٥).

وتلذذ بها فلا يجب عليه الوضوء، ولا يفسد به الصوم، وهذا هو الصحيحُ في هذه المسألة.

***

د- كلام التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة -رضي الله عنهم-، لأن التابعين خير الناس بعد الصحابة، وأسلم من الأهواء ممن بعدهم.

الشـرح

والدليل على هذا: قول الرسول -عليه الصلاة والسلام- «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»(١)، فهم خيرُ النَّاس بعد الصحابة -رضي الله عنهم-، والمراد الجنس؛ لأن التابعين -رضي الله عنهم- جنسهم أفضلُ بعد الصحابة، لكن قد يُوجد في التابعين مَنْ هو خيرٌ من بعض الصحابة في العلم والدين، لا في الصحبة؛ لأن الصحبةَ لا يُمكن أن يُساوِيَهم أحدٌ بها.

وقوله: «**وأسلم من الأهواء ممن بعدهم**» وهذا صحيحٌ، أنهم أسلم الناس من الأهواء ممن بعدهم، لا ممن قبلهم، وهذا -أيضًا- لا شك فيه، ولهذا تجد كلامَ بعض التابعين يكادُ يكون مثلَ كلامِ الصحابة، حتى إنك أحيانًا لا تميز بين الأثر التابعي، والأثر الصحابي.

***

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جوز، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة -رضي الله عنهم- ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣).

ولم تكن اللغة العربية تغيَّرتْ كثيرًا في عصرهم، فكانوا أقرب إلى الصواب في فهم القرآن ممن بعدهم.

الشرح

وهذا -أيضًا- مميز ومُوجِبُ الرجوع إلى تفسيرهم، وهو أن اللغة العربية لم تكن تغيرت كثيرًا.

ولكن حصل التغيُّر لما فتح المسلمون البلاد، وامتزجوا بأهلها، أخذوا منهم كلمات، كما أن أهل البلاد الأخرى أخذوا كلمات، بل أخذوا لغة بجملتها وليس كلمات فقط، فصاحب القاموس أعجمي، لكن اعتنوا عناية كاملة باللغة العربية، وكذلك سيبويه إمام أهل النحو أعجمي، وما أكثر الأعاجم الذين حققوا من اللغة العربية ما لم يحققه علماء العربية، لكن تأخر الزمان وبدأنا نحن في تغيير اللسان وفساد اللغة، فأصبحنا نشتاق إلى أخذ لغة الغير، والرجل إذا تكلم باللغة الأجنبية رأى أنه قد شمخ على قومه وارتفع عليهم، وفخر عليهم بذلك، والحقيقة أنه لم يفخر بما هو خير، ولكنهم كما قال الله فيهم: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [غافر:٨٣].

وكذلك نجد في الأسواق مع الأسف أنه يكتب على اللافتات على المتاجر باللغة الإنجليزية، وليس فيه لغة عربية، كأنك تتجول في أسواق بلاد غير عربية فكأن الناس -نسأل الله العافية- طُمِس على قلوبهم، وكان عمر -رضي الله عنه- «**يضرب الناس إذا تكلموا برطانة الأعاجم**»(١).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٢٩٩، رقم ٢٦٢٨١)، والبيهقي في سننه الكبرى (٩/ ٢٣٤،

ومن أعظم فخر الأمم أن يتكلم الناس بلغتهم، يعني: الأمة التي تتكلم باللغة العربية أو غير عربية تفخر أن الناس يتكلمون بلغتها؛ لأنها تشعر بأنهم تابعون لها، وأنهم أذناب لها، حتى رأينا من يُعلِّم أبناءه الصغار أن يتكلموا باللغة الأعجمية، بدل أن يقول: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، كذلك أيضًا في التليفون، فعامة الناس إذا رفع السماعة قال لفظة: «**ألو**» وترك السلامَ الذي هو من السنة، وهي أفضل بكثير من لفظة: «**ألو**».

وبعض الناس عكس القضية، فصار إذا رفع السماعة قال: (السلام عليكم)، فيسلم مع أنه هو الموروودُ عليه، مع أن السلام يكون على المتصل فهو الذي يسلم؛ لأنه هو الوارد.

وكلمة «**تليفون**» الظاهر أنها معربة، والمعرب موجود حتى في القرآن الكريم، لكن مع ذلك فإن اسم «**الهاتف**» خير من التلفون، ولو أن الإنسان تكلم وقال: التلفون، فلا أرى في ذلك بأسًا؛ لأنها كلمة واحدة معربة، وليست جملة مركبة، والأمر الذي يُخشى منه أن تكون كلمات مركبة وجملًا مفيدة، أما مجرد كلمة عربها الناس وأخضعوها للعربية، فهذا لا بأس به.

وفي القرآن كلمات معربة، والنبي -عليه الصلاة والسلام- تكلم، لكن أحيانًا يتكلم باللغة غير العربية، كما قال لأم خالد حين قدمت من الحبشة ولبست ثوبًا جديدًا قال: «**سَنَهْ سَنَهْ**»[1]، يعني: حسن حسن، لأنها جاءت من

رقم ١٨٦٤٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٤١١، رقم ١٦٠٩).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من تكلم بالفارسية والرطانة، رقم (٣٠٧١).

الحبشة، وقد أخذت كلمات فخاطبها بما تفهم.

وأما الذي يجيد اللغة العربية، ويتكلم بغير اللغة العربية، فإذا كان لتفهيم الحاضرين بحيث لا يفهمون هذا فلا بأس، فقد يتكلم أحيانًا باللغة العربية عند بعض الناس ولا يفهمون، والمقصود تفهيم الكلام.

* * *

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: «إذا أجمعوا -يعني التابعين- على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قولُ بعضِهم حجةً على بعضٍ، ولا على مَن بعدهم، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السُنَّة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك».

وقال أيضًا: «من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك، كان مخطئًا في ذلك، بل مبتدعًا، وإن كان مجتهدًا مغفورًا له خطؤه»، ثم قال: «فمَنْ خالف قولهم وفسَّر القرآنَ بخلاف تفسيرهم، فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعًا».

الشرح

الرابع فيما يرجع إليه في تفسير القرآن: أقوال التابعين، ولا سيما الذين أخذوا التفسير عن الصحابة، واعتنوا به، كمجاهد بن جبر وغيره.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٥) بتصرف، وانظر شرح مقدمة التفسير لفضيلة الشيخ الشارح (ص:٦٨)، وما بعدها.

قال: شيخ الإسلام -رحمه الله- قال: إذا أجمع التابعون على تفسير الآية، فلا يرتاب أحد أنه حجة، وإذا اختلفوا فليس قولُ أحدهم حجةً على الآخر، ولا حجةً على من بعدهم لعدم الإجماع، ولكن ينظر إلى ما يرجحه الدليل، فإلى أي شيء يرجع.

وقوله: «**يرجع إلى لغة القرآن، أو السُنَّة، أو عموم لغة العرب، وأقوال الصحابة**» يعني: إذا اختلف التابعون على قولين، فإنه ليس قولُ أحدهما حجةً على الآخر، ولا على من بعدهم، بل لا بد من الترجيح، والترجيح يكون بأربعة أشياء وهي: لغة القرآن وهي الحقيقة الشرعية، أو السُنَّة كذلك، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة، والظاهر -والله أعلم- أن عموم لغة العرب مع أقوال الصحابة ليست على الترتيب الذي ذكره -رحمه الله-، فإن أقوال الصحابة مُقَدَّمَةٌ على مقتضى اللغة العربية، وقال أيضًا: مَنْ عَدَل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك، كان مخطئًا في ذلك، بل مبتدعًا، وأخطأ في الدليل والمدلول جميعًا.

***

هـ- ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللغوية حسب السياق، لقوله -تعالى-: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥]، **وقوله:** ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣]، **وقوله:** ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

فإن اختلف المعنى الشرعيُّ واللغويُّ، أُخذ بما يقتضيه الشرعي، لأن

القرآن نزل لبيان الشرع، لا لبيان اللغة، إلا أن يكون هناك دليلٌ يترجح به المعنى اللغويُّ فيُؤخذ به.

الشرح

وهذا القسم الأخير، وهو تفسيرُ القرآن بمقتضى اللغة العربية؛ لأن القرآن نَزَل باللغة العربية، فإذا لم يكن هناك عُرْف شرعيٌّ يخالف مقتضى اللغة أخذنا باللغة، لقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، قال بعضُ أهل العلم: إذا نزلتْ بك نازلةٌ فقدِّمْ بين يدي حلِّها الاستغفارَ؛ لأنَّ المعاصيَ تحُولُ بين الإنسان والحق والتوفيق للصواب.

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ بمعنى: صيرناه، ولهذا نقول: «**الهاء**» مفعول أول، و﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ مفعول ثانٍ، وليس كما قالت الجهمية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ بمعنى: خلقناه، فإنه على رأيهم نجعل «**الهاء**» مفعول به، و﴿عَرَبِيًّا﴾ حال، لكن هذا خطأ عظيم، فإن قوله: ﴿جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ:١٠] أي: صيرناه لباسا، وهذا جعلناه قرآنًا عربيًا، أي: صيرناه قرآنا عربيًا بلغة العرب، وأما قوله -تعالى-: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١] فـ«**جعل**» هنا لا تتعدى إلا لواحد، فهي بمعنى: خلق.

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

فقوله: ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ أي: بلغتهم، واللغة تسمى لسانًا، لقوله -تعالى-: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]، ويستفاد من قوله -تعالى-: ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، أنه يجوز أن يخاطِبَ الإنسانُ بلغة المخاطَبِين ولو بغير العربية؛ لأنه إذا خاطبهم باللغة العربية لم يفهموا شيئًا، ولم يستفيدوا.

لو قال قائل: إذا قلنا: إن «**جَعَلْنَا**» بمعنى: صيرنا، ومعلوم أن الصيرورة تكون بالانتقال من شيء إلى شيء، فهل معنى هذا أن القرآن كان من قَبْلُ غيرَ عربيٍّ؟

الجواب: أن هذا غلطٌ، وليس بصحيحٍ، وقوله -تعالى-: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ هل معناه صيَّرَه لباسًا، وهو قبلُ لم يكن لباسًا؟! إذنْ هذه دعوى باطلة.

* * *

مثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم الشرعي: قوله تعالى في المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة:٨٤]، فالصلاة في اللغة الدعاء، وفي الشرع هنا الوقوف على الميت للدعاء له بصفة مخصوصة فيُقَدَّم المعنى الشرعيُّ؛ لأنه المقصودُ للمتكلم المعهودُ للمخاطَب، وأما منع الدعاء لهم على وجه الإطلاق فمن دليل آخر.

الشرح

أي: أننا لو رجعنا إلى اللغة لكان قوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ

أَبَدًا﴾ [التوبة:٨٤] أي: لا تَدْعُ لهم، وليس كذلك، بل المراد لا تقم عليهم مُصَليًا كما يصلى على الجنائز، فقُدِّم هنا المعنى الشرعي.

فإن قال قائل: إذا حملته على المعنى الشرعي، فهل ذلك يعني: أنه يجوزُ الدعاءُ لهم على سبيل الإطلاق؟

قلنا: لا يجوز، لكن من دليل آخر، وهو قوله -تعالى-: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ [التوبة:١١٣] هذا من القرآن، ومن السُنَّة: «**أن النبي ﷺ استأذن ربه في أن يستغفر لأُمِّه فلم يأذن له، فاستأذنه أن يزور قبرَها فأذن له، فزار قبرها مرةً واحدةً، وكان معه أصحابه، فبكى -صلى الله عليه وسلم-، وأخبر أنه بكى رحمةً بأمه؛ لأنها من أهل النار**»(١)، ومعلوم أن هذا من جانب حنان الرحم والقربى، ولا شك أن الإنسان يبكي أن فات أمَّه أو أباه الإسلامُ، فبكى الصحابةُ معه؛ لأن المشهد مشهدٌ عظيم.

لكن هل وقف الرسول ﷺ على قبرها ليدعو لها، كما لو وقف عند أي قبر من المسلمين؟

الجواب: لا؛ لأن النبي ﷺ أشدُّ الناس امتثالًا لأمر ربه -عز وجل-، وكذلك فهو ﷺ لم يشفع لها، وكذلك لم يشفع لأبيه، ولهذا جاءه رجلٌ فقال: يا رسول الله أين أبي؟ فقال له: «أَبُوكَ فِي النَّارِ» -هكذا صراحة- فلما قَفَّ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٦).

الرجل ناداه، فقال له: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ»(١)؛ حتى يسليه، ولا يمكن أن الرسول ﷺ قال ذلك كذبًا لتسلية الرجل، بل نشهد بما أخبر به الرسول -عليه الصلاة والسلام- من أن أباه في النار.

كذلك عمُّه أبو طالب، فقد قال له النبي ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»(٢)، فنهاه الله -عز وجل-.

لكن هل أُذن له أن يشفع فيه؟

الجواب: نعم أذن له أن يشفع فيه، فكان في ضحضاح من نار عليه نعلان يغلي منهما دماغه -والعياذ بالله-(٣).

فإذا قال قائل: لماذا أذن له أن يشفع في عمه دون أبيه، وأيهما أحق؟

فالجواب: لا شك أن الأب أحقُّ، لكن الربَّ -عز وجل- لا يُقرَّبُ أحدٌ عنده بالنسب، بل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، فأذن له أن يشفع في عمه؛ لأن عمَّه نصره ودافع عنه، وحصر معه في شعب عامر، وصبر على أذى قريش، ولهذا أعلن في قصائده المشهورة أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- حقٌّ، فقال(٤):

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار، رقم (٢٠٣).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله، رقم (١٣٦٠)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، رقم (٢٤).
(٣) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢١٠).
(٤) ديوان أبي طالب (ص:٩١).

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حَذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَرَأَيْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينًا

وهو صادق في كلامه، ولهذا خُفِّف عليه العذاب؛ لأنه ذبَّ عن دين الإسلام، وعن رسول الإسلام، فالمهم أن يُعلم أن الأمر أمرُ الله، وأن اللهَ لا ينظر إلى الأنساب، ولا إلى القرابات، وكفى بذلك عزًّا وسلطانًا لربِّ العالمين، أن يكون ابنُ الكافر نبيًّا، إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أبوه كافر حتى إن ابنه لما أمره بالتوحيد قال: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم:٤٦] بالحجارة، والعجب من بعض الناس -سبحان الله العظيم- يقول إن هذا عمُّ إبراهيم وليس أباه؛ لأن العم يطلق عليه أب، كما في قوله -تعالى-: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف:٣٨]، وإسحاق ويعقوب أعمامه، يقال: نعم إذا جاء عن طريق الاشتراك فلا بأس، لكن أنْ يُسمَّى العمُّ أبًا، ويصرح به فهذا كذِبٌ على اللغة العربية ولا يصح.

وما يضرنا نحن إذا كان أبو إبراهيم كافرًا، أو أبو محمد كافرًا، هل يضرنا شيئًا؟ هل يضر الرسولَ شيئًا؟ أبدًا، بل هو مما يدُلُّ -أيضًا- على عظمةِ الله -عز وجل- أن يَخْرج أصفياءُ الخلقِ من أراذل الخلق في العقيدة.

***

ومثال ما اختلف فيه المعنيان، وقُدِّم فيه اللغويُّ بالدليل: قوله -تعالى-: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٣] **فالمراد**

بالصلاة هنا الدعاء، وبدليل ما رواه مسلم[١] عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: كان النبي ﷺ إذا أُتي بصدقةِ قومٍ، صلَّى عليهم، فأتاه أَبِي بصدقَتِه فقال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى».

الشـرح

إذن: هنا قَدَّمنا المعنى اللغويَّ ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، أي: ادعُ لهم، بدليل أن النبي ﷺ: إذا جاءه الناس بصدقاتهم دعا لهم؛ لأن الرسول -عليه الصلاة والسلام- أشدُّ الناس امتثالًا لأمر الله، إذا جاءه الناس بصدقتهم قال: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ**»[٢] امتثالًا لأمر الله. لم يقل دعاءً آخر، فلم يقل مثلًا: (اللهم أخلف على مَن أنفق، أخلف الله عليك بما أنفقت، وبارك لك فيما أبقيت، وجعله لك طهورًا)، وإنما يقول: «اللَّهُمَّ صلِّ عليه»؛ لأن الله قال: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، فأراد -عليه الصلاة والسلام- أن يكون دعاؤه مطابقًا للفظ النصِّ، وإلا لكان قوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: صلاة مخصوصة شرعية.

والخلاصة: أن المرتبة الخامسة في تفسير القرآن هو الرجوع إلى اللغة العربية، فإذا اختلف مدلولُ اللغة العربية ومدلولُ الشرع، قُدِّم الشرعُ إلا بدليلٍ.

***

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم (٤١٦٦)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقة، رقم (١٧٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة، رقم (١٤٩٨)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقة، رقم (١٠٧٨).

وأمثلة ما اتفق فيه المعنيان الشرعيُّ واللغويُّ كثيرة: كالسماء، والأرض، والصدق، والكذب، والحجر، والإنسان.

الشـرح

السماء معناه في اللغة: العلوُّ، وقد يُراد به السماءُ التي هي السقف المحفوظُ، وكذلك في الشرع، قال الله -تعالى-: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، المراد العلو وقال -تعالى-: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢] المراد السماء المبنية، وقال -تعالى-: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ﴾ [الذاريات:٤٧]، وقال -تعالى-: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات:٢٧]، المراد بها السماء التي هي السقف المحفوظ. **إذن:** السماء في اللغة أو الشرع، تعني: السقفَ المحفوظَ.

ومثله: الأرض، كذلك -أيضًا- الصدق وهو: الإخبار بما يطابق الواقع، هذا هو الصدق في اللغة والشرع، وكذلك الكذب هو: الإخبارُ بما يخالف الواقع، في اللغة والشرع، كذلك الحَجَر هو الحجر في اللغة والشرع، وكذلك الإنسان.

* * *

الاختلاف الوارد في التفسير بالمأثور

الاختلافُ الواردُ في التفسير بالمأثور على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: اختلافٌ في اللفظ دون المعنى، فهذا لا تأثير له في معنى الآية، مثاله قوله -تعالى-: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] قال ابن عباس: «قضى: أمر»[١]، وقال مجاهد: «وصّى»[٢]، وقال الربيع بن أنس: «أوجب»[٣]، وهذه التفسيرات معناها واحدٌ، أو متقارِبٌ، فلا تأثير لهذا الاختلاف في معنى الآية.

الشـرح

وهذا الاختلافُ اختلافٌ لفظيٌّ لا يُؤثر، ولا يضر، ولا يصح أن نقول: في الآية ثلاثةُ أقوال: قول بمعنى (أمر)، وقول بمعنى (وصَّى)، وقول بمعنى (أوجب)؛ لأن المعنى واحدٌ، فلا تأثير لهذا الاختلاف في معنى الآية.

* * *

القسم الثاني: اختلاف في اللفظ والمعنى؛ والآية تحتمل المعنيين لعدم التضاد بينهما، فتُحمل الآيةُ عليهما، وتفسر بهما، ويكون الجمع بين هذا الاختلاف أن كل واحد من القولين ذُكِر على وجه التمثيل لما تعنيه الآية، أو التنويع، مثاله قوله -تعالى-: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا

---

(١) الدر المنثور (٩/ ٢٨٨)، والقرطبي (١٠/ ٢٣٧).

(٢) فتح الباري (٨/ ٣٨٩)، وأخرجه ابن جرير (١٥/ ٦٢)، وابن كثير (٥/ ٦٤).

(٣) الكشف والبيان (٦/ ٩٢)، وتفسير البغوي (٣/ ١٦٢).

﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦]. **قال ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل[١]، وعن ابن عباس أنه: رجل من أهل اليمن[٢]، وقيل: رجل من أهل البلقاء[٣].**

والجمع بين هذه الأقوال: أن تُحمل الآية عليها كلها؛ لأنها تحتملها من غير تضاد، ويكون كلُّ قولٍ ذُكِر على وجه التمثيل.

الشــرح

قوله -تعالى-: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ يعني تخلى كما ينسلخ جلد الشاة عنها عند سلخها ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي اتَّبَعَه فكان من الغاوين، يقول الله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾؛ لأن الله تعالى يرفع بآياته، قال الله -تعالى-: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، وقال الشاعر:

الْعِلْـمُ يَرْفَعُ بَيْتًا لَا عِـمَادَ لَــهُ ... وَالْـجَهْلُ يَهْدِمُ بَيْتَ الْعِزِّ وَالشَّرَفِ

فالله تعالى يرفع بالْعِلْم أقوامًا ويضع آخرين، والرِّفْعَة تكون في الدنيا وفي الآخرة، أو في الآخرة دون الدنيا، وأحيانًا لا يُقَدِّر الله -عز وجل- للإنسان الرفعة في الدنيا لكن يكون له رفعة في الآخرة، وربما يضع به آخرين

(١) الدر المنثور (٣/ ٦٠٨)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٣)، والطبري (١٣/ ٢٥٣).
(٢) الدر المنثور (٣/ ٦٠٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٧٩)، وابن كثير (٢/ ٣٢٣)، والطبري (١٣/ ٢٥٥).
(٣) وهو من قول كعب، ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٢٣)، والطبري (١٣/ ٢٦٢).

يكون العالم من المغضوب عليهم -والعياذ بالله-، من الذين علموا الحقَّ ولكن اشتروا به ثمنًا قليلًا.

قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: هو رجل من بني إسرائيل.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أنه رجل من أهل اليمن.

وقيل: من أهل البلقاء بالشام.

ثلاثة أقوال لا تَنَافِيَ بينها أبدًا، والآية تحتملها كلها؛ فالرجل من بني إسرائيل قد يكون في اليمن، وقد يكون في الشام، وقد يكون في مصر، هذا اختلاف في اللفظ والمعنى.

وإنما كان الاختلاف في اللفظ والمعنى؛ لأن الرجل من بني إسرائيل، غير الرجل من أهل اليمن، والرجل من أهل اليمن، غير الرجل من أهل البلقاء، لكن نقول الآية تحتمل المعانيَ كلها، فتُحْمَل عليها كلها، وكلما وجدتَ اتساعًا للمعنى في الآية فخُذْ به، حتى بما هو متضاد، قال الله -تعالى-: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٧-١٨]، ﴿عَسۡعَسَ﴾ يعني أقبل، أو يعني أدبر، فإنه يُمكن أن نقول بمعنى أقبل وأدبر؛ لأنه لا منافاةَ، والجمع بين هذه الأقوال أن تُحمل الآية عليها كلها؛ لأنها تحتملها من غير تضاد.

ويكون هذا الاختلاف من باب التمثيل، يعني: مثال الرجل الذي آتاه الله آياته وانسلخ منها، مثاله الرجل الذي من بني إسرائيل، ومثاله الرجل الذي من أهل اليمن، ومثاله الرجل الذي من أهل البلقاء، فالمقصود هو

المعنى، لكن قد يكون بعضُ النَّاس سَمِع من بني إسرائيل، أو رجل من أهل اليمن، وهكذا.

فإن قال قائل: في قوله -تعالى-: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأعراف:١٧٥]، فمن المعلوم أن «الَّذِي» من أسماء الموصولات، وليست من المختصات «المعاني»، فإنها تدل على واحد، لكن سبق أنها تدل على أكثر من معنى، فما الجواب؟

الجواب: إنَّ كلَّ اسم موصول فهو للعموم، ولو كان مفردًا، كقوله -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣] فجاء بـ«الذي» مع أنه قال: ﴿هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾، فاسم الموصول وإن كان مفردًا فهو للعموم، ولكنه مُبهَمٌ ليس مُعيَّنًا، فمن الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، فبعضهم يقول: فلان، وبعضهم يقول: فلان، فنقول: هذا الاختلاف على سبيل التمثيل، إلا أنه لا يتنافى، فالآية شاملة لها.

***

ومثال آخر قوله -تعالى-: ﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا﴾ [النبأ:٣٤] قال ابن عباس: «دهاقًا مملوءة»[1]، وقال مجاهد: «متتابعة»[2]، وقال عكرمة: «صافية»[3]، ولا منافاة بين هذه الأقوال، والآية تحتملها فتُحمل عليها جميعًا ويكون كل قول لنوع من المعنى.

---

(١) الدر المنثور (١٥/ ٢٠٧-٢٠٨)، وتفسير الماوردي (٦/ ١٨٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٣٦١)، وابن كثير (٤/ ٥٦١).

(٢) الدر المنثور (١٥/ ٢٠٩)، والكشف والبيان (١٠/ ١١٨)، وتفسير الماوردي (٦/ ١٨٩)، وابن كثير (٤/ ٥٦١).

(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٤٠٠)، وتفسير الماوردي (٦/ ١٨٨)، وابن كثير (٤/ ٥٦١).

الشـرح

هذه الأقوال لا منافاة بينها؛ لأنه يمكن أن تكون مملوءة، ومتتابعة، وصافية، فتُحْمَل الآية على المعاني الثلاثة كلها، ويكون المقصود ذكر كل نوع، يعني: كل واحد ذَكَر نوعًا من المعنى، وليس هذا يختلف عن الأول؛ لأن الأول كل واحد من الرجال الثلاثة غيرُ الثاني، أما هذا فكلُّ واحدٍ هو الثاني، لكن هذا الكأس موصوف بأنه مملوء، وبأنه صافي الكؤوس، وموصوفة بأنها متتابعة.

***

القسم الثالث: اختلاف اللفظ والمعنى، والآية لا تحتمل المعنيين معًا للتضاد بينهما، فتُحمل الآية على الأرجح منهما، بدلالة السياق أو غيره.

مثال ذلك: قوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٣] **قال ابن عباس: «غير باغ في المَيْتَةِ، ولا عاد في أكله»[(١)]، وقيل: «غير خارج على الإمام، ولا عاصٍ بسفره»[(٢)]، والأرجح الأول؛ لأنه لا دليل في الآية على الثاني، ولأن المقصودَ بِحِلِّ ما ذُكِر دفعُ الضرورة، وهي واقعة في حال الخروج على الإمام، وفي حال السفر المحرَّم وغير ذلك.**

ومثال آخر قوله -تعالى-: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٤٢٩)، وابن كثير (١/ ٢٥٦)، وتفسير البحر المحيط (١/ ٤٢٧).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٦)، والبحر المحيط (١/ ٤٢٧)، والطبري (٣/ ٣٢٥).

﴿ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة:٢٣٧] **قال عليُّ بْنُ أبي طالبٍ -رضي الله عنه- في الذي بيده عُقْدَةُ النكاح: «هو الزوج»، وقال ابن عباس: «هو الوليُّ»، والراجح الأول لدلالة المعنى عليه، ولأنه قد رُوي فيه حديثٌ عن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.**

الشرح

هذا هو القسم الثالث: إذا اختلف اللفظُ والمعنى، والآية لا تحتمل إلا معنى واحدًا، فالحلُّ أنه يجب أن ننظر في المرجِّح، فنأخذ بالراجح وندع المرجوح؛ لأنه لا يمكن الجمع بين القولين والآية لا تحتمل المعنيين جميعًا.

مثال ذلك: قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ فالميتة تفسيرها: ما مات حتفَ أنفه أو بغير ذكاة شرعية. ويستثنى من الميتة: السمكُ والجرادُ، كما جاء في الحديث.

وقوله: «**الدَّم**» المراد به المسفوح كما قال -تعالى-: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام:١٤٥]، ويستثنى منه الطحالُ والكبدُ، ففي الحديث عن النبي ﷺ: «**أُحِلَّتْ لَنا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، أَمَا الْـمَيْتَتَانِ: فَالسَّمَكُ وَالْـجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطُّحَالُ**»(١)، وأيضًا ما يبقى في اللحم والعروق بعد الذكاة الشرعية فإنه حلالٌ، وعلى هذا لو شق القلبَ بعدَ أن ذكَّاها ذكاةً شرعيَّةً، وأكل الدم الذي فيه فهو حلال.

وقوله: ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ معروفٌ، ولم يُستثن منه شيء.

---

(١) أخرجه أحمد (٥٦٩٠)، وابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال، رقم (٣٣١٤).

وقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: سُمِّيَ عليه غير اسم الله، مثل أن يقولَ: باسم المسيح، أو باسْمِ محمَّدٍ، أو باسم جبريل، أو باسم الرئيسِ، وما أشبه ذلك فهذا حرام.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ أي: ألجأته الضرورة لأكل هذه المحرمات ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، يعني فإنَّ الله يغفر له، وليأكل ما يسدُّ رمقه أي ما تبقى به الحياة ولا يزيد إلا أن يخاف ألا يجد هذا المحرم فلا بأس أن يزيد على ما يسدّ رمقَه.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ هذه في قضية معينة، ولكن هناك آية عامة وهي قوله -تعالى-: ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِ﴾ [الأنعام:١١٩]، هذه تقضي على كل المحرَّمات، إذا اضطر الإنسانُ إليها صارت حلالًا.

وقوله: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، قال ابن عباس: غيرَ باغ في الميتة، ولا عادٍ في الأكل، يعني: غير طالب للميتة، ولا عاد في أكله، وإنما أكل بقَدْر الضرورة فقط، وهذا التفسيرُ أرجحُ؛ لأنه يؤيدُه قولُه -تعالى-: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة:٣]، والقرآن يفسر بعضُه بعضًا.

وقيل: إنَّ غير باغ أي: غير خارج على الإمام، أخذوه من البغاة: وهم الذين يخرجون عن الإمام، ولا عادٍ أي: المعتدي العاصي في سفره، وقالوا: من كان خارجًا على الإمام؛ فإنه لا يأكل من الميتة، ولو اضطر إليها، بل نقول: تُبْ ثُمَّ كُلْ، وكذلك من عصى بسفره فإننا نقول له: لا يحل لك أكل الميتة حتى تتوب.

وقلنا: إن الأول أصحُّ؛ لأنه لا دليل في الآية على الثاني، ولأن المقصود بحِلِّ ما ذُكِر دفع الضرورة وهي واقعة في حال الخروج عن الإمام، وفي حال السفر المحرَّم وغير ذلك.

فإن قال قائل: هل يعقل أن إنسانًا يطلب أكل الميتة؟

الجواب: نعم، فربما أنه ليس عنده الضرورة التي من أجلها يخاف أن يموت إن لم يأكل، وهذا ممكن.

مسألة: إذا كان هناك ميتة، وذبيحةٌ ذُبحت لغير الله فأيهما يأخذ؟

الجواب: أنه يأخذ بأقلهما ضررًا، والغالب أن التي ذُبحت لغير الله أقل ضررًا من الميتة؛ لأن الميتة قد تسرَّب إليها بعضُ الميكروبات.

مسألة: ما الفرق بين العاصي بسفره والعاصي في سفره؟

الجواب: الفرق بينهما أن العاصي في سفره هو الذي سافر لكنه في أثناء السفر ارتكب محرَّمًا، والعاصي بسفره هو الذي أنشأ السفر لأجل ارتكاب المحرَّم، ولهذا فإن العاصيَ في سفره يَقْصُر، والعاصي بسفره لا يَقْصُر.

مثال آخر: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧]، قوله: ﴿فَنِصْفُ﴾ «الفاء» واقعة في جواب الشرط، و«**نصف**» مبتدأٌ خبره محذوف؛ وتقديرُ هذا الخبر «**فلهُنَّ**» أو «**فلكم**»، ويجوز أن نجعلَ «**نصف**» خبر المبتدأ المحذوف؛ ويكون التقدير: فالواجب نصفُ ما فرضتم.

وهل هو واجب لهن أو لكم؟

يحتمل، فإن جعل للأزواج صار النصف للزوجات، وإن جعل للزوجات صار النصف والباقي للأزواج، لكن «لهن» أقرب إلى المعنى.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ يعني: عن النصف الذي لهن، وهنا إشكال وهو ﴿أَن﴾ هنا مصدرية، ومع ذلك وجدت النون، لأن النون هنا نون الإناث، وليست نون الرفع.

وقوله: ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ فمَن الذي بيده عقدة النكاح، هل هو الولي أم الزوج؟

والجواب: فيه قولان: قال علي بن طالب -رضي الله عنه-: «الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج»[(١)]، وقال ابن عباس -رضي الله عنه-: «هو الولي»[(٢)].

وكلاهما إمامان في التفسير، والراجح: الأول؛ لدلالة المعنى عليه، ولأنه قد روي فيه حديث عن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، وأيضًا أنه لما قال: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ يعني: النساء، ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ يعني: الأزواج، وهذا واضح، والتقسيم يدل عليه.

ثم إن الولي في عقدة النكاح يغني عنه قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ ولو قلنا: ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ الولي، لكان ذكر العفو من جانبٍ واحدٍ ألا وهو جانبُ المرأة، فيكون إلا أن يعفُونَ النساءُ، أو يعفُوَ الذي بيده عقدة النكاح الأولياء، فيكون ذِكْرُ العفو من جانب واحد.

---

(١) الدر المنثور (٣/ ٣٠)، واللباب في علوم الكتاب (٤/ ٢٢١)، والمحرر الوجيز (١/ ٣١٣)، وابن كثير (١/ ٣٥٧).

(٢) الدر المنثور (٣/ ٣١)، واللباب في علوم الكتاب (٤/ ٢٢١)، والمحرر الوجيز (١/ ٣١٢).

وإذا قلنا: إلا أن يعفون أي: النساء، أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح: هو الزوج، صار العفو من جانبين فيكون أولى؛ لأن الأصل في الكلام التأسيس وعدم التكرار والتوكيد.

ولأن الذي بيده عقدة النكاح هل يملك أن يعفو عن النصف إن كان الأب؟

نقول: فيه نظر.

وهل يملك أن يسقط حقها وإن كان غير الأب؟

نقول: لا حَقَّ له إطلاقًا أن يعفو، ولو كان الأخ أو الابن.

فتبين الآن أن القول بأن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج هو الصحيح، والزوج هو الذي إن شاء قَبِلَ، وإن شاء لم يقبل، ولو قال الولي للزوج: زَوَّجْتُكَ بنتي فسكت لم ينعقد النكاح، إِذنْ الزوج هو الذي بيده عقدة النكاح عقدًا وفسخًا.

ومثل ذلك قوله -تعالى-: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة:٢٢٨] فإن السَّلف والخلف قد اختلفوا في معنى القروء، فقيل: إنها الحيض[١]، وقيل: هي الأطهار[٢]، **والصواب:** أنها الحيض كما دلَّ على ذلك السنة في المستحاضة وغيرها.

* * *

(١) تفسير الطبري (٤/ ٥٠٠)، والقرطبي (٣/ ١١٢)، وابن كثير (١/ ٦٠٨).
(٢) تفسير الطبري (٤/ ٥٠٦)، والقرطبي (٣/ ١١٢)، وابن كثير (١/ ٦٠٧).

تَرْجَمَةُ الْقُرْآنِ

الترجمة لغةً: تُطلق على معانٍ ترجع إلى البيان والإيضاح.

الشــرح

وعلى هذا فالتفسير يُسَمَّى ترجمة، ولهذا إذا كلَّمك إنسانٌ بكلام لا تعرف معناه تقول له: (ترجم لي هذا)، أي: بيِّنه، حتى وإن كان بلغتك، فالترجمة والتفسير في اللغة معناهما واحد.

***

وفي الاصطلاح: التعبير عن الكلام بلغة أخرى.

وترجمة القرآن: التعبير عن معناه بلغة أخرى.

الشــرح

فقوله: «تعبير عن الكلام بلغة أخرى» وهذا أصح من قَوْلِ بعضهم: نَقْلُ الكلام من لغة إلى أخرى؛ لأن الكلام الأول لم يُنْقَل، ولكن عُبِّر عنه، وعلى هذا فهو التعبير عن الكلام بلغة أخرى، مثال ذلك أن يترجم عربيٌّ اللغةَ العربيةَ إلى الفارسية مثلًا، فهذه ترجمةٌ، أو فارسيٌّ ينقل اللغة الفارسية إلى العربيةِ، فهذه ترجمةٌ.

وترجمة القرآن: التعبير عن معناه بلغة أخرى.

***

والترجمة نوعان:

أحدهما: ترجمة حرفية، وذلك بأن يوضع ترجمة كل كلمة بازائها.

الثاني: ترجمة معنوية، أو تفسيرية، وذلك بأن يعبر عن معنى الكلام بلغة أخرى، من غير مراعاة المفردات والترتيب.

مثال ذلك: قوله -تعالى-: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣] فالترجمة الحرفية: أن يترجم كلمات هذه الآية كلمةً كلمة، فيترجم «إنا»، ثم «جعلناه»، ثم «قرآنًا»، ثم «عربيًا»، وهكذا.

والترجمة المعنوية: أن يترجم معنى الآية كلِّها، بقطع النظر عن معنى كل كلمة وترتيبها، وهي قريبةٌ من معنى التفسير الإجمالي.

حكم ترجمة القرآن:

الترجمة الحرفية بالنسبة للقرآن الكريم مستحيلة عند كثير من أهل العلم وذلك لأنه يشترط في هذا النوع من الترجمة شروط لا يمكن تحققها معها، وهي:

أ- وجود مفردات في اللغة المترجم إليها بإزاء حروف اللغة المترجم منها.

ب- وجود أدوات للمعاني في اللغة المترجم إليها مساوية أو مشابهة للأدوات في اللغة المترجم منها.

ج- تماثل اللغتين المترجم منها وإليها في ترتيب الكلمات حين تركيبها في الجمل والصفات والإضافات.

الشـرح

أولًا: الترجمة الحرفية؛ مثل قوله -تعالى-: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [الأنعام:١١٩]، (نترجم: هذا، يوم، ينفع، الصادقين، صدقهم)، كل كلمة نترجمها نفسها.

ثانيًا: ترجمة معنوية أو تفسيرية؛ مثال ذلك قوله -تعالى-: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن، ﴿قُرْءَٰنًا﴾ أي مقروءا أو قارئًا بمعنى جامع، ﴿عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لأجل أن تعقلوه وتفهموه.

واستدلت الجهمية بهذه الآية على أن القرآنَ مخلوقٌ، وجعلوا لهذا نظيرًا، وهو قوله -تعالى-: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، أي: خلق الظلمات والنور، ولكنهم أخطأوا؛ لأنهم لا يعرفون اللغة العربية؛ لأن «جَعَل» المتعدية لاثنين بمعنى صيَّر لا غير، والمتعدية لواحد بمعنى أوجد، وفي الآية الكريمة: ﴿جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ متعدية لاثنين.

إذن: معنى: ﴿جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: صيرناه قرآنًا عربيًّا، أي بلغة العرب، لكن قوله -تعالى-: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ بمعنى أوجد الظلمات والنور؛ لأنها لم تتعدَّ إلا لواحد، فالترجمةُ الحرفيةُ أن يترجم كلمات هذه الآية كلمة كلمة، فيترجم ﴿إِنَّا﴾، ثم ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾، ثم ﴿قُرْءَٰنًا﴾، ثم ﴿عَرَبِيًّا﴾، وهكذا، والترجمة المعنوية يعني يترجم معنى الآيات كلها، بقطع النظر عن معنى كل كلمة وترتيبها، وهي قريبة من معنى التفسير الإجمالي، فهنا نقول في الترجمة المعنوية: يخبر الله -عز وجل- أنه جعل القرآن بلغة العرب؛ من أجل أن يعقله العرب.

والترجمة المعنوية قد تكون أطول من المترجَم، وقد تكون أقصر، ولهذا أحيانًا عندما يتكلم الإنسانُ في محاضرة أو غيرها، ثم يأتي المترجِمُ بعده أحيانًا يشك في أنه ترجم الكلام؛ لأنه في اللغة العربية يقرأُ حوالي سطر، ثم ذاك يأتي بها بكلمتين ويكون قد ترجمها تمامًا؛ وذلك لأنها لا تتطابق الكلمات.

إذن: الترجمة الحرفية بالنسبة للقرآن مستحيلةٌ؛ لأنه يشترط في هذا النوع من الترجمة شروط لا يمكن تحققها معها، وهي:

الأول: وجود مفردات في اللغة المترجم إليها بإزاء حرف اللغة المترجم منها، وهذا قد يتعذر؛ لأنه يوجد في بعض اللغات حروفٌ ساقطةٌ، فحرف «الضاد» مثلًا لا يوجد في اللغات الأخرى، وعلى هذا يُروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ**»[1]، وهذا الحديث ليس بصحيح، فإذا كان كذلك فكيف يمكن الترجمة الحرفية، وهو في بعض اللغات غير موجودة.

الثاني: وجود أدوات المعاني في اللغة المترجم إليها مساوية لأدوات اللغة المترجم منها، وهذه -أيضًا- قد تكون متعذرة، وأدوات المعاني هي: أداة الاستفهام، وأداة النفي، وأداة التوكيد، وما أشبه ذلك، وهذه الأدوات قد لا توجد في اللغة الأخرى مساوية لها، أو مشابهة لما في اللغة العربية، وإذا كان كذلك فكيف تمكن الترجمة الحرفية، وهي أن تكونَ الكلمةُ إلى جانب الكلمة الأخرى.

ثالثًا: تماثل اللغتين المترجم منها وإليها في ترتيب الكلمات حين تركيبها

(١) المصنوع في معرفة الحديث الموضوع (٤١)، والمقاصد الحسنة فيما اشتهر على الألسنة (١٨٥)، والفوائد المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (٣٣).

في الجمل والصفات والإضافات؛ وهذا معروف أنك تجدُ في اللغة العربية أن الخبر متأخر عن المبتدأ، وفي اللغات الأخرى تجده مُقدَّمًا عن المبتدأ، كذلك المضاف والمضاف إليه تجده في اللغة العربية مقدَّمًا على المضاف إليه، وفي غيرها يقدم المضاف إليه، ولهذا يقولون: «**جاز خانة**» يعني: «**خانة جاز**»، وكذلك يُقَدِّمون في الجمل، وكذلك تجد الحركات تختلف؛ فحركات اللغة العربية صفةٌ في الحرف، وفي غير العربية حرفٌ مستقل.

***

وقال بعض العلماء: إن الترجمة الحرفية يمكن تحققها في بعض آية، أو نحوها، ولكنها وإن أمكن تحققها في نحو ذلك محرمة؛ لأنها لا يمكن أن تؤدي المعنى بكماله، ولا أن تؤثر في النفوس تأثير القرآن العربي المبين، ولا ضرورة تدعو إليها؛ للاستغناء عنها بالترجمة المعنوية.

وعلى هذا فالترجمة الحرفية إن أمكنت حسًّا في بعض الكلمات فهي ممنوعة شرعًا، اللهم إلا أن يترجم كلمة خاصة بلغة من يخاطبه ليفهمها، من غير أن يترجم التركيب كله، فلا بأس.

الشـرح

إذن: الترجمة الحرفية محرمة، وهذا إذا قلنا بإمكانه، لكن على القول الأول الذي عليه الجمهور أنهم يقولون: لا تمكن الترجمة الحرفية، وقد بيَّنَّا التعليلات، لكن من العلماء من يقول: يمكن الترجمة الحرفية وذلك في بعض الآيات أو نحوها، ومع ذلك نقول: هي محرمة ولو أمكن، فإنها لا تؤدي

المعنى بكمالها لا من جهة التقديم والتأخير، ولا من جهة حروف المعاني والتوكيد، ولا من جهة الإضافات والتقديم والتأخير، ولا أن تؤثر في النفوس كتأثير القرآن العربي المبين، والقرآن إنما نزل واعظًا للقلوب، قال -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧]، ولأنه لا ضرورة تدعو إليها؛ للاستغناء عنها بالترجمة المعنوية؛ فلأجل هذه العلل الثلاث، صارت الترجمةُ الحرفيةُ إن أمكنت فإنها تحرم.

***

وأما الترجمة المعنوية للقرآن فهي جائزة في الأصل لأنه لا محذور فيها، وقد تجب حين تكون وسيلة إلى إبلاغ القرآن والإسلام لغير الناطقين باللغة العربية، لأن إبلاغ ذلك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

الشــرح

إذن: الترجمة المعنوية للقرآن الكريم حُكمها في الأصل الجواز، لكن إن توقَّف إبلاغُ الشريعة عليها، صارت الترجمةُ واجبةً؛ لأن إبلاغ القرآن واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وبناءً على ذلك نقول: ترجمة الخُطَب يومَ الجمعة واجبةٌ؛ لأنَّ غيرَ الناطقين باللغة العربية لا يدرون ماذا يقول الخطيب.

إذن نقول: إذا كان يتوقَّف على الترجمة إبلاغُ الشريعة كانت الترجمة واجبةً؛ لأنَّ إبلاغَ الشريعة واجبٌ، وما لا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجب.

***

لكن يُشترط لجواز ذلك شروط:

الأول: ألا تُجْعلَ بديلًا عن القرآن بحيث يُستغنى بها عنه، وعلى هذا فلا بدَّ أن يُكتَبَ القرآنُ باللغة العربية، وإلى جانبه هذه الترجمة؛ لتكون كالتفسير له.

الثاني: أن يكون المترجِمُ عالمًا بمدلولات الألفاظ في اللغتين المترجم منها وإليها، وما تقتضيه حسب السياق.

الثالث: أن يكون عالمًا بمعاني الألفاظ الشرعية في القرآن.

ولا تقبل الترجمة للقرآن الكريم إلا من مأمونٍ عليها، بحيث يكون مسلمًا مستقيمًا في دينه.

الشـرح

إِذنْ الترجمة المعنوية تجوز بهذه الشروط:

الشرط الأول: ألا تُجعلَ بديلًا عن القرآن، بحيث يكتب القرآن كله بالترجمة المعنوية، ولا يُقرأ القرآن، فإن هذا لا يجوز؛ لأنه لا بد أن يُقرأ القرآن؛ فأفضل سبيل في ذلك أن نجعل القرآن باللغة العربية في صفحة، والترجمة في صفحة، أو في نصف صفحة والترجمة في نصف صفحة؛ حتى لا يفقد القرآن الكريم من المصحف.

الشرط الثاني: أن يكون المترجِم عالمًا بمدلولات الألفاظ في اللغتين المُترجَم منها وإليها، وما تقتضيه الألفاظُ حسب السياق، وهذا أمر لا بد منه، وهو أن يكون عالمًا بمدلولات الألفاظ في لغته، وبمدلولات الألفاظ في لغة

القرآن؛ حتى يتمكن من التعبير عن هذه بهذه، وأما إذا كان ليس قويًا فلا يحل له أن يترجم ولا يؤمر.

الشرط الثالث: أن يكون عالمًا بمعاني الألفاظ الشرعية في القرآن فيعرف معنى: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والغيبة... وهكذا، فإن لم يكن عالمًا بذلك، فإنه لا يجوز؛ لأنه ربما يفسرها بمقتضى اللغة العربية دون الحقيقة الشرعية، كمن فسر قوله -تعالى-: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧] فقال: ﴿هُنَّ﴾ أي: الثياب، وهذا غير صحيح، وعلى كل حال فإنه لا بد أن يكون عالمًا بمعاني الألفاظ في اللغتين المترجم منها والمترجم إليها

وهناك شرط رابع لا بدَّ منه: وهو أن يكون موثوقًا، لكن هذا لا يعود إلى الترجمة، ولذلك قلنا: ولا تقبل الترجمة من القرآن الكريم إلا من مأمون عليها، فالشروط الثلاث الأول لحكم الترجمة، فإذا أراد الإنسان أن يترجم القرآن فهل نقبل الترجمة من كل من ترجم للقرآن، وقال: إني ترجمته؟ الجواب: لا، بل لا بد أن يكون مأمونًا، أي: ذا عقيدة سليمة، نأمن منه ألا يُحرف القرآنَ على عقيدته، فإن لم يكن مأمونًا، فإنه لا يجوز أن نعتمد على ترجمته.

وإني أذكر قصة وقعت لي لتأخذوا منها عبرة، فكنا ذات مرةٍ نحدث إلى الناس في المطار في أيام الحج، وذلك في مسجد المطار، فكنا نتكلم باللغة العربية، فجاءني رجلٌ شيخ محترم في شكله، وقال: أنا أترجم لك، وكان أكثر الذين عندنا نيجيريين، فأعجبني شكلُهُ، فقلت له: جزاك الله خيرًا، فبدأ يترجم لي، وكان الصوتُ يخرج من المنارة في أثناء الترجمة، وأنا أقرأ وهذا

يلاحقني، فدخل علينا رجل، فقال: هذا الذي يُترجم لك فإنه ضد كلامك، إذا قلت: هذا توحيد، قال: هذا شرك، وإذا قلتَ: هذا واجب، قال: هذا حرام، وهذه حقيقة مشكلة؛ فالائتمان والثقةُ لا بد منها، والعلم بمدلولات الألفاظ لا بد منه، وإن كان المترجم حسنَ النية، فالمسألة خطيرة، ولهذا تجد أحيانًا في التفسير المترجم في القرآن يُشرف عليه عدةٌ من العلماء، وإذا تداوله الناس وجدوا فيه أخطاءً، وهذا كله ناتج، إما عن عدم الثقة وعدم الأمانة، وإما عن عدم المعرفة.

مسألة: هل القرآن المترجم يأخذ حكمَ القرآن الأصل أم لا؟

الجواب: القرآن المترجم لا يأخذ حكمَ القرآن غير المترجم، فيجوز مسُّه بغير وضوء، ويجوز بيعه وشراؤه... إلخ، لكن إذا وجد الأصل فينظر أيهما أكثر فيكون الحكم للأكثر.

***

المشتهرون بالتفسير من الصحابة

اشتهر بالتفسير جماعةٌ من الصحابة، ذكر السيوطيُّ منهم: الخلفاء الأربعة: أبا بكر، وعمرَ، وعثمانَ، وعليًّا -رضي الله عنهم-، إلا أن الرواية عن الثلاثة الأولين لم تكن كثيرةً، لانشغالهم بالخلافة، وقلة الحاجة إلى النقل في ذلك، لكثرة العالمين بالتفسير.

ومن المشتهرين بالتفسير من الصحابة أيضًا: عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، فلْنُتَرْجم لحياة علي بن أبي طالب مع هذين -رضي الله عنهم-.

الشـرح

لا شك أن الصحابة -رضي الله عنهم- هم أعْلَمُ الناس بتفسير كلام الله، لكن اشتهرَ منهم أناسٌ كالخلفاء الأربعة: أبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ -رضي الله عنهم-، ولكنَّ النقلَ عن الثلاثة الأولين قليلٌ؛ لأنهم مشتغلون بالخلافة؛ ولأن الناس ليس عندهم جهلٌ كثير بمعاني القرآن، فليسوا بحاجة إلى أن يفسروه، ومن المشتهرين أيضًا عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس.

***

١- علي بن أبي طالب:

هو ابن عم الرسول ﷺ، وزوج ابنتِه فاطمة -رضي الله عنه وعنها-، وأول من آمن به من قرابته، اشتهر بهذا الاسم. وكنيته أبو الحسن، وأبو تراب.

الشرح

أما كونه أول من آمن من قرابته فهذا هو الصواب، فإن أول من آمن به من قرابته هو علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وليس هو الأول على الإطلاق، بل الأول على الإطلاق هو أبو بكر الصديق -رضي الله عنه-، بل قبل أبي بكر ورقةُ بن نوفل؛ لأن النبيَّ ﷺ لما قصَّ على ورقة ما رآه من الوحي آمن به، وقال: «**ليتني كنت فيها جذعًا، ليتني معك إذ يخرجك قومك**»[1] فأقرَّ واعترف، لكن ذلك قبل الرسالة، فلهذا نقول: أولُ من آمن بنبوته من الرجال هو ورقة بن نوفل.

فإن قيل: هل هو صحابي أم لا؟

قلنا: هو آمن قبل الرسالة.

فإذا قلنا: إن مَن آمن به نبيًا فهو صحابي، وإذا قلنا: لا يكون صحابيًّا إلا حيث تُوجَّه إليه الدعوة، وذلك بعد رسالة النبي -عليه الصلاة والسلام- لم يكن من الصحابة، لكن أول من آمن به من الرجال بعدَ الرسالة هو أبو بكر، كما أقرَّ بذلك عليُّ بن أبي طالب -رضي الله عنه-.

أما من قرابة الرسول فأوّلُ من آمن به هو علي بن أبي طالب.

وكُنْيَته أبو الحسن؛ لأن أكبر أولاده الحسن، وأبو تراب؛ لأن النبي ﷺ كناه بذلك، حين جَاءَ رَسُولُ الله ﷺ وَهْوَ مُضْطَجِعٌ، قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم (٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦٠).

شِقِّهِ، وَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَيَقُولُ: «**قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ**»(١)، فَكُنِّي بذلك، وكان أحب الكُنْيَتَيْن إليه.

***

وُلِد قبلَ بعثة النبي ﷺ بعشر سنين، وتربَّى في حِجر النبي ﷺ، وشَهِد معه المشاهدَ كلَّها، وكان صاحب اللواء في معظمها، ولم يتخلَّف إلا في غزوة تبوك، خلفه النبي ﷺ في أهله، وقال له: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»(٢).

الشرح

فقوله: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي...**» لأن موسى -عليه السلام- قال لهارون: قال اخلفني في قومي، واصبر، والرسول -عليه الصلاة والسلام- قال لعليٍّ: اخلفني في أهلي، فكان منه بمنزلة هارون من موسى في خلافته في أهله، لا في الخلافة المطلقة كما زعمت الرافضةُ، بل هو بمنزلة هارون من موسى في هذه الخلافة فقط، وذلك أن عليًّا -رضي الله عنه- قال: يا رسول الله، أتدعُني مع النساء والصبيان؟ فقال: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»، وعلى هذا فهي خلافة مخصوصة مقصورة.

***

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب نوم الرجال في المسجد، رقم (٤٤١)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، رقم (٢٤٠٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، رقم (٤٤١٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب، رقم (٦٢١٨).

نُقل له من المناقب والفضائل ما لم ينقل لغيره، وهلك به طائفتان: النواصب الذين نصبوا له العداوة، وحاولوا إخفاء مناقبه، والروافض الذين بالغوا فيما زعموه من حبه، وأحدثوا له من المناقب التي وضعوها ما هو في غنى عنه، بل هو عند التأمل من المثالب.

الشـــرح

إذن: الروافض الذين بالغوا فيما زعموه من حبِّ عليٍّ -رضي الله عنه-، وقوله: «**فيما زعموه**»؛ لأن هذا هو الذي يظهرونه، لكن حقيقة الأمر أنهم يخالفونه في أشياء، فهو -رضي الله عنه- يُعلن مِنْ على منبر الكوفة، أن خيرَ هذه الأمة أبو بكر ثم عمر[1]، وهم يقولون: إنه ليس بصحيح، وهو -رضي الله عنه- ممن روى أحاديث المسح على الخفين، والروافض لا يقبلون هذا، ولا يرون المسح على الخفين، فلذلك عبر عن ذلك بهذا التعبير «فيما زعموه من حبه».

«وأحدثوا له من المناقب التي وضعوها ما هو في غنى عنها، بل هو عند التأمل من المثالب»، ومن ذلك أنهم قالوا: إنه -رضي الله عنه- كان يصلي فيما بين صلاة المغرب والعشاء ألفَ ركعةٍ، وعدُّوا ذلك من مناقبه، وقالوا: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة:٥٥]. قالوا: إن هذا عليُّ بن أبي طالب، والحقيقة أن هذه من المثالب، فكونه يصلي بين المغرب والعشاء ألف ركعة، كيف تكون القراءة، وكيف يكون الركوع، وكيف يكون السجود،

(١) أخرجه ابن عساكر (٤٤/١٩٦)، وقال: المحفوظ موقوف، وأخرجه ابو نعيم في الحلية (٧/٢٠١)، وأبو يعلى (١/ ٤١٠، رقم ٥٤٠).

ولهذا قال شيخُ الإسلام في رَده في المنهاج: «إذا قلتم هذا فهذه من أكبر المثالب، وإذا كان الرسول ﷺ قال للأعرابي: «**إِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»[(١)]، فهذا أيضًا لم يُصلِّ فلا تُقبل صلاته»[(٢)]، كذلك أيضًا كونه يؤدي الزكاة وهو راكعٌ، فهذا مثلبة لا منقبة؛ لأن الزكاةَ تؤدَّى في غير وقت الصلاة؛ لأنها لا تفوت، فكونه يتحرك ويأتيه فقيرٌ وهو راكعٌ، ثم يُعطيه هذه ليست منقبةً.

***

اشتهر -رضي الله عنه- بالشجاعة والذكاء مع العلم والزكاء، حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يتعوَّذ من معضلة ليس لها أبو حسن[(٣)]، ومن أمثلة النحويين: «قضية ولا أبا حسن لها»[(٤)].

الشــرح

وهذا معروف فهو من أذكى الرجال، ومن أعقل الرجال أيضًا، وكان أمير المؤمنين عمر -رضي الله عنه- يُعظِّمُه ويُجِلُّه، ويتعوَّذ من معضلة ليس لها أبو حسن، والمعضلة يعني: المسألة المشكلة التي تعضل الإنسان، وتقطع تفكيره، إن لم يكن لها أبو حسن، فإن كان لها أبو حسن فرجت.

***

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات، رقم (٧٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧).

(٢) منهاج السنة النبوية (٤/ ٢٨).

(٣) الاستيعاب في أسماء الأصحاب على حاشية الإصابة (٣/ ٣٩)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٤٨٥).

(٤) ذكره سيبويه في كتابه (١/ ٣٥٥)، وذكره ابن الأثير في أسد الغابة (٤/ ٢٨).

ورُوي عن علي -رضي الله عنه- أنه كان يقول: «سلوني سلوني وسلوني عن كتاب الله تعالى، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أَنَزَلت بليل أو نهار»[(١)]، وقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: «إذا جاءنا الثبت عن علي لم نعدل به»[(٢)]، وروي عنه أنه قال: «ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب»[(٣)].

كان أحد أهل الشورى الذي رشحهم عمر -رضي الله عنه- لتعيين الخليفة، فعرضها عليه عبد الرحمن بن عوف فأبى إلا بشروط لم يقبل بعضها، ثم بايع عثمان فبايعه عليٌّ والناس، ثم بُويع بالخلافة بعد عثمان حتى قُتِل شهيدًا في الكوفة ليلة السابع عشر من رمضان، سنة أربعين من الهجرة -رضي الله عنه-.

٢- عبد الله بن مسعود:

هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، وأمه أمُّ عبدٍ كان يُنسب إليها أحيانًا[(٤)]، وكان من السابقين الأولين في الإسلام، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا، وما بعدها من المشاهد.

تلقى من النبي ﷺ بضعًا وسبعين سورة من القرآن، وقال له النبي ﷺ في أول الإسلام: «إِنَّكَ لَغُلَامٌ مُعَلَّمٌ»[(٥)]، وقال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢/ ٢٤١-٢٤٢)، وابن حجر في الفتح (٨/ ٥٩٩).
(٢) الإصابة (٢/ ٥٠٢)، وتهذيب التهذيب (٢٢/ ٣٣٧)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٤٨٦).
(٣) المحرر الوجيز (١/ ٣٩).
(٤) وذلك لأن أباه مات في الجاهلية، وأَدرَكت أمُّه الإسلامَ فأسلمت.
(٥) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٩، ٤٦٢).

غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»[(١)]، وفي «صحيح البخاري»[(٢)] أن أن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: لقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله، وقال: والله الذي لا إله غيره ما أُنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أُنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن أُنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه.

الشرح

وهذا الكلام لا شك فيه مِنْ أن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- لا يُريد أن يُزَكِّي نفسَه؛ لأنه أطهر من ذلك، لكنه أراد أن يحث الناسَ على تلقي التفسير عنه؛ لأنَّ النَّاسَ إذا عَلِمُوا أنه بهذه المنزلة من العلم أكبُّوا عليه، وأخذوا منه، وهذا يقع لمن هُو دونَ ابنِ مسعود -رضي الله عنه-، فانظر إلى ابن مالك يقول في ألفيته[(٣)]:

تُقَرِّبُ الْأَقْصَى بِلَفْظٍ مُوْجَزِ ... وَتَبْسُطُ الْبَذْلَ بِوَعْدٍ مُنْجَزِ
وَتَقْتَضِي رِضًا بَغَيْرِ سُخْطِ ... فَائِقَةً أَلْفِيَّةَ ابْنِ مُعْطِي

فضلها حتى في التعيين لكنه استدرك، وقال:

وَهْوَ بِسَبْقٍ حَائِزٌ تَفْضِيلَا ... مُسْتَوْجِبٌ ثَنَائِيَ الْجَمِيلَا
وَاللهُ يَقْضِي بِهِبَاتٍ وَافِرَهْ ... لِي وَلَهُ فِي دَرَجَاتِ الْآخِرَهْ

(١) أخرجه ابن ماجه: رقم (١٣٨).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب رسول الله ﷺ، رقم (٥٠٠٠).
(٣) البيتان (٤، ٥).

والمحَشُّون الذين يُنَقِّبُون عن الوسخ تحت الأظفار قالوا: إن ابن مالك أخطأ؛ لأنه قال: «لي وله في درجات الآخرة» ولم يقل وللمسلمين، فسبحان الله، ألم تعلموا أن موسى قال: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي﴾ [الأعراف:١٥١]، ألم تعلموا أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- أحيانًا يدعو لنفسِه وحدَه، وهل قال ابن مالك: «والله يقضي بهبات وافرة لي وله في درجات الآخرة، ولا يقضي بها لغيرنا»، كما قال الأعرابيُّ للرَّسُول -عليه الصلاة والسلام-: «اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا»[(١)].

الجواب: لا، لكن هذا دعاءٌ لنفسه ولابن معطي، ولا يضر؛ لأنه لم يقصد الفخرَ على ابن معطي، ولم يرد أن يزكي نفسَه، وهذا ما نعلم من حاله، وإنما أراد بذلك أن يُقبل الناسُ على هذا النظم، ويأخذوا به، المهم أن الإنسان إذا قصد بما يتحدث به عن نفسه حثَّ الناس على العلم وترغيبهم في ذلك، فلا حرج عليه، والله تعالى أعلمُ بالنيَّات، وكم من كلمة أو فعلٍ صدرا من إنسانين بينهما كما بين السماء والأرض!

❊❊❊

وكان ممن خدم النبيَّ ﷺ فكان صاحبَ نَعْلَيْه، وطهوره، ووساده، حتى قال أبو موسى الأشعري: قدمتُ أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حينًا ما نرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجل من أهل بيت النبي ﷺ؛ لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي ﷺ[(٢)]، ومن أجل ملازمته النبي ﷺ تأثر به وبهديه،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم (٦٠١٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضل عائشة -رضي الله عنها-، رقم

حتى قال فيه حذيفة: «ما أعرف أحدًا أقربَ هديًا وسمتًا ودلًّا بالنبي ﷺ من ابن أم عبد»[1].

بعثه عمر بن الخطاب إلى الكوفة، ليُعلِّمَهم أمورَ دينهم، وبعث عمارًا أميرًا، وقال: إنهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ، فاقتدوا بهما، ثم أمَّره عثمانُ على الكوفة، ثم عزله، وأمره بالرجوع إلى المدينة، فتوفِّي فيها سنة اثنتين وثلاثين، ودُفِن بالبقيع وهو ابنُ بضعٍ وسبعين سنةً.

الشرح

«صاحب نعليه» يعني: يحمل النعلين إن استغنى عنهم النبي ﷺ، كذا أيضًا «الطهور» أي الماء الذي يتطهَّر به الرسولُ ﷺ، و«وساده» الوسادة التي يتكئ عليها.

قال فيه حذيفة -رضي الله عنه-: «**ما أعرف أحدًا أقرب هديًا وسمتًا ودلًا بالنبي ﷺ من ابن أم عبد**»، ولقد صدق حذيفةُ -رضي الله عنه- وهذا صحيحٌ، حتى: إن كلامَه -رضي الله عنه- يُشبه كلامَ النبي ﷺ، فإن آثار ابن مسعود -رضي الله عنه- أحيانا يسمعها المرء فيقول: إنها خارجةٌ من مشكاة النبوة، واقرأ ما رواه مسلمٌ في كتاب الصلاة «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ... إلخ**»[2]، فإنك إذا قرأته

= (٣٧٦٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب في فضائل عبد الله بن مسعود وأمه -رضي الله عنهما-، رقم (٢٤٦٠).

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضل عائشة، رقم (٢٧٦٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب صلاة الجماعة من سنن الهدي، رقم (٦٥٤).

قلت: هذا من كلام النبي -عليه الصلاة والسلام-؛ لأنه خالط النبي -عليه الصلاة والسلام- كثيرًا، وكما قال أبو موسى الأشعري -رضي الله عنه-: إنه بقي زمانًا يظن أن ابن مسعود من آل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم-.

بَعَثَه عُمَرُ بن الخطاب إلى الكوفة لِيُعَلِّمَهم.

***

٣- عبد الله بن عباس:

هو ابن عمِّ رَسول الله ﷺ، وُلِد قبل الهجرة بثلاث سنين، لازم النبيَّ ﷺ لأنه ابن عمه، وخالته ميمونة تحت النبي ﷺ، وضمّه النبيُّ ﷺ إلى صدره، وقال: «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْـحِكْمَةَ»، وفي روايةٍ: «الْكِتَابَ»[(١)]، وقال له حين وضع له وضوءه: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[(٢)]، فكان بهذا الدعاء المبارك حَبْرَ الأمة في نشر التفسير والفقه، حيث وفَّقه الله تعالى للحرص على العلم والجِدِ في طلبه والصبر على تلقيه وبذله، فنال بذلك مكانًا عاليًا، حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يدعوه إلى مجالسه ويأخذ بقوله، فقال المهاجرون: ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس؟! فقال لهم: «ذاكم فتى الكهول، له لسان سؤول، وقلب عقول»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب ذكر ابن بعاس -رضي الله عنهما-، رقم (٣٧٥٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب وضع الماء في الخلاء، رقم (١٤٣).

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٣٢١)، ورواه الحاكم في مستدركه (٣/ ٥٣٩)، كتاب معرفة الصحابة، ذكر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. وقال الذهبي: منقطع.

ثم دعاهم ذات يوم فأدخله معهم ليريهم منه ما رآه، فقال عمر: ما تقولون في قول الله -تعالى-: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر:١] حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أُمِرْنا أن نحمد الله ونستغفره إذا فُتِح علينا، وسكت بعضُهم، فقال عمر لابن عباس: أكذلك تقول؟ قال: لا، قال: فما تقول؟ قال: هو أَجَلُ رسولِ الله ﷺ، أعْلَمَه اللهُ له إذا جاء نصرُ الله، والفتحُ فتح مكة، فذلك علامة أجلك، فسبِّح بحمد ربك، واستغفرْه إنه كان توابًا، قال عمر: «ما أعلم منها إلا ما تعلم»(١).

وقال ابن مسعود -رضي الله عنه-: «لَنِعْمَ تُرجُمان القرآن ابن عباس، لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد»(٢)، أي ما كان نظيرًا له، هذا مع أن ابن عباس عاش بعده ستًا وثلاثين سنة، فما ظنُّك بما اكتسب بعده من العلم.

الشـرح

وهذا أيضًا صحيحٌ، هذا كلام ابن مسعود -رضي الله عنه- قبل أن يموت ابنُ عباس بأكثر من ستٍّ وثلاثين سنة، فما ظنُّك فيما اكتسبه بعده من العلم في تفسير القرآن وغيره، فلا شكَّ أنه كثير.

***

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦٢٧).
(٢) البداية والنهاية (١٢/ ٨٨)، وتفسير الطبري (١/ ٩٠).

وقال ابن عمر لسائل سأله عن آية: «انطلق إلى ابن عباس فاسأله؛ فإنه أعلم من بقي بما أنزل على محمد ﷺ»[١]، وقال عطاء: «ما رأيت قطُّ أكرمَ من مجلس ابن عباس فقهًا وأعظم خشية، إن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشِّعر عنده، يصدرهم كلهم من وادٍ واسع»[٢].

وقال أبو وائل: «خطبنا ابنُ عباس وهو على الموسم «أي: وهو والٍ على موسم الحج من عثمان -رضي الله عنه-» فافتتح سورةَ النور، فجعل يقرأ ويفسر، فجعلت أقول: ما رأيتُ، ولا سمعتُ كلامَ رجلٍ مثله، ولو سمعَتْه فارس والروم والتُّرك لأسلمت»[٣]، ولَّاه عثمان على موسم الحج سنة خمس وثلاثين، وولاه عليٌّ على البصرة، فلما قُتل مضى إلى الحجاز، فأقام في مكة، ثم خرج منها إلى الطائف، فمات فيها سنة ثمانٍ وستين، عن إحدى وسبعين سنة.

الشـرح

هذا العلمُ الغزير، وهذه الروايات عن رسول الله ﷺ من هذا الرجل الذي وفَّقه الله، الذي قد ماتَ في الطائف -رضي الله عنه-، وقبرُه يُقال أنه في المكان الذي يُسمَّى مسجد ابن عباس، وهو مسجدٌ مشهورٌ كبيرٌ وسطَ الطائف، والله أعلم.

***

(١) الدر المنثور (٢/ ٩٠)، وتفسير الطبري (٣/ ٢٣٣).
(٢) تاريخ بغداد (١/ ١٧٥)، والإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ١٤٨).
(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/ ٩٣٦)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٣٤٦).

المشْتَهِرُونَ بِالتَّفْسِيرِ مِنَ التَّابِعِينَ

اشتهر بالتفسير من التابعين كثيرون، فمنهم:

أ- أهل مكة؛ وهم أتباع ابن عباس، كمجاهد، وعكرمة، وعطاء ابن أبي رباح.

ب- أهل المدينة؛ وهم أتباع أُبي بن كعب، كزيد بن أسلم، وأبي العالية، ومحمد بن كعب القرظي.

ج- أهل الكوفة؛ وهم أتباع ابن مسعود، كقتادة، وعلقمة، والشعبي.

فلنترجم لحياة اثنين من هؤلاء: مجاهد وقتادة.

١- مجاهد:

هو مجاهد بن جبر المكي، مولى السائب بن أبى السائب المخزومي، ولد سنة إحدى وعشرين من الهجرة، وأخذ تفسير القرآن عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، روى ابن إسحاق عنه أنه قال: «عَرَضْتُ المصحفَ على ابن عباس ثلاثَ عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أُوقِفُه عندَ كلِّ آية وأسأله عنها»[1]؛ وكان سفيان الثوري يقول: «إذا جاءك التفسير عن مجاهدٍ فحسبُك به»[2]، واعتمد تفسيرَه الشافعيُّ والبخاريُّ، وكان كثيرًا ما ينقل عنه في صحيحه، وقال الذهبي في آخر ترجمته: «أجمعت الأمةُ على إمامة مجاهد

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٧٩-٢٨٠)، والذهبي في السير (٤/ ٤٥٦-٤٥٧).
(٢) تفسير الطبري (١/ ٩١، رقم ١٠٩).

والاحتجاج به»[١]، تُوفِّي في مكةَ وهو ساجدٌ سنة أربع ومئة، عن ثلاث وثمانين سنة.

٢- قتادة:

هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري، وُلد أَكْمَه، أي: أعمى، سنة إحدى وستين، وجَدَّ في طلبِ العلم، وكان له حافظة قوية حتى قال عن نفسه: «ما قلت لمحدِّثٍ قطُّ: أعد لي، وما سمعت أذناي شيئًا قط إلا وعاه قلبي»[٢]، وذكره الإمام أحمد فأطنب في ذكره، فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير، ووصفه بالحفظ والفقه، وقال: «قلَّما تجد من يتقدَّمُه، أما المِثْل فلَعَلَّ»[٣].

الشرح

فقوله: «قلما تجد من يتقدمه» يعني، لم يكن أعظمَ منه، أما «المِثْلُ فلَعَلَّ» ما جزم بأن يكون له مثيل.

* * *

---

(١) ميزان الاعتدال (٣/ ٤٤٠).

(٢) التقييد لعروفة رواة السنن والمسانيد (١/ ٣٦٠)، وتهذيب التهذيب (٢٧/ ٥٠)، وتهذيب الكمال (٢٣/ ٥١٢).

(٣) الجرح والتعديل (٧/ ١٣٤)، وتهذيب التهذيب (٢٧/ ٥٠).

وقال: «هو أحْفَظُ أهل البصرة، لم يسمع شيئًا إلا حَفِظَه»[١]، وتُوفِّي في واسط سنة سبع عشرة ومئة، عن ستة وخمسين سنة.

الشرح

فهو صغيرٌ رحمه الله، وقد رُمِي بالتدليس، لكن يقولون: إن رواياته بلفظ (عن) عن أنس بن مالك متصلةٌ، ولهذا يَروي عنه البخاريُّ ومسلم بهذه الصيغة، أي: عن أنس.

***

(١) الجرح والتعديل (٧/ ١٣٤)، وتذكرة الحفاظ (١/ ٩٣)، وتهذيب الكمال (٢٣/ ٥١٥).

القرآن محكم ومتشابه

١- موقف الراسخين في العلم والزائغين من المتشابه.

٢- أنواع التشابه في القرآن.

٣- الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه.

الْقُرْآنُ مُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ

يتنوع القرآنُ الكريم باعتبار الإحكام والتشابه إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الإحكام العام؛ الذي وصف به القرآن كله، مثل قوله -تعالى-: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، وقوله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس:١]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤].

ومعنى هذا الإحكام الإتقانُ والجودةُ في ألفاظه ومعانيه فهو في غاية الفصاحة والبلاغة، أخبارُه كلُّها صدق نافعة، ليس فيها كذب، ولا تناقض، ولا لغو لا خيرَ فيه، وأحكامه كلُّها عدْل، وحِكَمه ليس فيها جَوْرٌ، ولا تعارضٌ، ولا حُكْمٌ سفيه.

النوع الثاني: التشابه العامُّ؛ الذي وُصِف به القرآن كله، مثل قوله -تعالى-: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣] ومعنى هذا التشابه، أن القرآن كلَّه يُشبه بعضُه بعضًا في الكمال والجودة والغايات الحميدة ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

النوع الثالث: الإحكامُ الخاصُّ ببعضِه، والتشابه الخاصُّ ببعضه؛ مثل قوله -تعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ

مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران:٧].

ومعنى هذا الإحكام أن يكون معنى الآية واضحًا جليًّا، لا خفاءَ فيه، مثل قوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات:١٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]، وقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ﴾ [البقرة:٢٧٥]، وقوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة:٣]، وأمثالُ ذلك كثيرةٌ.

ومعنى هذا التشابه: أن يكون معنى الآية مشتبهًا خفيًّا، بحيث يتوهَّم منه الواهمُ ما لا يليق بالله تعالى، أو كتابِه أو رسولِه، ويفهم منه العالِمُ الراسخ في العلم خلافَ ذلك.

الشرح

وهذا الإحكام والتشابه في القرآن على ثلاثة أنواع: إحكامٌ عامٌّ، وتشابه عامٌّ، وإحكامُ خاصٌّ، وتشابُه خاصٌّ، وكله وُصِفَ به القرآنُ، قال -تعالى-: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس:١]، أي المحكم، وهذا واضح أنه عام لكل القرآن.

وقال الله -تعالى-: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، فقوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ قيل: المعنى أُتقنت، وقيل: المعنى أُجملت، بدليل

قوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ والتفصيل جعله الله مقابلًا للإحكام، ولكن مع ذلك وحتى مع هذا الرأي لا يُمنع أن يكون محكمًا متقنًا على سبيل الإجمال والإتقان، ومفصلًا أيضًا.

قوله: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ هو الله -عز وجل- ﴿حَكِيمٍ﴾ أي: ذو حكمة بالغة، ﴿خَبِيرٍ﴾ أي: ببواطن الأمور، والعالِمُ ببواطن الأمور عالِمٌ بظواهرها سبحانه.

وقال -تعالى-: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤]، فأنت ترى أن القرآنَ كُلَّه وُصِف بالحكمة، وأنه حكيم، وحكيم بمعنى: محكم، وبمعنى: حاكم؛ لأن القرآن أداةُ الحكْمِ، ومعنى هذا الإحكام: الإتقانُ والجودة في ألفاظه ومعانيه، فكلُّه محكَمٌ متقن في أعلى ما يكون.

وهل هو يتفاضل في هذا الباب؟

الجواب: أما من حيث المتكلِّم به فإنه لا يتفاضل؛ لأن المتكلم به واحدٌ، هو الله -عز وجل-، وأما من حيث الأسلوب والمعنى: فإنه يتفاضل، قال النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- حين سأل أُبي بن كعب: «أَيُّ آيَةٍ أَعْظَمُ فِي كِتَابِ الله؟»، قال: آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥] فضرب على صدره، وقال: «لِيُهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْـمُنْذِرِ»(١)، وقال في الفاتحة: «إِنَّهَا أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي كِتَابِ الله»(٢)، وقال في ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين ومواضع السجود، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، رقم (٨١٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب وسميت أم الكتاب، رقم (٤٤٧٤).

«تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»[1]، فالقرآنُ يتفاضل من حيث الوجه، أما من جهة المتكلم به فلا يتفاضل.

والتشابه العام: هو أن القرآن يشبه بعضه بعضًا في الكمال، والجودة، والإحكام، والأحكام، والأخبار، وغيرها.

وقوله -تعالى-: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر:٢٣]، ولم يقل: بعضه متشابهًا، بل كله كتابًا متشابهًا مثاني.

وقوله: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ هذا بدل من أحسن.

وقوله: ﴿مَّثَانِىَ﴾ أي تثنى فيه المعاني والأحكام، ولهذا تجد الله -عز وجل- في كتابه العزيز إذا ذكر ثوابَ المؤمنين ذكر ثواب المجرمين، كما في سورة المطففين كتاب الفجار وكتاب الأبرار.

وأيضا مثاني بالنسبة لصفات الخلق: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، ﴿مَّثَانِىَ﴾ أي تُثَنَّى فيه المعاني والأحكام والأوصاف ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ أي خوفًا وتعظيمًا.

وأما الثالث: وهو أن بعض القرآن بعضه محكم وبعضه متشابه.

فالإحكام هنا: يعني: الواضح البيِّن، المحكم الذي لا يحتاج إلى تأمل طويل، ولا يختلف الناسُ فيه، مثال قوله -تعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧] يعني: يتبعون المتشابه ويحصرونه، ويوردونه على

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل قراءة قل هو الله أحد، رقم (٨١١).

الناس لِيُلَبِّسُوا عليهم دينهم، ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فقسَّم الله -تعالى- القرآن إلى قسمين: لقوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ﴾ «من» هنا للتبعيض، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ والمتشابه هو الذي يخفَى على بعضِ النَّاس، وبهذا نعرِفُ أنَّه لا تناقُض بينَ وصفِ القرآن كله بالإحكام، ووصفه كلِّه بالتشابه، ووصف بعضِه بالإحكام وبعضه بالتشابه.

قوله -تعالى-: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، في هذه الجملة اختلفَ السلفُ والخَلَفُ فيها، هل يوقف على قراءة الوقف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، أم يوصل ويقال: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾؟

والجواب: أن فيها قراءتين، وأكثر السلف على قراءة الفصل، يعني: الوقف ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ويكون ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ خبره، وبعض السلف يصل ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ أيضًا يعلمون وتكون جملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حالًا من الراسخين في العلم في موضع نصب، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ وليس بين الآيتين اختلاف، فالذين وقفوا على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قالوا: إن التأويل هو علم حقائق هذه المشتبهات ومآلها في المستقبل، وهذا لا يعلمه إلا الله.

والذين وصلوا قالوا: إن المراد التفسير، فإن الراسخين في العلم يعلمونه، ولهذا قال ابن عباس -رضي الله عنه-: «**أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله**»(١).

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٨٣).

لو قال قائل: في قوله -تعالى-: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ لو قيل بالوصل ألا يكون أولى؛ لأن الراسخين في العلم يعلمون متشابه الآيات؟

فالجواب: إن هذا يختلف، فإذا جعلتَ التأويل بمعنى التفسير، فالوصل أولى، وإن جعلتَ التأويلَ بمعنى المآل والعاقبة فالفصلُ أولى، ولهذا وَرَدَ عن السلف قراءتان، قراءةٌ بالوصل وقراءةٌ بالفصل، وبناءً على ذلك نقول: إن جَعَلْنَا مَعْنَى التأويل: التفسير، فالوصل، وإن جعلناه معنى: ما يؤول إليه الشيء فإن ذلك لا يعلمه إلا الله.

فإن قال قائل: ما الحكمة في وجود التشابه الخاص؟

قلنا: الحكمة في ذلك هي الامتحان والابتلاء؛ لِيعْلم الله -عز وجل- مَنْ في قلبه زيغ، ومن ليس في قلبه زيغ؛ لأن مَن في قلبه زيغ يتبع المتشابه ليضرب كلام الله بعضه ببعض، وأما الذي أعطاه الله الرسوخَ في العلم فإنه يعرف المتشابه كيف يتخرج من هذا، وضربنا لهذا أمثلة.

مسألة: الحروف الهجائية هل لها معنى في ذاتها؟

الجواب: لا، لأن القرآنَ بلسانٍ عربيٍّ، والعرب لا يرون للحروف معنى في ذاتها، لكن لها مغزى، وهو أن هذا القرآن الذي أعجز العرب لم يأتِ بجديد عليهم، بل أتى مما يركبون منه كلامهم وهي الحروف، ومع هذا عجزوا أن يأتوا بمثله، حتى أن مسيلمةَ الكذاب وغيره ممن ادعوا النبوة أرادوا أن يأتوا بمثله فأتوا بأمور مضحكة، كل من قرأ ما قالوا يضحك منه.

* * *

مثاله فيما يتعلق بالله تعالى: أن يتوهم واهمٌ من قوله -تعالى-: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] **أن لله يدين مماثلتين لأيدي المخلوقين.**

ومثاله فيما يتعلق بكتاب الله تعالى: أن يتوهم واهمٌ تناقض القرآن وتكذيب بعضه بعضًا حين يقول: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]، **ويقول في موضع آخر:** ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٧٨].

ومثاله فيما يتعلق برسول الله: أن يتوهَّم واهمٌ من قوله -تعالى-: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤] **ظاهرُه أن النبيَّ ﷺ كان شاكًّا فيما أُنزل إليه.**

الشـرح

هذا تشابُهٌ فيما يتعلق بالله -عز وجل-، وفيما يتعلق بكتاب الله، وفيما يتعلق برسول الله ﷺ، أما الأولُ وهو فيما يتعلَّق بالله -عز وجل- وهو أن يتوهَّم واهمٌ من قوله -تعالى-: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] أنهما تشبهان أيدي المخلوقين، ويبني هذا الوهم بأن يقول: إن الله خاطبنا في القرآن بما نعلم، ونحن لا نعلم يدًا إلا مثل أيدي المخلوقين، وهذا يقتضي أن تكون يدُ الله مشابهةً لأيدي المخلوقين.

ومثاله فيما يتعلق بكتاب الله: يقول: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]، ويقول: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٧٨] ففي الآية الأولى يقول: إن إصابة السيئة من نفسه وفي الثانية يقول: إن إصابتهم السيئة من عند الله، وهذا تناقض فكيف تكون إصابةُ السيئة مرةً من عند الله، ومرةً من عند أنفسهم؟

فيقول: هذا تناقض، وكذلك مثلها في الآيات، وقد ألَّف الشيخُ الشنقيطيُّ -رحمه الله-[(١)] كتابًا سماه «**دفع إيهام الاضطراب في آيات الكتاب**».

وأما فيما يتعلق برسول الله ﷺ فهو قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤] وجه التشابه: أن ظاهره أن النبيَّ ﷺ كان شاكًّا، ولهذا أحالَه على الذين يقرؤون الكتاب من قبله، فقال: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤]، ومن المعلوم أن النبيَّ ﷺ لم يشكَّ، ولا يمكن أن يشكَّ، وقد شهد الله -عز وجل- له بالإيمان في قوله -تعالى-: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ...﴾ الآية.

* * *

(١) هو العلاّمة المفسر محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، صاحب كتاب «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، ولد في موريتانيا، درس علوم القرآن والسيرة والأدب والتاريخ وعرف عنه الذكاء والاجتهاد حتى صار من علماء موريتانيا، فتولى القضاء في بلده، ثم خرج للحج عام (١٣٦٧هـ)، استقر على أثره مدرسًا في المسجد النبوي، ثم اختير للتدريس في المعهد العلمي بالرياض (١٣٧١هـ)، وصار عضوًا بارزًا في معهد القضاء العالي بالرياض (١٣٨٦هـ)، وكان من أوائل المدرسين في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية (١٣٨١هـ). توفي -رحمه الله- عام ١٣٩٣هـ.

مَوْقِفُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ وَالزَّائِغِينَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ

إن موقف الراسخين في العلم من المتشابه وموقف الزائغين منه بيَّنه الله تعالى، فقال في الزائغين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾، وقال في الراسخين في العلم: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، فالزائغون يتَّخِذُون من هذه الآيات المشتبهات وسيلةً للطعن في كتاب الله، وفتنةٌ الناس عنه، وتأويله لغير ما أراد الله تعالى به، فيَضِلُّون، ويُضِلّون.

وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بأن ما جاء في كتاب الله -تعالى- فهو حقٌّ، وليس فيه اختلافٌ ولا تناقض؛ لأنه من عند الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢] وما جاء مشتبهًا ردُّوه إلى المحْكَم؛ ليكون الجميعُ محكمًا.

ويقولون في المثال الأول: إن لله -تعالى- يَدَيْن حقيقيتين على ما يليق بجلاله وعظمته، لا تماثلان أيديَ المخلوقين، كما أن له ذاتًا لا تماثل ذوات المخلوقين، لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

الشـرح

يقولون: إن هذه الآية من المتشابه، وينقسم الناسُ فيها إلى ثلاثة أقسام:

قسمٌ قال: هي مماثلة لأيدي المخلوقين؛ وعلتهم في ذلك أن الله خاطبنا بما نعلم ونحن لا نعلم إلا ما نشاهد، وهؤلاء هم المَمَثِّلة.

والثاني قال: إن ظاهر الآية التمثيل، ولهذا يجب أن نصرفها عن ظاهرها إلى أمرٍ معنوي، ونقول: اليد بمعنى النعمة، أو بمعنى القدرة.

والقسم الثالث قال: نُثبت لله تعالى يدين حقيقيتين، لا تماثلان أيدي المخلوقين، أما إثبات اليدين؛ فلأن الله أثبتهما وهو أعلم بنفسه منا، وأما كونهما لا تماثلان أيدي المخلوقين، فلأن الله تعالى قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ هذا دليل سمعي.

ودليل عقلي: إذا كان لله ذاتًا لا تشبه ذوات المخلوقين، فليكن له صفات لا تشبه صفات المخلوقين؛ لأن الصفات تابعة للذات، وكلنا يعلم اليدَ المضافة إلى الجَمَل ليستْ كاليد المضافة إلى الأرنب مثلًا، فمجردُ ما يقول الإنسانُ: (يد أرنب) يعرف أنها يدٌ صغيرة تليق بالأرنب، أو يقول: (يد جَمَل) يعرف أنها يد كبيرة تليق بالجمل، فصفات كل شيء تناسبه، فإذا كنت أيها المعطِّل تُثبت أن لله ذاتًا، فهل تقول: إنها تماثل ذوات المخلوقين، فسيقول: لا، إذنْ أثبتَّ صفاتٍ لا تماثل صفات المخلوقين؛ لأن الكلام عن الصفات فرعٌ عن الكلام في الذات، وهذا قياس واضح؛ لأنه لو أنكر أن يكون لله ذاتًا لكَفَر؛ لأن هذا جَحْد مطلق.

***

ويقولون في المثال الثاني: إن الحسنةَ والسيئةَ كلتاهما بتقدير الله -عز وجل-، لكن الحسنة سببُها التفضُّل من الله -تعالى- على عباده، أما السيئة فسببها فعل العبد كما قال -تعالى-: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، **فإضافة السيئة إلى العبد من إضافة**

الشيء إلى سببه، لا من إضافته إلى مُقَدِّرِهِ، أما إضافة الحسنة والسيئة إلى الله تعالى فمن باب إضافة الشيء إلى مُقَدِّرِهِ، وبهذا يزول ما يُوهِم الاختلافَ بين الآيتين لانفكاك الجهة.

الشـــرح

إِذَنْ إضافة السيئةِ إلى الإنسان إضافةُ الشيء إلى السبب، وإضافتها إلى الله إضافةُ الشيء إلى مُقَدِّرِهِ، وبينهما فرق، وإذا انْفَكَّت الجهةُ زال التعارض؛ لأن التعارضَ إنما يكون فيما ورد شيئان على شيء واحد، أما مع انفكاك الجهة فلا تعارُضَ، لكن أهلَ الباطل يتخذون من مثل هذا وسيلةً إلى الطعن في القرآن.

كذلك -أيضًا- يقول الله -تعالى- عن المكذبين: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢]، وفي آية أخرى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] ففي الآية الأولى نَفَى أن يكتموا الله، وفي الثانية أَثْبَتَ أَنَّهم يكتمون، فيأتي إنسان ويقول: إن هذا القرآن تناقض، ومرة يقول: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]، ومرة يقول: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:١٠٢] هذا تناقض، لكن الراسخين في العلم يُجيبون عن هذا، يقولون: مثل يوم القيامة هو خمسون ألف سنة، وهذه المدة تتغيَّر فيها الأحوال، فمرة يكتمون، ومرة لا يكتمون، ومرة تكون الوجوه سودا، ومرة تكون زرقًا، أو يُحمل على أن الأزرق شديد الزُّرقة يميل إلى السَّواد، فيصح أن يكون أسودَ، أو يوصف بأنه أسودُ، على هذا الاعتبار.

المهم أنه فرَّق بين إنسانٍ يأتي بمثل هذه المتشابهات من أجل أن يطعن فيها بتناقض بعضها البعض، وبين إنسانٍ تَمُرُّ عليه، ويحاول أن يجمع بينها، فإن الأول لا يُفتح عليه ولا يُوفّق للجمع، والثاني يُوفَّق.

ونظير هذا ما يُطَنْطن به بعضُ الطلبة، تجدُه بمجرد ما يشتبه عليه حديثان يحملهما على وجه التماس التعارُضِ، ولو أنّه فكَّر قليلًا لعرف أنه لا تعارُضَ، وهذا يَرِدُ كثيرًا من بعض الطلاب، يحب الإغرابَ في بعض الشيء بمجرد ما يتوهَّم أن هناك تعارضًا بين حديثين أو آيتين، ويقول: كيف كذا، ما الجمع بين كذا، مع أنه لو تَأَمَّلَ أقلَّ تَأَمُّلْ، لعرف أنه لا تناقض.

***

ويقولون في المثال الثالث: أن النبي ﷺ لم يقعْ منه شكٌّ فيما أُنزل إليه، بل هو أعلم النَّاس به، وأقواهم يقينًا كما قال الله -تعالى- في نفس السورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٠٤] المعنى: إن كنتَ في شكٍّ منه فأنا على يقين منه، ولهذا لا أعبُدُ الذين تعبدون من دون الله، بل أكفُرُ بهم وأعبُدُ اللهَ.

الشرح

وإيراد هذه الآية من أصعب ما يكون فقال -تعالى-: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤] فيقول: هذا الرسول -عليه الصلاة والسلام- يشك، نقول: لم يقل له ذلك عن شكٍّ في رسوله، وكيف يكون ذلك، وهو قد قال في نفس السورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن

كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس:١٠٤]، والمعنى: إن كنتم في شكٍّ فأنا على يقين، فلا أعبد الذي تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم.

***

ولا يلزم من قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٩٤] **أن يكون الشك جائزًا على الرسول ﷺ، أو واقعًا منه. ألا ترى قوله -تعالى-:** ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، **هل يلزم منه أن يكون الولد جائزًا على الله تعالى أو حاصلًا؟ كلا، فهذا لم يكن حاصلًا، ولا جائزًا على الله تعالى، قال الله -تعالى-:** ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٢-٩٣].

ولا يلزم من قوله -تعالى-: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧] **أن يكون الامتراء واقعًا من الرسول ﷺ، لأن النهي عن الشيء قد يوجه إلى من لم يقع منه، ألا ترى قوله -تعالى-:** ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:٨٧]، **ومن المعلوم أنهم لم يصُدُّوا النبيَّ ﷺ عن آيات الله، وأن النبيَّ ﷺ لم يقع منه شرك. والغرض من توجيه النهي إلى من لا يقع منه التنديدُ بمن وقع منهم، والتحذيرُ من منهاجهم، وبهذا يزول الاشتباه، وظنُّ ما لا يليق بالرسول -صلى الله عليه وسلم-.**

الشــرح

إذنْ هذه الآية يتخذ منها أهل الزيغ طعنًا بالرسول ﷺ، ومعلوم أنه إذا ثبتَ الطعنُ لم يصحَّ أن يكون رسولًا، لكن نقول: إنه لا يلزم من قوله -تعالى-: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ أن يكون الشَّكُّ جائزًا، ولا أن يكون واقعًا من الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يلزم إن فرض أن يكون، ولهذا فَرَّق العلماء بين «إنْ» و«إذا»، وكلاهما شرطيتان، فقالوا: «إذا» تُفيدُ الوقوعَ، و«إنْ» لا تفيده، بل قد تأتي في أمحل المحال، ألا ترى إلى قوله -تعالى-: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ فهل يلزم من هذا أن يتخذ الله ولدًا؟ **الجواب**: لا يلزمُ، ولا يمكن يتخذ أن الله ولدًا؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾.

إذنْ: فما معنى الآية: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾؟

معناها إنْ فُرِض أنَّ له ولدًا، فأنا أولُ العابدين لهذا الولد، فلا أنكره، لكن هذا أمرٌ غير ممكن، فإذا امتنع الشرطُ امتنع المشروط، كقول الشاعر(١):

إِذَا شَابَ الْغُرَابُ أَتَيْتُ أَهْلِي ... وَصَارَ الْقَارُ كَاللَّبَنِ الْحَلِيبِ

فمعلومٌ أن الغرابَ لا يشيب، وأن القارَّ الأسودَ لا يكون كاللبن الأبيض، فكذلك هنا على فرضِ أنَّ له ولدًا، فأنا أولُ من يعبُدُ هذا الولدَ؛ لأنه ولدُ الله، وجُزْءٌ منه، ولكن هذا مستحيلٌ، وهذا القولُ هو أحسن الأقوال، ولا يحتاجَ إلى تقدير، ولا إلى تمَحُّنٍ.

---

(١) البيت غير منسوب ، ذكره ابن حبان في روضة العقلاء (ص:١١٧)؛ والدميري في حياة الحيوان (٢/ ٢٤٤)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٨٩).

وقيل: إنَّ «إنْ» نافية، والمعنى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ «إن» تأتي بمعنى النفي، وهي كثيرة في القرآن فيكون ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾، لكن يشكل عليه وجه ارتباطها بالجملة التي قبلها، وذلك إذا قلت: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾، فهذا لا يمكن إلا إذا أولنا «الْعَابِدِينَ» بمعنى «المؤمنين» ما كان للرحمن ولدٌ، فأنا أول المؤمنين بذلك، أي: بأنه لا ولدَ له، وتكون العبادةُ هنا مطلقةً على الإيمان، بجامع الذل في كلٍّ منهما، ومع هذا فهو خلافُ الظاهر للآية، فهو يُنافي ظاهرَها منافاةً تامة؛ لأن الآيةَ صريحةٌ أنَّ «إنْ» شرطيةٌ، ومعناها ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ فيكونُ بهذا تنديدًا للنصارى الذين يعبُدُون عيسى، فهذان القولان هما أشهرُ الأقوالِ في هذه الآية، وهيَ من أَعْوَص الإيرادات في آيات القرآن الكريم.

وكذلك لا يلزم من قوله -تعالى-: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أن يكون الامتراء واقعًا من الرسول ﷺ؛ لأن النهيَ عن الشيء قد يُوجَّه إلى من لم يقع منه، ألا ترى إلى قوله -تعالى-: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:٨٧]، ومن المعلوم أنهم لم يصدُّوا الرسولَ ﷺ عن آيات الله، وأن النبيَّ ﷺ لم يقع منه شيء، فالنهي عن الشيء لا يلزم منه وقوعُ الشيء، ولا جوازُ وقوع الشيء أيضًا.

وهل يلزم أنه يجوز؟

الجواب: لا يلزم أنه جائز أن يصدوه، بل ولا يلزم أن يصدوه؛ لأن الله -تعالى- قال: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥].

فقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ إذنْ الرسولَ ﷺ مُثبَّتٌ، لا يمكن أن يصده هؤلاء، وعلى هذا لا يلزم من النهي كونُه من الممترين، ولا أن يقع منه الامتراء، أو أن يجوز عليه الامتراء، كما أن قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، لا يلزم وقوع الشرك منه، ولا جوازُ وقوع الشرك من الرسول عليه الصلاة والسلام.

فما الفائدة أن يُوجَّه النهيُ إلى من لا يمكن أن يقع منه ما نُهي عنه؟

الجواب: الغرضُ من توجيه النهي إلى من لا يقع منه التنديدُ بمن وقع منهم، والتحذيرُ من منهاجهم، على حد قول القائل: «إياك أعني واسمعي يا جارة»[(١)].

* * *

(١) جمهرة الأمثال (١/ ٢٩)، ومجمع الأمثال (١/ ٤٩).

أَنْوَاعُ التَّشَابُهِ فِي الْقُرْآنِ

التشابه الواقع في القرآن نوعان:

أحدهما: حقيقي؛ وهو ما لا يمكن أن يعلَمَه البشرُ، كحقائق صفات الله -عز وجل-، فإننا وإن كنا نعلم معاني هذه الصفات، لكننا لا ندرك حقائقها، وكيفيتها لقوله -تعالى-: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، وقوله -تعالى-: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، ولهذا لما سُئِل الإمامُ مالك -رحمه الله- تعالى عن قوله -تعالى-: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[1]، وهذا النوع لا يسأل عن استكشافه لتعذر الوصول إليه.

الشـرح

التشابه الواقع في القرآن نوعان:

الأول: حقيقي: وهو ما يخفى على كلِّ أحدٍ، ولا يمكن الوصول إلى معرفته، وهذا مشتبهٌ حقيقيٌّ، فموقِفُنا منه أن نكِل عِلْمَه إلى الله -عز وجل-، ونقول: الله أعلم.

مثاله: حقائق صفات الله -عز وجل-؛ فإن حقائق هذه الصفات لا تُعلم،

(١) اعتقاد أهل السنة للالكائي (٣/ ٣٩٨)، والأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٣٠٦)، وحسنه ابن حجر في الفتح (٣/ ٤٠٧)، وأخرجه أيضا ابو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٦)، والدارمي في الرد على الجهمية (٢٨٠).

فنحن قد نعلم المعنى، ولكن لا نعلم الْكُنْه والحقيقةَ، ودليلُ ذلك قوله -تعالى-: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ فمهما كان الإنسانُ عالمًا وذكيًّا، فإنه لا يُمكنه أن يُحيط بالربِّ علما أبدًا، ولا يعلم من عِلْم الله إلا ما علَّمَه الله، كما قال الله -تعالى-: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال -تعالى-: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ فالأبصارُ لا تدركه وإن رَأَتْه، وهو يدرك الأبصارَ، وقد استدلَّ بهذه الآية من رأى أن اللهَ لا يُرى في الآخرة، وقال: إن الله -تعالى- يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، والحقيقةُ أن الآيةَ حُجَّةٌ عليه، وليست حُجَّةً له؛ لأن نفي الإدراك يدُلُّ على وجود أصل الرؤية، ولو كان أصلُ الرؤية غيرَ موجودٍ لكان نفي الإدراك قصورًا ولَغْوًا من القول لا فائدة منه.

ولما سئل الإمام مالك -رحمه الله- عن ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ قال: «الاستواء غير مجهول»، أي: معلوم المعنى في اللغة العربية، و«الكيف غير معقول»، أي: لا يُدرَك بالعقل، وإذا لم يُدرك بالعقل فلا مردَّ إلا إلى السمع، والسمعُ لم يرد به.

وهنا أقول: إن بعضَ الطلبة لا يدري ما معنى السمع أو العقل؟

والجواب: أن ما كان دليلُه الكتاب والسنة فهو ثابتٌ بالسمع؛ لأن الكتاب والسنة مسموعان، وما كان دليلُه النظر فهو بالعقل، ولهذا يسمى المتكلمون بالنُظَّار؛ لأنهم ادَّعوا أنهم هم أهلُ العقول.

و«الإيمان به واجب»، أي: الاستواء، و«السؤال عنه»، أي: عن كيفيته «بدعة».

وهذا النوع يقول المؤلف: لا يُسأل عن استكشافه، فهل النفي هنا للكراهة أم للتحريم؟

الظاهر أنه للتحريم، فهي وإن كانت تحتمل المعنيين، لكن الظاهر أنها للتحريم؛ لأن مالك بن أنس اشتد في السؤال عن الكيفية، وقال للسائل: «ما أُرَاْكَ إلا مبتدعًا»، وأمر به أن يخرج من المسجد.

وهنا مسألة: هل آيات الصفات من المتشابه أم هي من المحكم؟

الجواب: نقول: لا يجوز إطلاقُ آيات الصفات من المتشابه، لكن إذا أطلق عليه المتشابه فإننا نقول: إن أراد بالتشابه خفاءَ المعنى فهذا غلط؛ لأن معناها واضح ظاهر، وإن أراد خفاءَ الحقائق فهذا صحيح؛ لأن هذا من المتشابه؛ لأنه لا يمكن أن نصل إلى معرفة حقائقه.

* * *

النوع الثاني: نسبي: وهو ما يكون مشتبهًا على بعض الناس دون بعض، فيكون معلومًا للراسخين في العلم دون غيرهم، وهذا النوع يسأل عن استكشافه وبيانه؛ لإمكان الوصول إليه، إذ لا يوجد في القرآن شيء لا يتبين معناه لأحد من الناس، قال الله -تعالى-: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨].

الشـرح

قوله -تعالى-: ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: كلِّ الناس، وقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: لا يهتدي به ويتعظ إلا المتقون.

وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٨-١٩]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤].

الشــرح

قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ إذنْ هو مُبِين؛ لأن المبين للشيء لا بد أن يكون هو بيِّنًا، فكل شيء يحتاج الناسُ إلى بيانه فإنه موجودٌ في القرآن، إما منصوصًا عليه، أو مدلولًا عليه بالإشارة.

وقد قرأتُ لبعض العلماء المعاصرين أنه كان في مطعم في إحدى الدول الغربية، وكان في هذا المطعم رجلٌ من النصارى، فأتى إلى هذا العالم ليُشَبِّه عليه، فقال: أليس قرآنكم تبيانًا لكل شيء؟ فقال: نعم، هو تبيانٌ لكل شيء، فقال: هذا الطعام هل ذُكر في القرآن؟ -وهذا السؤالُ في الحقيقة ليس له وجهٌ؛ لأن القرآنَ لم ينزل إرشادًا للمطابخ- فقال العالِمُ: نعم، هو موجود في القرآن، فسأل العالم صاحب المطبخ كيف تصنعون هذا الطعام؟ فوصف له كيفيةَ صُنع الطعام، فقال العالم: هكذا جاء في القرآن فقال النصراني: أين هذا في القرآن؟! فقال العالم: قال الله -تعالى-: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، فما لم ينُصَّ عليه في القرآن، أرشدنا كيف نتوصل إليه.

وقال الله -تعالى-: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ إذا قرأه جبريلُ عليك.

وهل الله يقرأه عليه؟

الجواب: لا، لكن الذي يقرأه هو جبريل -عليه السلام-، فلما كان جبريلُ رسولًا من رب العالمين، صارت قراءتُه كقراءة الله -عز وجل-، وأطلق الله الفعلَ على نفسه، والمراد به الرسول ﷺ؛ لأن الرسولَ مُبَلِّغٌ، ومن هنا نصل إلى فائدة عظيمة في قول الله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠].

فلو قال قائل: كيف يبايعون الله، والله فوق العرش في السماء وهؤلاء تحت الشجرة؟

قلنا: يبايعون الله؛ لأنهم يبايعون رسولَه ﷺ، ومبايعةُ رسوله مبايعةٌ له، كذلك قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ فالذي فوقَ أيديهم هو يد الرسول ﷺ، فلما كانت يدُ رسول الله صارت كأنها يدُ الله؛ وحينئذٍ لا إشكال في الآية، وهذا خلافٌ لمن قال: إن في الآية إشكالًا، لكن يجاب عليه بما سبق.

قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، أي: لفظًا ومعنى، وقال الله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾، والبرهان والنور لا بد أن يكون بيِّنًا، ولا يمكن أن يوجد في القرآن شيءٌ لا يعلم أحدٌ معناه أبدًا.

* * *

وأمثلة هذا النوعِ كثيرةٌ، منها قوله -تعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، حيث اشتبه على أهل التعطيل، ففهموا منه انتفاء الصفات عن الله تعالى، وادَّعوا أن ثبوتها يستلزم المماثلة، وأعرضوا عن الآيات الكثيرة الدالة على ثبوت الصفات له، وأن إثبات أصل المعنى لا يستلزم المماثلة.

الشـــرح

هذه الآيات ضلَّ فيها طائفتان: طائفة غلوا في نفيها، وفهموا أنها تدل على نفي كل صفة، وقالوا: إنك إذا أثبتَّ أيَّ صفةٍ فقد مثَّلْتَ، وهؤلاء هم أهل التعطيل، وبعضُهم قال: إنه ليسَ كمثلِه شيءٌ في الصفات الخبريَّة فقط، كالوجه واليدين وما أشبه ذلك، وبعضُهم قال: إنه ليس كمثله شيءٌ في كل الصفات، وأن نفيَ المِثْل يدُلُّ على ثبوت أصل المعنى؛ لأنه لولا ثبوتُ أصل المعنى لكان نفيُ المِثْل لَغْوًا لا فائدةَ منه.

* * *

ومنها قوله -تعالى-: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣] حيث اشتبه على الوعيدية، ففهموا منه أن قاتل المؤمن عمدًا مخلدٌ في النار، وطردوا ذلك في جميع أصحاب الكبائر، وأعرضوا عن الآيات الدالَّة على أن كلَّ ذنبٍ دون الشرك فهو تحت مشيئة الله تعالى.

الشـــرح

الوعيدية: هم المعتزلة والخوارجُ، سمُّوا بذلك لأنهم قالوا بنصوص الوعيد، وأعرضوا عن نصوص الرجاء، فالمعتزلة قالوا: فاعل الكبيرة مخَلَّدٌ في النار، والخوارج قالوا: فاعل الكبيرة مخلد في النار، لكنَّ الخوارج أجرأ على حكمهم من المعتزلة فقالوا: هو كافر؛ لأنَّ حكم الخلود لا يكون إلا للكافرين، وكَفَّرُوْا كل فاعل كبيرة، واستحلوا دماء المسلمين بناءً على هذا الأصل الخبيث.

وأما المعتزلة فقالوا: لا نقول: مؤمن ولا كافر، هو في منزلة بين المنزلتين، فلا يجوز أن نصفه بالإيمان، ولا يجوز أن نصفه بالكفر، لكن في الآخرة يوافقون الخوارج، ويقولون: هو مخلَّدٌ في النار، وطردوا ذلك في جميع أصحاب الكبائر، وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن كل ذنب تحت الشرك فهو تحت المشيئة، والدليل على هذا قول -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

ومن المناسبات الجيدة أن آية ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ وقعت بين آيتين كلتاهما تدل على أن ما سوى الشرك فإنه تحت المشيئة، ففي أول سورة النساء، قال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨]، ثم جاءت آية القتل، ثم جاءت الآية الثانية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦].

إذنْ هذه الآية لا تدل على أن قاتلَ النفس مخلَّدٌ أبدًا في نار جهنم؛ لأن الآيات الأخرى والنصوص الأخرى تدل على أن ما دون الشرك فهو تحت المشيئة.

لكن كيف الجواب: عن قوله -تعالى-: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾؛ لأن الأصل في الخلود الدوام، فإذا ذكر التأبيدُ فهو من باب التوكيد فقط؟

الجواب على هذا أن يقال: إن هذا من باب جنس النصوص التي فيها الوعيد، فالقتل سبَّبَ هذا لكن إذا وجد المانع انتفى، أي: انتفى مفعول السبب

كأسباب الإرث، وموانع الإرث، فالأشياء لا تتم إلا بوجود شروطها، وانتفاء موانعها.

فإذا قال قائل: أنتم بذلك سلبتم نصوص الوعيد، فإذا كان هذا لا يتحقق مع وجود المانع فما الفائدة؟

قلنا: الفائدة أمران:

الأمر الأول: التغليظُ في الوعيد، وهو أسلوبٌ جرى به لسان العرب، وهو يُستعمل في عُرْفِنا الآن، تقول الأم لولدها: اذهب فأتِ بكذا وإلَّا قتلتك، وهي تقصد التهديد.

الأمر الثاني: أنه ربما يكون قتله للمؤمن عمدًا سببًا لكفره، وإذا كفر استحقَّ الخلودَ في النار -والعياذ بالله-، ولهذا جاء في الحديث: «**لَا يَزَالُ الرَّجُلُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا**»[1]، يعني: في سعة من دينه إلا إلا إذا أصاب دمًا حرامًا فسيضيق عليه الدِّين وربما فرَّ منه.

إذنْ: الآية الأولى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣] هذا يكون وعيدًا شديدًا لمن قتل مؤمنًا متعمدًا، يعني: هو وعيد لا يراد ظاهره، بل يراد به التهديد والتنفير، فنقول هذا من باب التهديد وليس على سبيل الحقيقة، وإنما هو للمبالغة في التنفير عنه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدِّيات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ...﴾، رقم (٦٨٦٢).

هذا قولٌ، وقيل: الآية مطلقة، أي: مطلقة على كل حال، وهذا جواب غير سديد.

وقيل **ما قاله ابن عباس**: أن هذا سببٌ للخلود، ولكن قد توجد موانع تمنعه وهو الإيمان، ولا مانع أن يرتب المسبب على السبب، ثم يأتي المانع فيمنع، أرأيتم القرابة، هي سبب من أسباب الإرث، وربما يكون القريب مخالفًا لمورثه في الدين فلا يرث، فإذا هلك هالكٌ عن ابن فالابن يرثه، لكن إذا كان مخالفًا له في الدين فإنه لا يرث، وكذلك فإن هذا من باب الأسباب، والقتل عمدًا سببٌ للخلود، لكن قد توجد موانع تمنع منه.

وقيل: أن يكون مستحلًا دمه.

وقيل: إن المراد بالخلود هنا المكث الطويل دون التأبيد، وهذا سائغ في اللغة العربية.

وهل مَنْ يستِحلُّ دمه، يكون خالدًا الخلود الحقيقي؟

الجواب: نعم، يعني: أن من يقتل مؤمنًا متعمدًا مستحلًا دمه فجزاؤه جهنم خالدًا فيها، وهذا الجواب ذُكِرَ للإمام أحمد -رحمه الله- فتعجب منه تعجب استنكارٍ لا إقرارًا، وقال: «إنه إذا استحل قَتْل المؤمن عمدًا كفر وإن لم يقتله»[(١)]، فإذنْ هذا مردود.

ونظير هذا التأويل الذي ذُكِرَ تأويل بعضهم لنصوص كفر تارك الصلاة إلى أن المعنى: من استحلَّ ذلك وأنكر وجوبها، فيقال: سبحان الله!

(١) لوامع الأنوار البهية (١/ ٣٧٠).

إذا أنكر وجوب الصلاة فهو كافرٌ ولو صلى وراء الإمام كل وقت، ولا يستقيم هذا.

وعلى كل حال فهذه أربعة أجوبة **أقربها إلى الصواب أن يقال**: إن هذا من باب الأسباب، والأسباب قد يوجد لها موانع تمنع، أو يقال إن هذا من باب المكث الطويل، لكن هذا يرد عليه فيمن قتل نفسه فإنه جاء عن النبي -عليه الصلاة والسلام- ذكر التأبيد مَنْ قتل نفسَه بشيء فإنه يعذب به في جهنم خالدًا مخلدًا أبدًا[(١)].

وربما يقال: إن مَنْ قتل نفسه أشد ممن قتل غيره؛ لأن الإنسان مأمور بالمحافظة على نفسه، لكن مع ذلك ففيها شيء من الإشكال؛ لأن قاتل نفسه لا يخرج من الإسلام فهو يُصلَّى عليه، ويكفن، ويغسل، ويدفن في مقابر المسلمين.

وهل هؤلاء كفار لأن من لا يدخل الجنةَ كافرٌ؟

اختلف أهل العلم في هذا الحديث، وما يشبهه من أحاديث الوعيد على أقوال:

القول الأول: مذهب المعتزلة والخوارج؛ الذين يأخذون بنصوص الوعيد، فيَرَوْن الخروجَ من الإيمان بهذه المعصية، لكن الخوارجَ يقولون: هو كافر، والمعتزلة يقولون: هو في منزلة بين المنزلتين، وتتفق الطائفتان على أنهم مخلدون في النار، فَيُجْرُون هذا الحديثَ ونحوه على ظاهره، ولا ينظرون إلى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في قاتل النفس، رقم (١٣٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١٠٩).

الأحاديث الأخرى الدالة على أن مَنْ في قلبه إيمانٌ وإن قَلَّ؛ فإنه لا بد أن يدخل الجنة.

القول الثاني: أن هذا الوعيد فيمن استحل هذا الفعل؛ بدليل النصوص الكثيرة الدالة على أن مَنْ في قلبه إيمانٌ وإن قلَّ؛ فلا بد أن يدخل الجنة، وهذا القولُ ليس بصواب؛ لأن من استحلَّه كافرٌ ولو لم يفعله، فمن استحلَّ قطيعةَ الرحم، أو شرب الخمر -مثلًا-؛ فهو كافرٌ، وإن لم يقطع الرحم ولم يشرب الخمر.

القول الثالث: أن هذا من باب أحاديث الوعيد التي تمر كما جاءت ولا يتعرض لمعناها؛ بل يقال: هكذا قال الله -عز وجل-، وقال رسوله ﷺ ونسكت؛ فمثلًا: قوله -تعالى-: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣] هذه الآية من نصوص الوعيد؛ فنؤمن بها، ولا نتعرض لمعناها ومعارضتها للنصوص الأخرى، ونقول: هكذا قال الله، والله أعلم بما أراد، وهذا مذهب كثير من السلف؛ كالإمام مالك -رحمه الله- وغيره، وهذا أبلَغُ في الزجر.

القول الرابع: أن هذا نفيٌ مُطْلَقٌ، والنفيُ المطلق يُحمَل على المقيَّدِ؛ فيُقال: لا يدخلون الجنةَ دخولًا مطلقًا، يعني: لا يسبقه عذاب، ولكنهم يدخلون الجنةَ دخولًا يسبقه عذابٌ بقَدْر ذنوبهم، ثم مرجعُهم إلى الجنة؛ وذلك لأن نصوصَ الشرع يُصدِّق بعضُها بعضًا، ويلائِم بعضُها بعضًا، وهذا أقربُ إلى القواعد وأَبْيَنُ حتى لا تبقى دلالةُ النصوص غيرَ معلومة؛ فتقيَّد

النصوصُ بعضُها ببعض.

وهناك احتمالٌ: أن من كانت هذه حالَه حَرِيٌّ أن يُختم له بسوء الخاتمة، فيموت كافرًا، فيكون هذا الوعيد باعتبار ما يؤول حالُه إليه، وحينئذٍ لا يبقى في المسألة إشكالٌ؛ لأن مَنْ مات على الكفر؛ فلنْ يَدخل الجنة، وهو مخلَّدٌ في النار، وربما يؤيده قوله ﷺ: «**لَا يَزَالُ الْـمَرْءُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا**»(١)؛ فيكون هذا قولًا خامسًا.

فإن قال قائل: قوله: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾، لماذا لا نقول مثل ما قال بعضُ السلف: نُمِرُّها كما جاءت؟

الجواب: إن هذا لا يستقيم إطلاقًا؛ لأننا إذا قلنا: (نُمِرُّها كما جاءت)، فهي جاءت بالخلود، فيعود الإشكال.

وهل له وجه من يقول: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا﴾، أي: لأجل الإيمان؟

الجواب: إن كراهته لإيمانه، وإن لم يقتله توجب الكفرَ؛ لأن الراسخين يخرجون هذه الآيات المتشابهة.

مسألة: هل الحروف المقطعة من المتشابه؟

الجواب: هي متشابِهة عندَ قوم، والصحيحُ أنها ليست من المتشابه، بل من الواضح، وأنه ليس لها معنى.

***

(١) أخرجه البخاري: كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ...﴾، رقم (٦٨٦٢).

ومنها قوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠]، حيث اشتبه على الجبرية، ففهموا منه أن العبد مجبورٌ على عمله، وادَّعَوْا أنه ليس له إرادةٌ ولا قدرة عليه، وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن للعبد إرادةً وقدرةً، وأنَّ فِعْلَ العبد نوعان: اختياريٌّ، وغيرُ اختياريٍّ.

والراسخون في العلم أصحابُ العقول، يعرفون كيف يُخَرِّجون هذه الآيات المتشابهة إلى معنى يتلاءم مع الآيات الأخرى، فيبقى القرآنُ كله محكمًا لا اشتباه فيه.

الشـرح

قوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

فقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ تُؤول إلى: «قد علمتَ»، والاستفهام هنا للتقرير، والخطاب للنبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، أو لكلٍّ من يتأتَّى خطابه.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿مَا﴾ اسمٌ موصول يدل على العموم. وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾، يعني: أن ما في السماء والأرض مكتوبٌ في اللوح المحفوظ.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: كتابة ما في السماء والأرض.

وقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ بحيث اشتبه على الجبرية، ففهموا منه: أن العبدَ مجبورٌ على عمله، وادَّعَوْا أنه ليس له إرادةٌ ولا قدرةٌ، فالجبريَّة يقولون:

إن الإنسانَ مجبَرٌ على عمله ليس له إرادة ولا اختيار، وأن حركاته كتحرك الرِيش في الهواء، وأن من نزل من السطح في الدَّرَج درجةً درجةً كالذي أسقط من السطح كلاهما ليس له إرادة، ولا شك أن هذا قولٌ باطل يُبطله الحسُّ، ويُبطله العقلُ، ويُبطله السمع، أما السمع فإن الله أثبت في عدة آيات المشيئة للعبد وإرادته فقال: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، وقال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]، وقال: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]، وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود:١٥]، والآيات في هذا كثيرة.

وأما العقل، فإنه من المعلوم أنه لو كان الله تعالى مجبِرًا عباده على ما يفعلون، ثم يعذبهم في المخالفة، لكان هذا أمرًا لا يليق بالله -عز وجل-؛ لأنه ظلم.

وأما الحسُّ فظاهر، فكل إنسان يعرف أنه يدخل، ويخرج، ويذهب ويجيء باختياره، ولا يرى أن أحدًا يكرهه على هذا، ونفرق بين الفعل الاختياري، والفعل الإجباري، فهؤلاء اشتبه عليهم، وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن للعبد إرادةً وقدرةً، وقد ذكرنا الإرادة.

وأما القدرةُ فقوله -تعالى-: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ [القلم:٢٥]، وأن فعل العبد نوعان: اختياري، وغير اختياري، وهذا هو الصحيح، ولذلك كان النوع غير الاختياري غير مؤاخذ عليه؛ لأنه ليس من فعله.

وينبغي للإنسان أن يسأل الله دائما أن يهديه للحق، وانظر إلى فعل الرسول -عليه الصلاة والسلام- كان يفتتح قيام الليل وهو أول صلاة يصليها بعد النوم بقوله: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَمِيكَائِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ**»(١)، وهو الرسول، يسأل الله أن يهديه لما اخْتُلِف فيه من الحق؛ فعلى العبد أن يسأل الله دائما أن يهديه لما اخْتُلِف فيه من الحق، سواء في العقائد أو العمليات؛ لأن الإنسان بشر يجهل كثيرًا، وينسى كثيرًا، وقد قال الله -عز وجل-: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، فلا تعتمد على ذكائك، ولا على كثرة علومك، بل اعتمد على الله، واسأل اللهَ دائما أن يهديك لما اخْتَلَفَ الناسُ فيه من الحق.

***

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠).

الْحِكْمَةُ فِي تَنَوُّعِ الْقُرْآنِ إِلَى مُحْكَمٍ وَمُتَشَابِهٍ

لو كان القرآن كلُّه محكمًا لفاتت الحكمةُ من الاختبار به تصديقًا وعملًا لظهور معناه، وعدم المجال لتحريفه، والتمسك بالمتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ولو كان كلُّه متشابها لفات كونُه بيانًا، وهدىً للناس، ولما أمكن العمل به، وبناء العقيدة السليمة عليه، ولكن الله -تعالى- بحكمته جعل منه آياتٍ مُحْكَماتٍ، يُرجع إليهن عند التشابه، وأُخر متشابهاتٍ امتحانًا للعباد، ليتبين صادق الإيمان ممن في قلبه زيغ، فإن صادق الإيمان يعلم أن القرآن كله من عند الله تعالى، وما كان من عند الله فهو حقٌّ، ولا يمكن أن يكون فيه باطل، أو تناقض؛ لقوله -تعالى-: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]. وقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

وأما من في قلبه زيغ، فيتخذ من المتشابه سبيلًا إلى تحريف المحكم واتباع الهوى في التشكيك في الأخبار والاستكبار عن الأحكام، ولهذا تجد كثيرًا من المنحرفين في العقائد والأعمال، يحتجُّون على انحرافهم بهذه الآيات المتشابهة.

الشــرح

ولهذا لو كان القرآنُ كلُّه محكمًا، لفاتت الحكمة من الاختبار والامتحان، ولو كان كله متشابهًا، لفات البيان للناس والإيضاح، فكان من حكمة الله -عز وجل- أن جعل بعضَه محكمًا، وبعضَه متشابهًا، والمؤمن يعلم أن كلًّا من عند الله -عز وجل-، ولا يمكن أن يكونَ فيه تناقُضٌ، ثم يحاول

أن يَرُدَّ المتشابِهَ إلى المحكم، والذي في قلبه زيغٌ يأخُذُ بالمتشابهات، إما قهرًا عليه، وإما اختيارًا؛ لكنه يأخذ أولًا اختيارًا بالمتشابهات، ثم يزيغ قلبه فيلتبس عليه الأمرُ، ولهذا قال الله -تعالى-: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، ويقُولُ الله -عز وجل-: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، فإذا لم يُؤْمِنِ الإنسانُ بالوحي أول مرة زاغ قلبُه -نسأل الله العافية-.

فلذلك كان هؤلاء الذين يتبعون المتشابه، ويأخذون منه سبيلًا إلى الطعن في القرآن، كانوا هم الذين لم يُفْتَح لهم بابُ البيان ولا الهدى، بل ظلوا في طغيانهم يعمهون، فتبين الحكمة من ذلك، وهو امتحانٌ واختبارٌ بين المؤمن الراسخ في العلم، ومَنْ في قلبِه زيغ.

***

موهم التعارض في القرآن

مُوهِمُ التَّعَارُضِ فِي الْقُرْآنِ

التعارض في القرآن أن تتقابل آيتان، بحيث يمنع مدلولُ إحداهما مدلولَ الأخرى، مثل أن تكون إحداهما مثبتةً لشيءٍ والأخرى نافيةً له.

الشــرح

هذا تعريفُ التعارض، وهو تعارُضُ التقابل من كل وجه، بحيث يمنع مدلولُ أَحدهما مدلولَ الأخرى، وأما إذا كان التقابل من بعض الوجوه فهذا ليس بتعارض، كما يكون بين العامِّ والخاصِّ، فإن العامَّ يدل على شمول الحكم للأفراد، والخاصَّ يدل على اختصاصه بأحدها، وهذا ليس بتعارض؛ لأنه ليس تقابلًا من كل وجه.

***

ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما خبري، لأنه يلزم كون إحداهما كذبًا، وهو مستحيل في أخبار الله تعالى، قال الله -تعالى-: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]، ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما حُكْمِيٌّ؛ لأن الأخيرة منهما ناسخة للأولى، قال الله -تعالى-: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦]، وإذا ثبت النسخُ كان حكمُ الأولى غيرَ قائمٍ ولا معارِضٍ للأخيرة.

الشـرح

أي أن التعارض ممنوعٌ سواء كان في أمرٍ خبري، أو أمر حُكمي، أما في الأمر الخبري، فلو وقع التعارُض بحيث تكون الآية من كتاب الله تُثْبِتُ شيئًا والأخرى تنفيه، لزم من ذلك أن يكون إحدى الآيتين كاذبةً، وهذا مستحيلٌ في خبر الله -عز وجل-، وأما الأمرُ الحكمي فإنه لا يمكن التعارُض؛ لأن التعارُضَ من كل وجه لا بد أن تكون إحداهما ناسخة للأخرى، ونسخ الأحكام جائز، فالمتأخر ناسخ والمنسوخ غير قائم، فلا تعارَض.

والمقصود هنا أن نقرر أنه لا يمكن أن يبقى التعارض بين آيتين في كتاب الله بدون حل الخبر، وقلنا: لا يمكن؛ لأنه يلزم من ذلك تكذيب إحداهما للأخرى في الحكم، أيضًا لا يمكن؛ لأنه إذا وقع التعارُضُ من كل وجهٍ، فالثَّاني متأخِّرٌ ناسخ، فيبقى الثاني لا مقاومَ له، ولا تعارض.

***

وإذا رأيت ما يوهم التعارُضَ من ذلك، فحاولِ الجمعَ بينهما، فإن لـم يتبين لك وجب عليك التوقف، وتَكِلَ الأمرَ إلى عالِـمِه.

وقد ذكر العلماءُ -رحمهم الله- أمثلة كثيرة لما يوهم التعارُضَ، بيَّنوا الجمع في ذلك. ومِنْ أجمع ما رأيتُ في هذا الموضوع كتاب «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» للشيخ محمد الأمين الشنقيطي-رحمه الله تعالى-.

الشـــرح

وهذا البحث مهمٌّ جدًّا بالنِّسبة للقرآن؛ لأن الإنسان يتعوَّد به كيف يجمع بين الآيات، ويوقن بأن القرآن ليس فيه تعارُضٌ، لذلك ينبغي للإنسان أن يُطالِع مثلَ هذه الكتب التي فيها الجمعُ بين الآيات التي ظاهرها التعارض.

* * *

فمن أمثلة ذلك قوله -تعالى- في القرآن: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، وقوله فيه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥] فجعل هداية القرآن في الآية الأولى خاصةً بالمتقين، وفي الثانية عامةً للناس، والجمع بينهما أن الهداية في الأولى هداية التوفيق والانتفاع، والهداية في الثانية هداية التبيين والإرشاد.

الشـــرح

قوله -تعالى-: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ كأن بينهما تعارضًا فيما يظهر؛ لأن المتقين أخصُّ من عموم الناس، فيقال: الجمع بينهما: أن الهداية هدايتان هداية توفيق وعمل، وهذا للمتقين، وهداية بيان وإرشاد، وهذا لجميع الناس.

* * *

ونظير هاتين الآيتين، قوله -تعالى- في الرسول ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦]، وقوله فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، فالأولى هداية التوفيق، والثانية هداية التبيين.

الشـــرح

فقوله: ﴿لَا تَهْدِى﴾، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ نفي وإثبات، فالنفي في قوله: ﴿لَا تَهْدِى﴾، والإثبات في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ والإثبات مؤكد بـ(إن) و(اللام) فما الجمع؟

نقول: الأُولى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هداية توفيق، والثانية ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هداية الدلالة، ولهذا تعدت بـ: ﴿إِلَىٰ﴾ أي: لتدل إلى هذا.

فالتقديرُ: (مَن أحببتَ هدايته)، هذان قولان، لكن أيهما أصح؟

الجواب: إن نظرنا إلى أن الأصل عدمُ التقدير، قلنا: الأصح الأول، أي: (من أحببتَه)، وإن أورد علينا إشكالٌ وقال: إن هذا يقتضي أن الرسول -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- يُحب أبا طالبٍ، ولا نتخلَّص من هذا الإيراد إلا إذا قلنا: إن هذا التقديرَ: (من أحببت هدايته).

ولو كان يوجد تقديرٌ هل يلام الإنسان على محبة شخص أحسن إليه محبة إحسان؟

الجواب: لا يُلام، يعني: من أحسنَ إليك فإنك تُحبُّه لإحسانه لا لدينه، والظاهرُ لي أن الأصلَ عدمُ الحذف، وأن التقدير: (من أحببته)، ولكنَّ حبَّ الرسول ﷺ لأبي طالب ليس حبَّ دِينٍ، ولكنه حبُّ قرابةٍ وإحسان؛ لأن الرجلَ أحسنَ إلى رسوله الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- إحسانًا عظيمًا، ودافع عنه مدافعة عظيمة، وله اللامية المشهورة التي قال عنها ابن كثير في

البداية والنهاية[1]: «إنها أحق أن تكون من المعلقات»؛ لأن المعلقات عند العرب سبعُ قصائد عظيمة، كانت مُعلَّقةً في جوف الكعبة؛ لعظمها عندهم، فهذه أحقُّ من غيرها أن تُعلَّق في جوف الكعبة.

***

ومن أمثلة ذلك قوله -تعالى-: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨]، **وقوله:** ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٦٢]، **وقوله:** ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء:٢١٣]، **وقوله:** ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود:١٠١]، **ففي الآيتين الأوليين نفي الألوهية عما سوى الله تعالى، وفي الأخريين إثبات الألوهية لغيره.**

والجمع بين ذلك أن الألوهية الخاصةَ بالله -عز وجل- هي الألوهية الحق، وأن المثبتة لغيره هي الألوهية الباطلة؛ لقوله -تعالى-: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

ومن أمثلة ذلك قوله -تعالى-: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [لأعراف:٢٨]، **وقوله:** ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:١٦] **ففي الآية الأولى نفى أن يأمر الله -تعالى- بالفحشاء، وظاهر الثانية أن الله -تعالى- يأمر بما هو فسق.**

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ٥٧).

والجمع بينهما أن الأمر في الآية الأولى هو الأمر الشرعي، والله -تعالى- لا يأمر شرعًا بالفحشاء؛ لقوله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ [النحل:٩٠]، **والأمر في الآية الثانية هو الأمر الكوني، والله -تعالى- يأمر كونًا بما شاء حسب ما تقتضيه حكمته؛ لقوله -تعالى-:** ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

ومَنْ رام زيادةَ أمثلةٍ فليرجع إلى كتاب الشيخ الشنقيطي المشار إليه آنفًا.

الشـــرح

وهذا -أيضًا- مثال آخر وهو أن الله -تعالى- لا يأمر بالفحشاء، ردًّا على قولهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ [الأعراف:٢٨] فعللوا بأمرين:

أولًا: أنهم وجدوا عليها آباءهم.

والثاني: أن الله أمرهم بها.

فأبطل الله الباطلَ وأحقَّ الحقَّ، فقال: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ ولم يقل: (لم يجدوا عليها آباءهم)؛ وذلك لأنه حق، وفي الآية دليلٌ على قبول الحق من غير أهل الحق؛ لأن المشركين ليسوا أهلَ حقٍّ، لكن إذا قالوا الحق نقبله، وقد قبل النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- من اليهودي الذي قال: إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، وذكر بقية الحديث، فضحك النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- حتى بدت

نواجذه؛ تصديقًا لقول الحق[١].

بل زد على ذلك أنه أقر الحقَّ من الشيطان في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- حينما قال: ألا أدُلُّك على آية في كتاب الله تقرأها فلا يقربك الشيطان حتى تصبح ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فأقرَّ النبيُّ ﷺ ذلك[٢].

وفي هذا دليل على أن الحقَّ يُقْبَل من أي إنسان، فبعضُ النَّاسِ إذا جاءه الحقُّ من فاسقٍ قال: هذا ليس فيه خير، ولا يمكن أن يأتي بخير، وهذا غلطٌ، فالعدْلُ أن يكون الحقُّ ضالَّتك متى وجدته فخُذْ بِه.

وقال -تعالى-: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ ففي الأولى: نفى أن يأمر بالفحشاء، وفي الثانية أثبت أنه يأمر بالفسق ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ فكيف الجمع؟

الجمع: هو أن الأمر في الآية الأولى هو الأمر المنفي الشرعي، يعني: لا يأمر شرعًا بالفحشاء، بل هو ينهى عن الفحشاء والمنكر، والأمر في الآية الثانية: أمرٌ كونيٌّ، فإن كل ما وقع في السماء والأرض فهو بأمره الكوني؛ لقوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ وبهذا اندفع التعارض، وما ذكر في الآية الثانية ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ هو الحق الذي لا يجوز سواه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، رقم (٤٨١١)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٥).

وذهب بعض العلماء إلى أن المعنى ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء:١٦] أمرًا شرعيًّا، وهذا غلطٌ في الواقع؛ لأنه يلزم منه أن الله يرسل الرسلَ من أجل أن يِفْسُقَ النَّاسُ ويدمرهم، ويكون معناها: (إذا أردنا أن نهلك قرية أرسلنا الرسل إليهم ففسقوا فدمرناها)، وهذا منافٍ للحكمة، إذ كيف يرسلُ الله -عز وجل- الرسلَ للناسِ من أجل أن يعصوا ويفسقوا فيهلكهم.

لكن المعنى: إذا أردنا أن نهلك قرية، وجهنا إليهم الأوامر والنواهي، أمرنا مترفيها أمرًا كونيًّا ففسقوا فيها، وفي هذا الحذر والتحذير من الترف، وأن المترف على خطر عظيم؛ لأنه هو الذي يفسق، ومن ثم قال النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «**وَاللهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَإِنَّمَا أَخْشَى أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسَهَا مَنْ قَبْلَكُمْ فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»(١)، وهذا هو الواقع، كلما ازدادت النعم على الإنسان ازداد طغيانًا؛ لأنه يرى أنه استغنى وليس بحاجة إلى أحد، قال -تعالى-: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٧].

فلو قال قائل: ذكر الله -تعالى- عن زكريا -عليه السلام- أنه سأله الذرية الصالحة، ثم بعد أن استجاب الله له، قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ [مريم:٨] فكيف يسأل الله -عز وجل- الذرية الصالحة، ثم يقول: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؟

الجواب: نقول: إن هذا من باب التأكُّد من الشيء؛ لأن التأكُّد العلميَّ

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم (٢٤٦٢)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب فتنة المال، رقم (٣٩٩٧).

ليس كالتأكد العيني، ولهذا يقول العلماء: التأكد العلمي علمُ اليقين، والتأكد العيني عين اليقين، والتأكد الحقيقي حقُّ اليقين.

مثال ذلك: لو قال لك قائل: (معي تفاحة)، وهو صادق من الناس، فهذا علم اليقين، وإذا أخرجها من جيبه، وقال: (هذه تفاحة) فهذا عين اليقين، وإذا أكلتها صار حق اليقين.

***

القَسَمُ

القَسَـمُ

القَسَم: بفتح القاف والسين، اليمين، وهو: تأكيد الشيء بذكر مُعَظَّم بالواو، أو إحدى أخواتها.

الشـرح

القَسَم: بفتح القاف والسين، وإنما احتجنا لضبطها؛ لأنك لو قلت: (القِسْم) صار بمعنى الجنس أو الصنف أو ما أشبه ذلك، ولو قلت: (القَسْمُ) صار بمعنى تقسيم الشيء، ولو قلت: (القِسَم) صار معناه ما يُقَدَّر لبني آدم، لكن (القَسَم) بفتح القاف والسين هو اليمين والحلف، وله ألفاظ متعددة: وهو تأكيد الشيء بذكر معظَّم بصيغةٍ مخصوصة، سواء كان المعظَّم ممن يستحق التعظيم أو لا، فالذين يحلفون باللات والعزى، ومناة، هؤلاء قَسَمهم صحيح من حيث إنه قَسَم؛ لأنهم يعظمونهم، وقولنا: «بذكر مُعظَّم» إذا كان المقسَم به سوى الله فإن اعتقد المقسِم بأنه يستحق من التعظيم كما يستحق الله فهذا شركٌ أكبَرُ، وإلا فإنه شرك أصغر.

وحروف القَسَم ثلاثة: (الواو، والباء، والتاء)، و(ها) يقسم بها أحيانًا، فيقال: (ها الله لأفعلن)، فكلمة (أخواتها) تشمل كلَّ حرف يُقْسَمُ به في اللغة العربية، وعلى هذا لو قال الإنسان: (حرام عليّ أن أفعل)، فهذا ليس قسمًا، وليس قسمًا بغير الله، وليس شركًا، ولكن حكمه حكم اليمين؛ لأن الله -تعالى- قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم:١-٢]، فالقسَم الذي جعله النبي ﷺ من الشرك إنما هو تأكيدُ الشيءِ بذِكْرِ معَظَّمٍ بالواو أو إحدى أخواتها.

وهنا لا بد أن نذْكُرَ أحكامَ القسَم، فنقول:

أولًا: لا ينبغي للإنسان أن يُكثر الحلِفَ بالله؛ لقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩]، قال بعض العلماء: أي لا تكثروا الأيمان، فلا يحلف إلا عند الحاجة، أو الضرورة.

ثانيًا: ينبغي لمن حلف أن يستثني؛ فيقول: إن شاء الله؛ ليستفيد من ذلك فائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى: تسهيل أمره.

الفائدة الثانية: أنه لا كفارة عليه لو حنِث.

ثالثًا: لا يجوز الحلف بغير الله؛ مهما كانت منزلته حتى النبي ﷺ.

وهذا قال النبي ﷺ: «**مَنْ قَالَ: وَاللَّاتِ** -يعني حالفًا بها-، **فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[1]؛ حتى ينتفي عنه الشرك، ويحقق التوحيد.

رابعًا: الحلف بالله -عز وجل- يكون بلفظ (الله)؛ ويكون بكل اسم يختص به الله كـ(الرحمن، رب العالمين)، وما أشبه ذلك، ويكون كذلك بالصفات، أي بصفات الله المعنوية كعلمه، وسمعه، وبصره، وعزته، وقدرته، وقهره، وما أشبه ذلك، أما الصفات الخبرية فإنْ كان يعبر به عن ذاته جاز

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾، رقم (٤٨٦٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب من حلف باللات والعزى فليقل: «لا إله إلا الله»، رقم (١٦٤٧).

الحلف بها، والصفات الخبرية هي التي نظير ما سماه أعضاء لنا مثل: (الوجه، والعين، واليد، والقدم)، مثاله: قوله -تعالى-: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧] يعني: نفسه -تبارك وتعالى-، وإن كانت لا تقوم بالذات، فإنه لا يجوز الحلف بها، فلا يجوز أن تحلف وتقول: (ويد الله)، بمعنى: اليد التي يقبض ويأخذ، (وعين الله)، ولا (ساق الله)، وما أشبه ذلك.

خامسًا: الحلف إما أن يكون على شيء ماضٍ، وإما أن يكون على شيء مستقبل، فالحلف على الشيء الماضي لا كفارة فيه مطلقًا، سواء كان صادقًا أم كاذبًا، لكن إن كان صادقًا فلا إثمَ عليه، وإن كان كاذبًا فعليه الإثم، وإن تضمَّن يمينُه الكاذبُ أكلَ مال الغير بغير حق، كانت اليمينَ الغموسَ التي تغمس صاحبها في الإثم، ثم في النار، وهي التي قال النبي ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**»(١).

أما الحلف على المستقبل فهذا ينقسم إلى قسمين: إما لغو، وإما يمين معقودة، فأما اللغو فلا كفارة فيه، وهو الذي يجري على الإنسان بلا قصد، مثل قول الإنسان: (لا والله، بلى والله)، والدليل قوله -تعالى-: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥].

وأما اليمين المنعقدة على شيء مستقبل؛ يعني: إذا قصدها، فإما أن يريد بها الخبر، إما في نفسه، فهذه لا يحنث، وإما أن يريد بها إيقاع الفعل الذي حلف عليه، فهذه إذا خالف ما حلف عليه وجبت عليه الكفارة، وإن حلف

(١) أخرجه البخاري: كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض، رقم (٢٤١٧).

على مستقبل ظانًّا وقوعه فلم يقع، يعني: ظانًّا أنه يقع ولم يقع، فالصحيحُ أنه لا كفارةَ عليه، مثاله: كرجل قال: (والله ليقدمن زيد غدًا) ثم لم يقْدُم زيدٌ، فلا كفارة عليه.

* * *

وأدواته ثلاث:

الواو: مثل قوله -تعالى-: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات:٢٣]، **ويحذف معها العامل وجوبًا، ولا يليها إلا اسمٌ ظاهر.**

الشـرح

الواو: وهي أكثر ما يُقْسَم به، ومن خصائصها أنها ويحذف معها العامل وجوبًا، ولا يليها إلا اسمٌ ظاهر، فلا يصح أن تقول: (أقسم والله أن تقوم)، بخلاف الباء يجوز أن تقول: (أقسم بالله)، فلو قلت: (أقسم والله)، لكان هذا التركيبُ غيرَ عربيٍّ؛ لأنه لا بد أن يُحذَف معها فعلُ القسم.

كذلك -أيضًا- لا بد أن يليَها اسمٌ ظاهر، فلا يجوز أن يَلِيَها ضميرٌ بخلاف الباء، فإنه يجوز أن تقول: (الله أقسم به لتفعلنّ كذا)، فإن قال قائل: ما الدليل؟

قلنا: الدليلُ التتبعُ، فإن أهل العلم تتبعوا كلام العرب فلم يجدوا واو القسم يُذكر معها العامل، ولا يليها الضميرُ.

* * *

والباء: مثل قوله -تعالى-: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة:١]، ويجوز معها ذِكْرُ العامل كما في هذا المثال، ويجوز حذفه كقوله -تعالى- عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص:٨٢]، ويجوز أن يليها اسمٌ ظاهر كما مثَّلْنا، وأن يليها ضميرٌ كما في قولك: (الله ربي، وبه أحلف لينصرن المؤمنين).

الشـرح

أي أن الباء أوسع من الواو؛ لأنه يُذكر معها فعلُ القسم، والواو لا يذكر، ويليها الظاهرُ والمضمرُ، والواو لا يليها إلا الظاهر.

قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فـ ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ «لا» هذه موجودة في القرآن بكثرة، كقوله -تعالى-: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، وكقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وكقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾، وكقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾، وكقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، وقد اختلف المفسرون في «لا» فقيل: نافيةٌ لفعلٍ محذوفٍ، والتقدير في قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: (لا صحة لما تزعمون من إنكار البعث، أقسم بيوم القيامة)، وقيل: إن «لا» نافية لفعلٍ موجودٍ، والتقدير: (لا أقسم بكذا على كذا؛ لأنه لا يحتاج إلى قسم)، هذان رأيان، والرأي الثالث يقول: «لا» للتنبيه، والجملة جملة ثبوتية، لا جملة منفية، وهذا الأخير أصح، وأقل تكلُّفًا.

وكما نعلم أن «ألا» تأتي للتنبيه، فكذلك «لا» التي ليس معها الهمزة تأتي للتنبيه، ويجوز معها ذكر العامل، كما في هذا المثال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وسُمي (يوم القيامة) لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أنه اليوم الذي يقوم فيه الناسُ من قبورهم لرب العالمين، فكلُّ الناس يقومون قيامَ رجلٍ واحدٍ بصيحةٍ واحدةٍ، وزجرةٍ واحدةٍ.

الوجه الثاني: أنه اليوم الذي يقوم فيه الأشهادُ. فتشهد الرسلُ على أممهم، وتشهد هذه الأمةُ على أمم الرسل، ويشهدُ الرسولُ الكريم محمد ﷺ على هذه الأمة، قال -تعالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

الوجه الثالث: أنه اليوم الذي يُقام فيه العدل، كما قال -تعالى-: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

ويجوز حذف الفعل كما في قوله -تعالى- عن إبليس: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٢]، فالقسم ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ وحرف القسم «الباء»، والمقسَم به «العزة»، والمقسَم عليه «لأغوينهم أجمعين»، وفعل القسم محذوف والتقدير: (فبعزتك أقسم لأغوينهم أجمعين)، وقالوا: لا يجوز أن يليها اسمٌ ظاهرٌ كما مثَّلْنا، وأن يليها ضميرٌ كما في قولك: «**الله ربِّي، وبه أحلف لينصرنَّ المؤمنين**» الله ربي وبه «**الباء**» هنا للقسم، بدليلِ قوله: «لأحلف لينصرنَّ المؤمنين».

* * *

والتاء: مثل قوله -تعالى-: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ [النحل:٥]، ويحذف معها العامل وجوبًا، ولا يليها إلا اسم (الله)، أو (رب) مثل: (ورب الكعبة لأحجنَّ إن شاء الله).

الشــرح

وهذه أضيقها، فهي:

أولًا: يحذف معها العامل وجوبًا، ويشاركها في هذا الواو.

ثانيًا: لا يليها إلا اسم (الله) أو (الرب)، بخلاف الواو، قال ابن مالك:

.... **والتاء لله وَرَبْ**[1]

مثل: (ورب الكعبة لأحجنَّ إن شاء الله)، المقسم به وعليه متناسب؛ لأن الطوافَ بالكعبة رُكْنٌ من أركان الحج فبينهما مناسبة، واعلَمْ أنَّ كلَّ قَسَمٍ في القرآن لا بد أن يكون بينه وبين المقسَم عليه مناسبةٌ، وهذه قاعدةٌ لكن قد تكون ظاهرةً، وقد تكون خفيَّةً، والأصلُ ذِكْرُ المقسَم به، وهو كثيرٌ كما في الأمثلة السابقة.

وقد يُحْذَف وحده كقولك: (أحلف عليك لتجتهدن)، فالمحلوف به محذوف، والتقدير: (أحلف بالله عليك لتجتهدن).

وقد يحذف مع العامل؛ وهو كثير، كقوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨]، عامل القسم محذوف، والمقسم به محذوف أيضًا، وهذا كثيرٌ في القرآن؛ لأن تقدير الجملة: (ثم أقسم بالله لتسألن) فحذف عاملَ القسم والمقسَمَ به.

لو قال قائل: هل يُعَدُّ هذا اليمين طلاقًا؟

---

(١) ألفية ابن مالك رقم البيت (٣٦٧).

الجواب: مثل هذا لا يُعَدُّ قَسَمًا، لكنَّ حكمه حكمُ اليمين؛ لأنه لم يقل: (والطلاق لأفعلنّ كذا) فهو مثل التحريم، والتحريمُ أو الطلاق هو بمعنى: اليمين وليس يمينًا، لكن له حكم اليمين.

وعلى هذا؛ لو قال إنسانٌ: (لو فعلت كذا فامرأتي طالق) فهو له حكم اليمين، لكن ليس يمينًا، ولا يُعَدُّ الرجل مشركًا حالفًا بغير الله.

مسألة: يقول بعضهم: إن قول: «عليَّ حرام» ليس فيها شيء، وأن الاستدلال بآية التحريم غيرُ صحيحٍ؛ لأن النبي ﷺ لم يقل: «عليَّ حرام»، وإنما حلف يمينًا، فهل هذا الكلام صحيح؟

نقول: إن الآيةَ صريحةٌ في ذلك، قال -تعالى-: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم:١]، والرسول ﷺ قال: «**لَنْ أَعُودَ إِلَى أَكْلِ الْعَسَلِ**»[(١)]، ومثل هذا الكلام من الرسول بمنزلة التحريم، لكن في مسألة: (أنتِ عليَّ حرام)، فهي على حسب النيات، إذا قال: (أنتِ عليَّ حرام) فقد قال ابن عباس: «ليس بشيء»[(٢)]، وقال مرة: «عليه كفارة يمين»[(٣)]؛ لأنه إذا قال: (أنتِ عليَّ حرام) وأراد أنها حرامٌ عليه فقد كذب، نقول: إذا قلتَ لزوجتك: (أنت عليَّ حرام)، فأنتَ كاذب، يعني: إذا أراد الخبرَ فهو كاذب؛ لأنها حلالٌ له، وكذلك لو قال: (الخبز عليَّ حرامٌ)، فهذا كذِبٌ ما دمت تُخبِر خبرًا، فإن

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ...﴾، رقم (٥٢٦٧)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته، رقم (١٤٧٤).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ...﴾، رقم (٥٢٦٦).
(٣) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرّم امرأته، رقم (١٤٧٣).

قلتَ: (إنه حرام) إنشاءً وأراد تحريم ما أحلَّ اللهُ كان كافرًا؛ لأن العلماء يقولون: إذا أنكر حِلَّ ما كان حِلُّه معلومًا بالضرورة من الدين فهو كافر، وإذا قال: (عليَّ حرام) إنشاءً، بقصد الامتناع منه، فهو يمينٌ، حُكْمُه حكم اليمين، فإذا أكل منه إن كان الخبز، أو إذا أتى أهلَه إذا كانت المرأة، لزمه كفارةُ يمين، فالمهم أن النيةَ لها أثر في هذه الألفاظ.

* * *

والأصلُ ذِكْرُ المقسَمِ به، وهو كثيرٌ كما في الأمثلة السابقة.

وقد يحذف وحده مثل قولك: (أحلف عليك لتجتهدن).

وقد يحذف مع العامل، وهو كثيرٌ، مثل قوله -تعالى-: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر:٨].

والأصلُ ذكر المقسم عليه، وهو كثيرٌ، مثل قوله -تعالى-: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧].

وقد يُحذف جوازًا، مثل قوله -تعالى-: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:١] **وتقديره: ليهلكن.**

وقد يحذف وجوبًا إذا تقدمه، أو اكتنفه ما يغني عنه، قاله ابن هشام في المغني[١]، ومثَّل له بنحو: (زيد قائم والله)، و(زيد والله قائم).

---

(١) مغني اللبيب (١/ ٨٤٦).

الشـرح

لما ذكر حروفَ القَسَم وأنها ثلاثة، ذكر حُكْمَ حذف القَسَم، وما يتعلق به، سواء أكان أداة القَسَم، أو الفعل، أو المقسَم عليه، فقال: والأصل ذكر المقسَم به، وهو كثير كما في الأمثلة السابقة، كقوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الذاريات:٢٣] فالمقسَم به (ربّ السماء والأرض)، وقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [القيامة:١] المقسم به هو (يوم القيامة)، وقوله: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل:٥٦] المقسم به هو (لفظ الجلالة)، وهذا هو الأصل، أن المقسم به مذكور.

وقد يحذف وحدَه مثل قولك: «أحلف عليك لتجتهدنّ»، ومثل: «حلفت لتقومنّ» فالمقسم به محذوف، وهذا جائزٌ وسائغٌ في اللغة العربية، وهو كثير أيضًا مثل قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨] «اللام» هذه واقعةٌ في جواب القسم، والمقسَمُ به محذوفٌ والتقدير: «ثم والله لتسألن»، وإنما كَثُر الحذف في ذلك، أي: في سياق القسم؛ لأنها تَرِدُ كثيرًا في لسان العرب، فتكون معلومة؛ فلهذا يكون الحذف فيها كثيرًا، كقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وهذا هو الأصل.

فإذا سُئِلْنا: ما الأصل في المقسم به؟

قلنا: الأصل ذكره.

وما الأصل في المقسم عليه؟

فالجواب: الأصل في المقسم عليه ذكره وهو كثير، وقد يحذف، مثل قوله -تعالى-: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧]، والمقسم عليه هو محطُّ الفائدة،

ولهذا كان ذكره كثيرًا.

قوله: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ الخطاب في قوله «**قل**» للرسول ﷺ، أي: قل للذين زعموا أنهم لن يُبْعَثُوا، ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾، فأمره الله تعالى أن يقول لهؤلاء الذين يقولون: لا يبعثون: «وربي لتبعثنّ».

فإن قال قائل: ما الفائدة من هذا القسم لقوم منكرين؟

الجواب: أن هذا أسلوبٌ من أساليب اللغة العربية: أنَّ الكلامَ يؤكد بالقَسم، وإذا لم ينتفع هؤلاءِ بالتأكيد انتفع غيرُهم، فيكون تأكيدُهم حجةً عليهم من وجهٍ، ونبراسًا لغيرهم من وجه آخر، وفي القرآن الكريم أمر اللهُ نبيَّه محمدًا -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- أن يُقْسِم في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: في قوله -تعالى-: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس:٥٣].

الموضع الثاني: قوله -تعالى-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ:٣].

الموضع الثالث: قوله -تعالى-: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧].

وكل هذه المواضع الثلاثة: إما عن البعث، وإما عن القرآن، وإما عن الساعة.

وقد يحذف المقسَمُ عليه جوازًا، مثل قوله -تعالى-: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق:١]، فقوله -تعالى-: ﴿قٓ﴾، من الحروف الهجائية وهي كثيرةٌ في عدةِ سُوَرٍ من القرآن، وقد سَبَق أنَّ القولَ الرَّاجِحَ: أنها في حدِّ ذاتها ليس لها معنى.

وقوله -تعالى-: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ هذا المقسَمُ به، والمقسَم عليه تقديرُه: ليهلكنّ، وهذا أحدُ الأقوالِ في هذه المسألةِ، وقِيل: إنه لا حاجةَ لذكر المقسَم عليه؛ لأنه مفهومٌ من السياق، وهو أن الآيةَ تدُلُّ على إثبات البعث؛ لقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ [ق:٢-٣] ولذلك لو كان التقديرُ: «ق والقرآن المجيد ليبعثن» لكان أقربَ إلى السياق من قوله: «ليهلكنّ»؛ لأن الكلام هنا في تقدير البعث.

فصار الآن عندنا ثلاثة أقوال:

القول الأول: محذوف، تقديره: ليهلكنّ.

والثاني: محذوف، تقديره: ليبعثنّ.

والثالث: أنه لا حاجة لذكره ولا تقديره؛ لأنه معلوم من السياق.

وقوله: «**وقد يُحْذَفُ وجوبًا إذا تقدمه أو اكتنفه ما يغني عنه**» أي: يحذف وجوبًا فيكون تكرارًا بلا فائدة، مثاله: (زيدٌ قائِمٌ والله)، هذا تقدمه ما يدل عليه؛ لأن معنى (زيدٌ قائم والله)، معناه: (والله إن زيدًا لقائم)، فقد تقدَّمه ما يدل عليه فلا يحتاج إلى ذكره، وذكره لَغْوٌ؛ لأنك لو قلت: (زيد قائم، والله ليقومن زيد)، فإن الكلام يكون ركيكًا غيرَ مستقيم.

وقوله: «**أو اكتنفه ما يدل عليه**» «اكتنفه»، يعني: صارَ القَسَم بين أجزاء الجملة التي تدُلُّ عليه، مثاله: (زيدٌ والله قائم)، فالقسم متوسط بين المبتدأ والخبر، ولو قيل: (زيدٌ والله قائم، إنه لقائم) صار لغوًا لا فائدة منه، وصار الكلام ركيكًا.

والقَسَم إما متقدِّمٌ، وإما متوسط، وإما متأخر، فإذا تقدم فليس الجواب بمحذوف، فلو قال: (إن زيدًا قائم)، فلا حاجة للتقدير.

فلو قال قائل: إن القسمة تقتضي أن يكون المقْسَمُ به متوسطًا، أو متأخرًا، أو متقدمًا؟

نقول: إذا كان متقدمًا مثل: (والله لزيد قائم)، فلا حاجة للتقدير، ولو كان متأخرًا أو متوسطًا، فهذا الذي يكون فيه الحذف.

ويقول ابن هشام -رحمه الله- في المغني، وابنُ هشام أحدُ أئمة النحو وله مؤلفات في النحو كثيرةٌ من أهمها: (أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك)، ومنها (المغني)، وهو على اسمه (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) كتابٌ جيِّدٌ في بابه: سُمِع رجل يطوف بالكعبة يقول: (اللهم إني أسألك نحوًا كنحو ابن هشام، وفقهًا كفقه شيخ الإسلام)؛ لأنه درس من مؤلفاتهما. فسأل ربَّه وليس ذلك بعزيز على الله، وهو الذي أخرج شيخَ الإسلام ابن تيمية، والذي أخرج ابن هشام، قادرٌ على أن يُخْرِجَ مثلهما أو أعلى.

والشاهد أن (المغني) كتابٌ لا يستغني عنه الإنسانُ، لكن للإنسان الذي أخذ شوطًا كبيرًا في النحو، أما الذي لا يعرف أن يعرب: «قال الله تعالى» فهذا لا يدنو المغني، فلا بد أن يكون عنده علم، قال ابن هشام في المغني في مثل قولهم: (زيد قائم والله)، و(زيد والله قائم)، إنه يُحْذَف وُجوبًا، وقد دلَّ عليه السياق؛ لأن ذِكْره لغوٌ لا فائدة منه، بل لا يزيد الكلامَ إلا ركاكةً، فصار الذي يُحذَف المقسَمُ به، والمقسَمُ عليه، والمُقْسِمُ لا يمكن أن يُحذَف؛لأنه هو المتكلم.

وللقَسَم فائدتان:

إحداهما: بيان عظمة المقسَم به.

والثانية: بيان أهمية المقسَم عليه، وإرادة توكيده، ولذا لا يحسن القَسَم إلا في الأحوال التالية:

الأولى: أن يكون المقسَمُ عليه ذا أهمية.

الثانية: أن يكون المخاطَب متردِّدًا في شأنه.

الثالثة: أن يكون المخاطَب مُنْكِرًا له.

الشـــرح

يعني: القَسَم لا يحصُل إلا في الأحوال التالية:

الأول: أن يكون المقسم عليه ذا أهمية؛ ولو كنت تخاطب من لا يُنْكِر لا لإثباته في ذهن المخاطب، ولكن لبيان أهميته، إذ إن الذي ليس له أهمية لا يُقْسَم عليه؛ لأنه يقال: هو سواء صدَّق بالخبر أو لم يُصدق، لكن إذا كان له أهمية فإنه يُقْسَم عليه، وإن لم يستقسم، وإن لم ينكر المخاطب، ألم تروا إلى قول الرسول -عليه الصلاة والسلام-: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِمَا جِئْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»**[(١)]، فلا أحد ينكر ممن يخاطِبهم، ولا أحد يتردد في ذلك، لكن لأهمية الأمر، وهذا يأتي كثيرًا بأن يكون القَسَم بدون تردُّدٍ من المخاطَبِ، وبدون إنكار منه، وبدون طلب له، يعني: لا يقول له: (أقسم) أو ما أشبه ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٣).

الثاني: أن يكون المخاطب متردِّدًا في شأنه؛ فهنا قال أهل البلاغة: إنه يحسن التوكيد ولا يجب؛ لأن المتردد قد يكفيه الخبرُ المجرَّد، فتحلف ليطمئن ويزول عنه الشك.

الثالث: أن يكون المخاطَب مُنْكِرًا له؛ وقد قال أهل البلاغة: إنه إذا كان المخاطَب مُنْكِرًا، وجب تأكيدُ الكلام سواء بالقسم، أو بغير القسم؛ حتى يكون المخاطب مطمئنًّا، ولهذا قلنا: لا يَحْسُن القسم، وإنما يحسن مخاطَبَةُ المنكر بما يمكن أن يؤكد له بغير القسم.

فمثلًا: الذين زعموا أن لن يبعثوا قال الله تعالى لنبيه: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧]؛ لأنهم منكرون.

فإن قال قائل: كلامُك هذا منقوضٌ؛ لقوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون:١٥]، فهنا مؤكَّدٌ لكن بلا قسمٍ، مع أنه لا أحد ينكره؟

أجاب أهلُ البلاغة عن هذا فقالوا: نزلَ المخاطَبُ منزلة المنكر؛ لأنه لم يعمل لهذا اليوم الذي هو يوم موته.

وللقَسَم فائدتان:

الأولى: بيان عظمة المقسَم به.

والثانية: بيانُ أهمية المقسَم عليه.

ولهذا لا يجوز للمخلوق أن يحلف بغير الله، ويُستفاد من بيان عظمة المقسَمِ به، لكن يجوزُ لله أن يحلِف بما شاءَ من المخلوقات، أو بنفسه -سبحانه وتعالى-، وحلفه ببعض المخلوقات يدُلُّ على عظمة هذا المخلوق، وأنه جديرٌ

بأن يكون مقسَمًا به.

مسألة: هل يجوز أن يقولَ: (لعمرك)، أو (لعمري)؟

الجواب: يجوز ذلك؛ لأنه قَدْ جاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ وعن الصحابة قولهم: «**لَعَمْرِي**»[1]؛ لأن هذا في الواقع ليس قَسَمًا يُراد به الحلف الذي يكون به شركًا أو كفرًا؛ إذ إن صيغة القسَم لا تكون إلا بالواو أو الباء أو التاء، أما (لعمرك) فإنه قَسَمٌ، أي: بمعنى القسَم، ولهذا لو قال: و(عمري) أو (عمرك) صار مقسمًا به وصار حرامًا.

كذلك -أيضًا- مثل قولهم: (يمين الله)، فهي بمعنى: (عهد الله).

أما القَسَم فلا يكون إلا بالصيغة التي تقدَّم بيانها.

فإن قال قائل: قول الرسل -عليهم السلام-: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس:١٦]، هل هذا يعتبر قسمًا، أم هو في معنى القسم؟

الجواب: أن نقول: إن هذا بمعنى القسم، ولهذا أجيب بما يجاب به القسم ﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ لكن ليس فيه قَسَمٌ؛ لأنهم ما قالوا: (والله إِنَّا لمرسلون)، بل قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾.

فإذا قال قائل: هل قولُ بعضِهم: (يعلم الله ما فعلتُ كذا)، هل هذا حُكْمُه حكم اليمين أم لا؟

---

(١) جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٤٤٥٠)، وقد ورد من كلام الصحابة، كما في كلام عائشة -رضي الله عنها-، أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ...﴾، رقم (٤٦٩٦)، ومنه كلام ابن عمر -رضي الله عنه-، أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب بيان عدد عمر النبي ﷺ، رقم (١٢٥٥).

الجواب: إن بعض العلماء قالوا: إن قائل هذه الصيغة على خطرٍ عظيمٍ إذا كذب؛ لأن قوله هذا يقتضي أن اللهَ جاهِلٌ بالواقع، ولهذا قال بعضُ أهل العلم: إن هذه من أخطر ما يكون في باب اليمين.

***

القصص

١- تكرار القصص.

الْقَصَص

القَصَص، والقَصُّ لُغةً: تتبع الأثر.

وفي الاصطلاح: الإخبار عن قضية ذات مراحل، يتبع بعضُها بعضًا.

وقَصَص القرآن أصدق القَصَص؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، وذلك لتمام مطابقتها للواقع.

وأحسن القَصَص؛ لقوله -تعالى-: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف:٣]، وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى.

وأنفع القَصَص؛ لقوله -تعالى-: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]. وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

الشـرح

إذن: القَصَص في اللغة تَتَبّعْ الأثر، ومنه قوله -تعالى-: ذ أي: يقُصَّان الأثَرَ ويتبعانه، لكنها في الاصطلاح: الإخبار عن قضيةٍ ذات مراحل، يتبع بعضها بعضًا، فلو قلت: «زيدٌ قائم» فهذه ليست قصة؛ لأنها ليست ذات مراحل يتبع بعضها بعضًا، ولو قلت: «سافر زيدٌ إلى مكة، فنزل في القرية، لمدة يوم، ثم ركب منها متجهًا إلى مكة، ونزل في البلدة الفلانية، لمدة يوم» فهذه تسمى قصة.

وقوله: «قصص القرآن أصدقُ القصص» وهذا لا شك فيه؛ لأن المُخْبِرَ بها هو الله -جل جلاله-؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، والاستفهام هنا بمعنى النفي والتحدي، يعني: لا أحدَ أصدقُ من الله حديثًا، وإن ادَّعيت، فأتِ بأحدٍ أصدق من الله حديثًا، وذلك لتمام مطابقتها للواقع، وهذا هو الصِّدق، والصِّدق مطابقةُ الخبر للواقع، والله لما أخبر اللهُ به آكد عندنا مما شاهدناه بأعيننا؛ لأن ما أخبر الله به لا يعتريه لبسٌ، وما شاهدناه بأعيننا قد يعتريه لبس، قد يرى الإنسانُ الشيءَ المتحرِّكَ ساكنًا، أو الساكن متحرِّكًا، فلا أحدَ أصدقُ من الله حديثا.

إذن القَصص الواردة في القرآن كلُّها حقٌّ وصدقٌ، ليس فيها مرية بوجه من الوجوه، وكذلك أيضًا قَصَص القرآن أحسنُ القَصَص؛ لقول الله -تعالى-: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾؛ وذلك لاشتمالها على أعلى درجات البلاغة، وجلال المعنى، فهي أحسن القصص لفظًا، وأحسنُ القَصَص معنىً، وأحسنُ القصص نفعًا؛ لقوله -تعالى-: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب، والأعمال، والأخلاق.

وغيرُ قصصِ القرآن ما جاءت به السُّنَة، فهو مثل القرآن من حيث الصدق، إذا صحَّ ذلك عن النبي -عليه الصلاة والسلام-، وكذلك أنه أحسنُ قصص الخلق، وأنفعُ قصص الخلق، فما قصَّه النبي -عليه الصلاة والسلام- مِنْ أخبار بني إسرائيل، فهو حقٌّ وصدقٌ، وفيه عبرة، وفيه منفعة، وقد قَصَّ النبي -عليه الصلاة والسلام- على أمته أشياء كثيرة.

ولذلك يحسن للواحد منا، أن يأخذ قصةً من القصص يتتبعها في تفسيرها ومعناها الإجمالي وفوائدها، وما تتضمنه من أحكام وحِكَمْ، يعني لو عوَّدَ الإنسانُ نفسَه على هذا لحصل له خيرٌ كثيرٌ؛ لأنها صِدقٌ وحسن ونفع؛ وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

وانظر إلى خطاب إبراهيم -عليه السلام- لأبيه ومحاورته معه، قال إبراهيم -عليه السلام- لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ [مريم:٤٣]، فمعنى العبارة أنك جاهلٌ وأنا أعلم منك، لكنه تحاشى أن يقول هذه العبارة؛ لأنها شديدةٌ على الأب وربما تنفره، بل قال: ﴿قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾، والتفنن في الأسلوب ومراعاة الحال هذا أمر له وزنه.

ذُكِرَ أن أحد الخلفاء رأى رؤيا، وهي أن أسنانه قد انقلعت كلها، فاهتم لهذه الرؤيا، وقال: اءتوني بعابرٍ، فأتوا إليه بعابر، فقال: ما تقول في هذه الرؤيا التي أرقتني؟ قال: أقول إن حاشيتك ستموتُ كلُّها، ففزع الملك، وقال اضربوه وذلك لأنه رَوَّعَهُ، وأمر أن يأتوا له بعابر آخر، فأتوا بعابر آخر وقال: ما تقول، قال: أقول إن الملك سيكونُ أطولَ حاشيته عمرًا، فَسُرَّ الملك بهذا التعبير وأعطاه جائزة، على الرغم من أن معنى التعبيرين واحد، ولكنَّ الفارق بينهما في الأسلوب.

***

وهي ثلاثة أقسام:

▪ قِسم عن الأنبياء والرُّسل، وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين.

▪ وقِسم عن أفراد وطوائف، جرى لهم ما فيه عبرة، فنقله الله تعالى عنهم، كقصة مريم، ولقمان، والذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود، وغير ذلك.

▪ وقسم عن حوادث وأقوام في عهد النبي ﷺ، كقصة غزوة بدر، وأحد، والأحزاب، وبني قريظة، وبني النضير، وزيد بن حارثة، وأَبي لهب، وغير ذلك.

الشـرح

إِذنْ قصص القرآن الكريم تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: عن الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وما جرى لهم مع المؤمنين، والكافرين، وفي هذا يقول الله -تعالى-: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]؛ ولهذا فإن المصدر الوثيق عن أخبار الأمم، هو ما جاء عن الله، ورسوله -عليه الصلاة والسلام-، وفي هذه القصص عبرة عظيمة، فهي عبرة للمؤمنين، وعبرة كذلك للمكذبين.

ثانيًا: قصص عن أفراد، وطوائف جرى لهم ما فيه عبرة، فنقله الله -تعالى- كقصة مريم، وقصتها مبسوطة في سورة مريم، وفيها عِبَرٌ كثيرة،

منها قوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم:٢٥]، فالنظر إلى المرأة النفساء تجدها في العادة ضعيفة، ولهذا قال لها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ والهزُّ بالجذع أصعب من الهز بالرأس، أي: برأس النخلة.

قوله: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ أي: يسقط من فوقك رطبًا طريًا ثريًا جنيًا، يعني: لا ينفقس إذا سقط على الأرض، بل كالذي جناه الإنسان بنفسه، وهذا من آيات الله، فهي عبرة يعتبر بها الإنسان على قدرة الله -تبارك وتعالى-.

وكذلك قصة لقمان مع ابنه وهو يعظه، فهي قصة عظيمة فيها فوائد، فمن أهمها: **قوله -تعالى-:** ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٧-١٩] وكلها حكم.

وهنا مسألة: هل لقمان نبيٌّ أم رجل صالح؟

الجواب: الذي يظهر، أن لقمان رجل صالح، أعطاه الله الحكمة، وليس نبيًّا.

كذلك قصة الذي مَرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، هامدة يابسة، ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]، يعني كيف يحيي هذه القرية بعد أن ماتت؟! فأراه الله ذلك، ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ [البقرة:٢٥٩]، وهي مئة سنة، لأن الوقت يذهب إذا لم

تكن الروح في الجسم، ولهذا نجد النائم تمضي عليه الساعتان والثلاثة وكأنها دقيقة واحدة، والمغمى عليه أشد، وكذلك الغائب بالبنج يمضي عليه الوقت ما علم، وكذلك من باب أولى قال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ لأن الله أماته في أول النهار، وأحياه في آخر النهار، فقال: إما يوم إن كان هذا هو اليوم الثاني من موته، أو بعض يوم، قال الله -تعالى- له: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ -سبحان الله- مئة عام، ولم يتغير الرجل، ما زاد شعره، ولا حَصل له نمو، ولا تَغيُّر، ولا انتفاخ، **ثم قال الله له:** ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، أي: لم يتغير، الطعام والشراب لم يتغير لا باللون، ولا بالرائحة، ولا باليبوسة، وهذا من آيات الله -عز وجل-، وقد قيل إن الطعام كان عنبًا، وقيل: غير ذلك، ولكن لا يهمنا هذا، حتى وإن كان عنبًا، فإنه لم يتغير.

ثم قال: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾، نظر إلى عظامه فإذا هي تلوح، فالحمار متغير، والطعام والشراب لم يتغير -سبحان الله-؛ لأن محط الحجة في الحمار، فكون الطعام لم يتغير، والشراب لم يتغير، هذا فيه قدرة على إبقاء الأمور كما كانت، وقضية الحمار فيه دليلٌ على قدرة الله تعالى على إنشاء الأمور بعد اضمحلالها، فلما نظر إلى عظام الحمار وهي تلوح **فقال الله له:** ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾، فنظر إلى العظام يركب بعضها بعضًا وتنشز بالعصب، ثم تكسى باللحم، ثم قام الحمار -سبحان الله- ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩]، وهذه قصة مما تحيي القلب، ويعرف بها قدرة الله سبحانه وتعالى.

كذلك أيضًا قصة ذي القرنين، فذو القرنين آتاه الله ملكًا عظيمًا، بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وقصته مشهورة، ومن أعظم ما فيها من العبر أنه أتى على قوم لا يكادون يفقهون قولًا، يعني: لا يكادون يفقهون هم بأنفسهم، ولا يُفْقِهُون أيضًا، وإن كلمهم الإنسان ما فقهوا، وهم أيضًا إن كلموا لا يفقهوا، **فقالوا له**: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ [الكهف:٩٤]، يعني: -هل نعطيك دراهم- ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف:٩٤]-؛ لأنه مَلِكٌ عظيم، فظنوا أنه يأخذ رشوة ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف:٩٥] يعني خير مما تعطونني، ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف:٩٥] والردم أعظم من السد؛ ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ -[الكهف:٩٦] فزبروا له الحديد، وأحمى عليه النار، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف:٩٦] فأفرغ عليه نحاسًا ذائبًا، فتلاصق الحديد بعضه ببعض بالنحاس، ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف:٩٧]-؛ لأنه أملس -﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف:٩٧]، وهذه من القصص الغريبة.

كذلك أيضًا قارون، فإن قارون رجل غني من قوم موسى، ولكنه كفر به، وفخر، واستعلى بما أعطاه الله من المال، وبغى على قومه، وآتاه الله من الكنوز ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾، أي: ما يستطيعون حمل المفاتيح، فكيف بالخزائن وما فيها؟! فقال الله -عز وجل- حين طغى هذا الرجل: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١].

كذلك أيضًا أصحاب الكهف؛ فإن أصحاب الكهف قصتهم عجيبة

فَهُمْ سبعة ومعهم كلبهم، خرجوا من قومهم؛ لأنهم كانوا يشركون بالله، وهؤلاء مخلصون لله موحدون له، خرجوا مهاجرين إلى الله، وما أحد قصد الله فخاب أبدًا، آواهم الله -عز وجل-، فهيأ لهم كهفًا واسعًا، وجهُه إلى الشمال الشرقي، ما تأتيه الشمس إذا غربت، ولا إذا أشرقت. قال -تعالى-: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٧]، أي: شيء يسير عند الغروب.

فبقوا في الغار نائمين وليسوا ميتين، والنائم إذا طال نومه، ملَّ، وجاع، وعطش، لكن هؤلاء ما فعلوا، إلا أن الله يقلبهم ذات اليمين، وذات الشمال، لئلا تفسد أجسادهم ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف:١٨]، وربط الله به ما تعداهم، فبقوا ثلاثمئة سنة وتسع سنوات، حتى أخلف الله -سبحانه وتعالى- عن الملك الأول المشرك بملك صالح.

فبقوا في هذا الكهف هذه المدة، يقلبهم الله -عز وجل- ذات اليمين، وذات الشمال، ولم يقل: «يتقلبون»؛ لأن فعل النائم لا يُنسب إليه، فقد رُفع عنه القلم، يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال؛ فلما بعثهم الله -عز وجل- تنازعوا ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف:١٩] وهم بقوا ثلاثمئة سنين وتسع سنوات؛ لأنهم ناموا أول النهار واستيقظوا آخر النهار، فظنوا أنهم ناموا يومًا واحدًا، أو يومين ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وطلبوا أن يُبْعث واحد منهم بورقهم، أي: بالدراهم إلى المدينة، ليشتري طعامًا، ولما ذهب إلى المدينة، ورأوا السكة، والسكة قديمة لها ثلاثمئة سنة، ولعلها والله أعلم عليها صورة الملك القديم، فتعجبوا منه، وهذه القصة فيها عبر عظيمة.

وكذلك **أيضًا أصحاب الفيل**، فأصحاب الفيل قوم جاءوا ليهدموا الكعبة، وذلك أن مَلِك اليمن وضع عنده كعبةً تضاهي الكعبة التي في مكة؛ من أجل أن الناس يحجون إليها، فجاء أحدُ العرب إلى هذه الكعبة، وتغوط فيها، إهانةً لها، فغضب الملك، وبعث إلى مكة جندًا عظيمًا يتقدمهم فيلٌ عظيم، يريد أن يهدم الكعبة.

فلما وصل إلى مكان يسمى المغمس، طريق من ريع الحجون، أَبى الفيلُ أن يتقدم إذا وجهه إلى مكة وقف، وإذا وجهوه إلى اليمن هرول -بإذن الله عز وجل-، ولهذا لما بركت ناقة الرسول -عليه الصلاة والسلام- في الحديبية، وأراد منها أن تقوم أبت، فقال الصحابة، «خلأت القصواء، خلأت القصواء» وخلأت يعني حرنت، فقال النبي ﷺ: «**وَاللهِ مَا خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ**»[1]، فدفعُ الظلمِ حتى عن البهائم واجبٌ؛ لأنهم ظلموها لما قالوا: خلأت، فقال: ما خلأت فعلًا، وأيضًا ليس هذا لها بخلق، «ناقة مطواع، ولكن حبسها حابس الفيل».

المهم أن أصحاب الفيل أرسل الله -تعالى- عليهم طيرًا أبابيل، قال العلماء «**أَبَابِيلَ**» يعني: جماعات متفرقة، معها حجارة من سجيل، وهذه الحجارة تضرب الواحد من رأسه وتخرج من دبره، ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل:٥]، و«**الْعَصْفُ**» هو الزرع الذي أكلته الإبل، أو البقر ووطئته بأقدامها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة والمصالحة في الحرب، رقم (٢٧٣٤).

والفيل حبسه الله تعالى في مكان يقال له: المغمس، كما قال الشاعر الجاهلي[(١)]:

حُبِسَ الْفِيلُ بِالْـمُغَمَّسِ حَتَّى صَـارَ يَحْبُـو كَأَنَّـهُ مَعْقُـورُ

وليس في وادي محسر كما زعمه بعضُ العلماء، وإنما أسرع النبي -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم-، في وادي محسر لوجهين:

الوجه الأول: أن الوادي دعث، يعني: فيه رملٌ مع التراب، وهذا يجعل الإبل ترتاث في المشي فأسرع.

الوجه الثاني: أن أهل الجاهلية كانوا يقفون في هذا الوادي، ويذكرون أمجادهم وأمجاد آبائهم، فأراد النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- أن يخالفهم، فهم ينزلون والرسول ﷺ يسرع.

كذلك أيضًا أصحاب الأخدود، والأخدود: جمع خد، وهو الحفر في الأرض كحفر السواقي، فأصحاب الأخدود قومٌ اعتدَوْا على قوم مؤمنين بالله -عز وجل-، اعتدوا عليهم هذا العدوانَ البشع، وحاولوا منهم أن يرتدوا عن إيمانهم، ولكنهم أبَوْا وأصرُّوا على الإيمان، وفي ذلك أنزل الله -تعالى-: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج:١-٦] فخدوا الأخاديد، وأضرموا فيها النار، وجعلوا يُلقون المؤمنين في النار، وهم قعودٌ متفكهين حولها، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ

(١) الشعر لأبي الصلت الثقفي، أو لأمية بن أبي الصلت الثقفي، كما في ديوانه (١٦٤).

ﵟٱلۡحَمِيدِﵞ [البروج:٧-٨]، لم يعتدِ هؤلاء المؤمنون عليهم بأخذ مالٍ، ولا بانتهاك عرضٍ، ولا بضربٍ، ولا بشيء، وما هي إلا عداوة دينية من هؤلاء المعتدين، ﵟوَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَﵞ [البروج:٨-١٠].

وعلم من الآية: أنهم لو تابوا لم يعذبوا بجهنم، والتوبة من الكفر تَجُبُّ ما قبلها، حتى وإن كان متعلقًا بالغير؛ لقوله -تعالى-: ﵟقُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَﵞ [الأنفال:٣٨].

فإن قال قائل: كيف يغفر لهم وهذا حق آدمي؟

فالجواب: أن قتل هؤلاء الكفار لهؤلاء الآدميين ليس لكونهم آدميين، بل لإيمانهم، ولكراهتهم للإيمان، ولمن يحمل الإيمانَ، ولهذا إذا آمنوا ارتفع عنهم أثر هذا القتل، ولهذا قال -تعالى-: ﵟثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَﵞ، قال الحسن البصري -رحمه الله-: «ما أحلم الله! يقتلون أولياءه، ثم يدعوهم إلى التوبة»(١)، ولا شك أن هذا من حِلْمِ الله -عز وجل- على عباده.

قوله: «وغير ذلك» وذلك مثل: صاحب الجنتين، وأصحاب الجنة، وكذلك الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوفٌ حذر الموت، ولهذا نقول: إن في سورة البقرة خمسَ قَصَصٍ فيها إحياء الموتى:

القصة الأولى: في قوم موسى: وذلك أنهم قالوا: ﵟوَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص:٥٩).

نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ فماتوا ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥]، ثم بعثهم الله من بعد موتهم.

القصة الثانية: في أصحاب البقرة: وذلك أنهم تنازعوا في قتيل لهم، فأمر الله -سبحانه وتعالى- أن يذبحوا بقرة، ويضربوا القتيلَ ببعضها، فذبحوها، وما كادوا يفعلون، وضربوه ببعضها فحيا الرجل، وقال: الذي قتلني فلان، والظاهر أنه بعدها مات.

القصة الثالثة: في الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فهؤلاء قومٌ وقع في ديارهم وَبَاءٌ، فخرجوا هاربين خوفًا من الموت، فأراهم الله -عز وجل- أنه لا مفر من قدر الله، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡ﴾ [البقرة:٢٤٣]، فأماتهم الله -عز وجل-؛ ليعلموا أنه لا مفرَّ من قدر الله تعالى؛ «ولهذا نهى النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، من وقع في أرضه الطاعون، نهى أن يخرج من أرضه فرارًا من الطاعون»[1]؛ لأن هذا ينافي التوكل؛ ولأنه ربما يعاقب بأن يموت.

القصة الرابعة: وذلك في صاحب القرية الذي مرَّ عليها، وهي خاوية على عروشها، وقد تقدم هذا[2].

القصة الخامسة: في قصة إبراهيم -عليه السلام- كما جاء في الكتاب العزيز قال -تعالى-: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة وغيرها، رقم (٢٢١٨).
(٢) ينظر (ص:٣٢٨-٣٢٩).

ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٠]، وفي هذه الآية دلالة على أن الإنسان مأمور بأن يَزِيد في إيمانه من طمأنينة القلب والثبات، فأمر الله -عز وجل- أن يأخذ أربعةً من الطير، وأن يقتلهن ذبحًا، ويخلط بعضهن ببعض، ويـجعل على كل جبل منهن جزءًا، ففعل، ثم أمره الله -عز وجل- أن يدعوهن، ويقول: أيتها الطيور أقبلي -وهي كلمة-، فأقبلت عليه تأتيه سعيًا لا طيرانًا على خلاف المألوف من الطيور من أماكن بعيدة، فأتت من قِمَم الجبال تسعى سعيًا، حتى وقعت بين يديه، بعد أن أحياها الله -عز وجل-.

فالحاصل: أن القصص في القرآن كثيرة، وكلها نافعة وفيها عبرة، لكن ينبغي أن ننبه على أن هناك مؤلفين ألفوا في قصص الأنبياء، وألفوا في قصص القرآن عمومًا، لكن خلطوا بين الحابل والنابل، وصاروا كحاطب ليل، ولذلك يجب الحذر مما أُلِّف في قصص الأنبياء أو غيرها من قصص القرآن.

كذلك -أيضًا- غزوة بدر مذكورة في القرآن، كذلك أحد، والأحزاب، وبنو قريظة، وبنو النضير، وزيد بن حارثة، وأبو لهب، ولهذا الذي ذكر باسمه في القرآن من هذه الأمة رجلان:

أحدهما: في مقام الثناء.

والثاني: في مقام القدح.

فالذي في مقام الثناء زيد، وذلك في قوله -تعالى-: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب:٣٧].

وفي مقام القدح **أبو لهب**، أنزل الله -تعالى- فيه سورة كاملة تتلى إلى يوم القيامة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد:١-٥]، وهو عم الرسول -عليه الصلاة والسلام- والله -تعالى- لا يحابي أحدًا لقرابته من الرسول، ولا يظلم أحدًا لبعده من الرسول، فأبو لهب أنزل الله فيه سورة كاملة في ذمه وقدحه.

وأبو طالب قال الله فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]، مع أن كلًّا منهما عمٌّ، لكن أبا لهب آذى الرسول عليه الصلاة والسلام، وأبا طالب نصر الرسول -عليه الصلاة والسلام- والله -تعالى- حَكَمٌ عدل، أعطى كل واحد منهما ما يستحقه.

فإن قيل: هل ذُكِر أحدٌ من الصحابة في القرآن بوصف ينطبق عليه على وجه تام؟

فالجواب: نعم، وهو أبو بكر -رضي الله عنه- في قوله -تعالى-: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة:٤٠]، وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ هذه أجمع المفسرون على أن المراد بها أبو بكر -رضي الله عنه-.

وكذلك يقال كما قاله بعض العلماء في سورة الليل: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٧-٢١]، فهذه الآية نزلت في أبي بكر، لكن لا يمنع أن تكون شاملةً لغيره؛ لأن العبرة بعموم اللفظ أما: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ فهذا وصفٌ لا يستحقه سوى أبي بكر -رضي الله عنه-.

وللقصص في القرآن حِكمٌ كثيرةٌ عظيمة منها:

١- بيان حكمة الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر:٥].

الشرح

قوله -تعالى-: ﴿جَآءَهُم﴾ يعني قريشًا، ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ أخبار الأمم السابقة، ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ يعني ازدجار عن المعاصي والتكذيب، ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ أي هذا الذي جاءهم حكمة بالغة مؤثرة، ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ فـ (ما) يجوز أن تكون نافية، يعني: لم تغنِ عنهم النذر شيئًا، ويجوز أن تكون استفهامية، يعني: فأي شيء أغنت عنهم النذر؟ والظاهر الثاني، والأول يؤيده قوله -تعالى-: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود:١٠١]، لكن الاستفهامية أبلغُ وأقوى، يعني أي: شيء أغنت النذر؟ لـم تغنِ عنهم شيئًا، هذه من فوائد القصص وهي بيان حكمة الله -عز وجل-.

***

٢- بيانُ عدلِه -تعالى- بعقوبة المكذبين؛ لقوله -تعالى- عن المكذبين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود:١٠١].

الشـــرح

لما ذكر الله -تعالى- وصف الأنبياء، وإهلاك قومهم، قال: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾، والآية تفيد أن هناك معنى آخر، غير معنى بيان العدل، وهو قوله -تعالى-: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ أي: بيان أن آلهة هؤلاء المكذبين لم تغنِ عنهم شيئًا.

***

٣- بيان فضله -تعالى- بمثوبة المؤمنين؛ لقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ [القمر:٣٤- ٣٥].

الشـــرح

قوله -تعالى-: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ السَّحر يكون آخر الليل، مع أن الله -تعالى- قال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود:٨١]، وكيف يُجمع بين هذا وبين أن الله أنجاهم بسَحَر؟

الظاهر أن ذلك لما امتدَّ، امتدت العقوبة من السَحَر إلى الصباح، وكان منتهى العقوبة في الصباح، فصار موعد إهلاكهم جميعًا هو الصباح.

ولكن هناك آية يقول الله -تعالى- فيها: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦]، فهل هذا يعني: أن الإيمان والإسلام شيء واحد؟

الجواب: لا، بل هذا يدل على أن الإيمان شيء، والإسلام شيء آخر؛ لأنه قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل: «من كان فيها من المسلمين»، ثم قال: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، وذلك أن الذين خرجوا ونجوا هم لوط وأهله إلا امرأته، وامرأته كانت معهم في الدار، وكان ظاهرها أنها مسلمة كما قال الله -تعالى-: ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم:١٠] أي خانتاهما بالكفر، ولوط لم يعلم عنها، لكنها في وسط الدار مسلمة لم يظهر منها معارضة، ولهذا ليست القرية سوى بيت من المسلمين، والذي نجا وخرج هم المؤمنون؛ لأن المرأة لم تخرج.

* * *

٤- تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذبين له؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر:٢٥-٢٦].

٥- ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه؛ إذ علموا نجاة المؤمنين السابقين، وانتصار من أمروا بالجهاد، لقوله -تعالى-: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨]، **وقوله:** ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

٦- تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم؛ لقوله -تعالى-: ﴿أَفَلَمْ

يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠].

٧- إثبات رسالة النبي ﷺ؛ فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله -عز وجل-، لقوله -تعالى-: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]، **وقوله:** ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩].

الشرح

هذه أيضًا من فوائد القصص في القرآن.

رابعًا: تسلية النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-؛ عما أصابه من المكذِّبين له، وذلك أن النبيَّ ﷺ يضيق صدره بما يقولون، وما يكذبونه؛ لأنه يحب -عليه الصلاة والسلام- من جميع الناس أن يؤمنوا، ولكنه يقابل من قومه -وهم أقرب الناس إليه- بالتكذيب، والإهانة، والأذية، ولا شك أنه سوف يتأذى بهذا، ولكن الله -تعالى- يسليه بذكر أخبار الأمم السابقة، يقول الله -عز وجل-: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [فاطر:٢٥]، فقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني: بالآيات البينات.

وقوله: ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ جمع زبور وهو الكتاب.

وقوله: ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ إما أنه من عطف المرادف على مرادفه،

كقول الشاعر[١]:

.... وَأَلْقَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنًا

ويكون الفائدة من العطف تظهر في قوله: ﴿ٱلْمُنِيرِ﴾، يعني: الكتب التي تُنير للناس طريق الهداية ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر:٢٦]، ولا شك أن النبي ﷺ سوف يتسلَّى بهذا، ويتصبر، ولهذا تقول الخنساء وهي تتحدث عن مصيبتها في أخيها صخر تقول[٢]:

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أُسَلِّي الـنَّفْسَ عَنْـهُ بِالتَّـأَسِّي

فهي تتأسى بالناس، وتقول: هؤلاء أيضًا أُصيبوا في إخوانهم، وآبائهم، وأبنائهم، وأقاربهم، وقد أشار الله إليه في قوله: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩]، وهذا يدل على أن اشتراك الناس في العذاب يخفف عليهم، لكن في يوم القيامة لا ينفع هؤلاء اشتراكهم في العذاب.

خامسًا: ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه، والازدياد منه، إذ علموا نجاة المؤمنين السابقين، وانتصار من أُمروا بالجهاد، لقول الله -تعالى-: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨]، ولهذا من قال هذه الكلمة: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]، وهو في غم وهو مؤمن أن الله ينجيه بها نجاه الله، لقول الله تبارك و-تعالى-: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ

---

(١) البيت لعدي بن زيد، ذكره الجصاص في أحكام القرآن (٣/ ١٤١)، وتمامه:

فَقَدَّمَتِ الأَدِيمَ لِرَاهِشِيهِ وَأَلْقَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنًا

(٢) ديوان الخنساء (ص:٧٢).

فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨]، وقال -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، فهنا أوجب الله على نفسه أن ينصر المؤمنين.

قد يقول قائل: ما الجمع بين هذه الآية وإخباره أن من الناس من قتل النبيين بغير حق؟

فالجواب: إن النصر نوعان: نصر في الدنيا والآخرة، ونصر في الآخرة دون الدنيا، فيكون هؤلاء الذين قتلوا من الأنبياء والمصلحين يكون نصرهم في الآخرة قطعًا، وفي الدنيا أيضًا، ربما يكون نصرهم بنصر أقوالهم وما دعوا إليه؛ لأن هذا من أعظم النصر، فالآثار التي تبقى بعد الإنسان تعتبر نصرًا؛ ولهذا قال المتنبي(١):

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ ... مَا قَاتَهُ، وَبَقِيَّةُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

يعني ذكر الفتى عمره الثاني ولو قصر عمره، إذا بقي ذكره فهو عمره، وحاجته ما قاته يعني: قوته فقط يكفي، والباقي زيادة.

وعلى كل حال نقول في الجواب عن هذا الإشكال: أن من النبيين من قُتِلَ إن نصره بالآخرة مؤكد، ونصره في الدنيا يمكن أن يكون بما دعا إليه فيكون نصرًا لقوله وما جاء به، وإن المؤمنين إذا علموا أن الله ينصر من سبق،

---

(١) ديوان المتنبي (ص:٤٩٠).

وأنه يثيبهم، فإنهم سوف ينشطون على ما هم عليه من الإيمان، ويثبتون عليه.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، الشاهد في هذا قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأوجب الله -عز وجل- على نفسه أن ينصر المؤمنين الذين صدقوا المرسلين، واتبعوا المرسلين، وهؤلاء لا بد أن ينصروا؛ لأن الله تكفل بذلك في قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله -تعالى-: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ فيه إثبات صفة الانتقام لله -عز وجل- من المجرمين، وهذه الصفة لا تقال على سبيل الإطلاق؛ لأنها لم ترد إلا مقيدةً، ولهذا نقول: إنَّ عَدَّها من الأسماء الحسنى غلط، كما يوجد في بعض الكتب التي تَعدُّ أسماءَ الله الحسنى، يقولون: المنتقم، وليس كذلك؛ لأن المنتقم لم يرد من أسماء الله -عز وجل- على وجه الإطلاق، بل مقيدة كما في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢]، وكقوله -تعالى-: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾.

سادسًا: تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم؛ لقوله -تعالى-: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد:١٠]، سير أقدام أو سير قلوب أو هما؟ وأيهما أعم؟ سير القلوب أعمُّ؛ لأن القلوب تصل في سيرها إلى ما لا تصل إليه الأقدام؛ ولأن سير القلوب يكون حتى في الماضي بخلاف سير الأقدام ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، يعني أفسد الله عليهم أمرهم ولم ينجحوا ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ يعني للكافرين الموجودين الآن أمثال ما كان للسابقين، الشاهد

قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠]، يعني: فاحذروا أيها الكفار أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء من التدمير، ولكن نقول:

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِـمَنْ تُنَـادِي(١)

كما قال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ [النمل:٨٠-٨١].

سابعًا: إثبات رسالة النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله -عز وجل- لقول الله -تعالى-: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود:٤٩]، فإذا قص النبي -عليه الصلاة والسلام- قَصَصًا على الوجه المطابق، دل ذلك على أنه رسول الله؛ لأنه ﷺ كان أُمِّيًّا لا يقرأ، ولا يكتب، ولا يتلقى الأخبار، فإذا أتى بأخبار مَنْ سبق دل على أنه يُوحَى إليه، وأن هذا من الله، وكقوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، فإذا تحدث النبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- عنهم، عُلِم أن ذلك عن طريق الوحي.

فإن قال قائل: قوله -تعالى-: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣]، هل الزَّبُور كتابٌ أم اسمٌ لكتاب؟

الجواب: أصلُ الزُّبُر هي الكتب، فكل كتاب يسمى زبور، لكن قد يطلق هذا الاسم على شيء معين.

---

(١) البيت غير منسوب في الأمثال والحكم للرازي، وزهر الأكم (٢/ ٢٤٩) لليوسي، وذكره الدميري في حياة الحيوان الكبرى (٢/ ١٠٤).

تِكْرارُ الْقَصَصِ

من القصص القرآنية ما لا يأتي إلا مرة واحدة، مثل قصة لقمان، وأصحاب الكهف، ومنها ما يأتي متكررًا حسب ما تدعو إليه الحاجة، وتقتضيه المصلحة، ولا يكون هذا المتكرر على وجه واحد، بل يختلف في الطول والقِصَر واللين والشدة، وذكر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر.

الشــرح

أي: أن تكرار القصص في القرآن ليس على سبيل التكرار الذي لا فائدة منه، بل فيه فائدة، لكن القَصَص كما قالوا: قِسْمٌ لا يتكرَّر كقصة لقمان، وأصحاب الكهف، ومنها ما يتكرر حسب ما تدعو الحاجة إليه، والذي يأتي متكررًا لا يمكن أن يأتي بصيغة واحدة في كل المواقع أبدًا، بل لا بد أن يختلف.

فمثلًا في سور الأعراف: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ [الأعراف:١٠٩]، وفي سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ ﴾ [الشعراء:٣٤]، في القصة الأولى ذكر قول أصحاب فرعون، وفي الثانية ذكر قول فرعون؛ لأن فرعون قال وصدَّقه هؤلاء، وأخذوا يطنطنون ويدندنون بقوله، فصار القائل الأول: فرعون ثم تابعه جنوده.

فأنت ترى هذه القصص المكررة تختلف بحسب ما تدعو إليه الحاجة، ولهذا كان أكثر القصص تكرارًا قصة موسى؛ لأن الحاجة تدعو إلى ذلك؛ لأن اليهود كانوا موجودين في المدينة، وقريبين من قريش، وكذلك النصارى

في نجران، وغيرها، لذلك تكررت قصة موسى وعيسى -عليهما السلام- أكثر من غيرهما، حسب ما تدعوا الحاجة إليه، وتقتضيه المصلحة.

ومع هذا لا يكون هذا التكرار على وجه واحد، بل يختلف في الطول، والقصر، واللين، والشدة، وذِكْرِ بعض جوانب القصة في موضع دون آخر، وإن وُجِدَ نادرًا جدًّا أن تأتي الآيةُ هي نفس الآية الأولى، فهذا قليل جدًا.

فمثلًا: نجد من أقصر القصص، وأشدها ما جاء في سورة القمر، فإن القصص قصيرةٌ جدًّا، لكن فيها قوارع عظيمة، تختم كل واحدة منها **﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾** [القمر:١٥]، فالذي يقرأ هذه السُّورةَ بتدبر لا بد أن يتأثر؛ لأنها عظيمة.

* * *

ومن الحكمة في هذا التكرار؟

١- بيانُ أهمية تلك القصة؛ لأن تكرارها يدل على العناية بها.

٢- توكيد تلك القصة؛ لتثبت في قلوب الناس.

٣- مراعاة الزمن وحال المخاطبين بها؛ ولهذا تجد الإيجاز والشدة غالبًا فيما أتى من القصص في السُّوَر المكية، والعكس فيما أتى في السُّوَر المدنية.

٤- بيان بلاغة القرآن؛ في ظهور هذه القصص على هذا الوجه، وذاك الوجه على ما تقتضيه الحال.

٥- ظهور صدق القرآن؛ وأنه من عند الله تعالى، حيث تأتي هذه القَصَصُ متنوعةً بدون تناقُصٍ.

الشـــرح

وهذه من الحِكم، وهي:

أولًا وثانيًا: بيان أهمية تلك القصة، ولذلك يكررها الله -عز وجل- اعتناء بها، وتثبيتًا، وترسيخا.

ثالثًا: مراعاة الزمن، وحال المخاطبين بها، ولهذا تجد الإيجاز، والشدة غالبًا فيما أتى من القَصَصِ في السُّوَر المكية، والعكس فيما أتى من السور المدنية، وهذا من بلاغة القرآن، ومراعاة حال المخاطب، وهذه من أعلى أنواع البلاغة.

رابعًا: بيان بلاغة القرآن في ظهور هذه القصص على هذا الوجه، وذاك الوجه على ما تقتضيه الحال؛ لأن مطابقةَ الكلام لمقتضى الحال هو البلاغة في الحقيقة.

خامسًا: ظهور صدق القرآن، وأنه من عند الله، حيث تأتي هذه القصص متنوعةً بدون تناقض، فإن هذا يدل على صدق القرآن، ويدل أيضًا من وجه آخر، كونها تأتي على وجوه متعددة، مما يدل على صدق القرآن، وأن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- يتلوه على الناس كما ورد، وتعلمون أن الكاذب يحاول أن يُخْفِيَ كذبه بكل طريق، فيحاول أن يكون كلامه الثاني مثل الأول، حتى لا يقول الناس: إنك كاذب، حدثتنا في الأول على وجه كذا والثاني على وجه كذا، فإذا جاءت القصص فيها نوعٌ من التغاير، مع ثبوت النبي ﷺ وبيانها للناس، دلَّ على أنه صادق -عليه الصلاة والسلام-.

فإن قال قائل: قلتم أن مجيء القصص متنوعةً لا تعارض بينها، لكن نجد بعضها يعارض البعض في الظاهر، مثل: قصة موسى مع فرعون، فإنه في بعض الآيات قال فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:١٠٩]، وفي بعض الآيات ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:١٠٩] فكيف الجمع؟

قلنا: الجمع سهلٌ جدًا، فنسبة هذا القول إلى قومه وإليه لا تعارض بينهما، فهو يقول ذلك أولًا، ثم يتبعه قومه، وهذا ليس فيه غرابة، كذلك ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس:٢]، و﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:١٠٩] لأن الساحر العليم يلزم من علمه أن يُبَيِّن، وتعلمون أن الأمر ليس كلمة واحدة، قد يكون قال: (ساحرٌ عليم) في وقت، وقال: (ساحرٌ مبين) في وقت آخر، فالإنسان الذكيُّ يستطيع أن يجمع بين ما ظاهره التعارض في القصة الواحدة.

وما الفرق بين القَصص والقِصص؟

الجواب: القَصص بالفتح مصدر، والقِصص بالكسر جمع قصة.

وهل تجوز كتابة القصص الخيالية؟

الجواب: إن كانت هذه القصص ليس لها أصل، كأن تكون لغوًا، أو كانت مكذوبة على شخص معيَّن فهذا لا يجوز؛ لأنه كذب، وإن كانت هادفةً وفيها مصلحةٌ كأن يُصَوِّر حالةً من الأحوال تدعو إلى الأخلاق أو الآداب فهذا لا بأس به.

* * *

الإسـرائيليات

١- موقف العلماء من الإسرائيليات.

الإسـرائيليـات

الإسرائيليات: الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل من اليهود وهو الأكثر، أو من النصارى.

وتنقسم هذه الأخبار إلى ثلاثة أنواع:

الأول: ما أقره الإسلام، وشهد بصدقه فهو حق.

مثاله: ما رواه البخاري وغيره عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحَبْر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧][(١)].

الشــرح

الإسرائيليات منسوبة إلى إسرائيل، وإسرائيل -عليه الصلاة والسلام- أحد الأنبياء، لكن سُمِّي ما ينقله بنو إسرائيل إسرائيليًّا من باب النسبة إلى

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ...﴾، رقم (٤٨١١)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٦).

المضاف إليه لا إلى المضاف، وقد ذكر علماء النحو إن النسبة إلى المضاف والمضاف إليه تكون إما لهما مركبين، وإما للأول إذا كان أشهر وإما للثاني.

والإسرائيليات «الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل من اليهود وهو الأكثر، أو من النصارى»؛ لأن النصارى من بني إسرائيل؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الصف:٦]، فما نُقِل عن بني إسرائيل فهو إسرائيلي.

والإسرائيليات من القصص التي يجب الحذر منها، خصوصًا إذا كانت تتضمن عَيْبًا، أو لـمزًا لأحدٍ من الأنبياء، مثل: قصة سليمان، وقصة داود -عليهما السلام-، وما أشبه ذلك.

والإسرائيليات تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

الأول: ما أقره الإسلام، وشهد بصدقه؛ فهذا حق؛ لأنه عن بني إسرائيل.

ودليله: ما رواه البخاري وغيرُه عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: **جاء حبرٌ من الأحبار إلى رسول الله فقال: يا محمد، إنَّا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع. ثم ضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه؛** تصديقًا لقول الحبر، وليس تعجبًا منه وإنكارًا له، كما زعمه أهل التحريف الذين يقولون: إن الله ليس له أصابع -والعياذ بالله-، ويقولون: إن الرسول ﷺ إنما ضحك تعجبًا، وإنكارًا، فيقال لهم: أأنتم أعلم أم الصحابة؟ وابن مسعود -رضي الله عنه- من فقهاء الصحابة، ومن أجِلَّائِهِم، ومع ذلك قال: إنه ضحك؛ تصديقًا لقول الحبر، وهذه مسألة عظيمة، لو كان هذا أمرًا منكرًا،

ما اقتصر الرسولُ ﷺ على مجرد الضحك الذي يحتمل أن يكون تصديقًا، أو يحتمل إنْ قيل به: أن يكون إنكارًا.

ولو كان منكرًا؛ لأنكره صراحة، ثم قرأ الرسول -عليه الصلاة والسلام- مقررًا لهذا: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، أي ما عُظِّمَ الله حق تعظيمه، مع أنه -عز وجل- في هذه العظمة العظيمة، والأرض جميعها كلها قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه كما قال الله -تعالى-: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

وهنا فائدة في قوله: «إصبع» فيه عشر لغات، ولهذا لا يُخطئ فيه أحد من الناحية الصرفية؛ لأنها مثلثة الهمزة والباء، والصاد ساكنة على كل حال، اللهم إذا كان من الناحية الإعرابية، وقد قال الناظم(١):

وَهَمْـــزَ أُنْمَلَـــةٍ ثَلِّـــثْ وَثَالِثَـــهُ … وَالتِّسْعُ فِي أُصْبُعٍ وَاخْتِمْ بِأُصْبُوعِ

***

(١) البيت غير منسوب في تاج العروس (٣١/ ٤١).

الثاني: ما أنكره الإسلام وشهد بكذبه فهو باطل.

مثاله: ما رواه البخاري عن جابر -رضي الله عنه- قال: كانت اليهود تقول: إذا جامع الرجل زوجته من ورائها، جاء الولد أحول؛ فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣][(١)].

الشــرح

وهذا الثاني عكسُ الأول.

مثاله: ما رواه البخاري عن جابر -رضي الله عنه- قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعَ الرجلُ امرأَتَه من ورائها جاء الولد أحولَ، فنزلت ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾؛ لأن اليهود يَرَوْنَ أن الولد لا يجيء سالمًا إلا إذا جامعها من الفرج، أي: القُبل، فأنزل الله تكذيبهم: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، وفي هذه الآية إشارةٌ إلى أن المأذونَ فيه لا يمكن أن يحدث شرًا، وهذه قاعدة تفيد طالب العلم، أنه لا يمكن أن يُحِلَّ اللهُ لعباده ما يضرهم.

مثال ذلك: ما جاء في الحديث الموضوع المكذوب على رسول الله ﷺ: **«أن لحم البقر داءٌ، ولبنها شفاء»**[(٢)]؛ لأنه لا يمكن أن يكون لحمها داء، وقد أحلَّه الله لنا، وعليه نأخذ من هذه الآية: أن الله لما أباح لنا أن نأتي حرثنا من حيث شئنا، دل ذلك على أن وطء المرأة في قبلها من خلفها جائز.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ...﴾، رقم (٤٥٢٨)، ومسلم: كتاب النكاح، باب جواز جماعه امرأته في قبلها، من قدامها أو من ورائها، من غير تعرض للدبر، رقم (١٤٥٣).

(٢) كنز العمال (٢٨٤٧٢)، والبيهقي في الشعب (٥/ ١٠٣، رقم ٥٩٥٢).

الثالث: ما لم يقره الإسلام، ولم ينكره، فيجب التوقف فيه.

لما رواه البخاري[(١)] عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦] الآية، ولكن التحدث بهذا النوع جائز، إذا لم يخش محذور؛ لقول النبي ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مِقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» رواه البخاري[(٢)].

الشـرح

هذا الثالث هو الميدان الفسيح لناقل الإسرائيليات، ما لم يرد في شرعنا تصديقُه ولا تكذيبُه، فهذا يجب التوقف فيه، فلا نصدق، ولا نكذب؛ لأننا: إن صدقناهم وهو باطل، فقد صدقنا باطلًا، وإن كذبناهم وهو حق، فقد كذبنا حقًا، فالواجب التوقف.

ودليل ذلك حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: «**كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام**»، فالعبرانية لغة اليهود، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «وهي قريبة من اللغة العربية»[(٣)]، واستدل بذلك «**أن النبي ﷺ أمر زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليهود فتعلمها في أيام قليلة نحو ستة عشر يومًا**»، فدلَّ ذلك على أنها

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ...﴾، رقم (٤٤٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٩٥).

سهلة فقال: رسول الله ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَلَكِنْ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ»(١).

وإذا كنا لا نصدق ولا نكذب، فهذا يعني: هذا أننا نتوقف، ولكن التحدث بهذا النوع، الذي لم يرد الشرع بإنكاره ولا إثباته جائز، بشرط ألا يُخشى محذور؛ لقول النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مِقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، رواه البخاري.

فالمحذور الذي يُخشى منه أن يتجه الناس إلى هذه القصص، ويَدَعُوا ما جاء في القرآن والسنة، فإذا أتينا بهذه الإسرائيليات التي ليس بشرعنا تصديقها ولا تكذيبها انهمك الناس بها، وترك الناسُ ما في القرآن من المواعظ، ففي هذه الحال يجب ألا ننقلها إلى الناس، وألا نتحدث بها؛ لأن كل شيء يُفضي إلى الإعراض عن الكتاب والسُّنَّة فإنه محرم.

***

وغالبُ ما يُروى عنهم من ذلك، ليس بذي فائدة في الدِّين؛ كتعيين لون كلب أصحاب الكهف ونحوه.

الشــرح

وأكثر ما يُروى عن الإسرائيليين ليس فيه فائدة، مثل: قولهم في كلب أصحاب الكهف، ما لونه، ويقولون في طعام الذي أماته الله مئة عام: هذا

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾، رقم (٤٤٨٥).

الطعام هل هو حنطة أو عنب أو تمر؟ وما أشبه ذلك؛ لأن هذا ليس فيه فائدة كبيرة، لذلك أكثر ما يُروى عنهم هو هذا الذي لا فائدة فيه.

***

وأما سؤال أهل الكتاب عن شيء من أمور الدِّين، فإنه حرام؛ لما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ؛ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ، وَقَدْ ضَلُّوا، فَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ، أَوْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ، وَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتْبَعَنِي»[1].

وروى البخاري[2] عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أَنْزَلَ اللهُ على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله محضًا، لم يُشَبْ، وقد حدَّثكم الله أن أهل الكتاب قد بدَّلوا من كتاب الله، وغيروا، فكتبوا بأيديهم، قالوا: هو مِنْ عند الله؛ ليشتروا بذلك ثمنا قليلا، أَوَلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ فلا والله رأينا رجلًا منهم يسألكم عن الذي أُنْزِل إليكم.

الشـرح

رضي الله عنهم، هذا كلامٌ جيد جزل، وبه نعرف أن ما يذكره علماء مصطلح الحديث أن ابنَ عبَّاسٍ ممن عُرِف بالأخذ عن بني إسرائيل، أنه

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٨، ٣٨٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها، رقم (٢٦٨٥)، و(٦٩٢٩).

لا صحةَ له؛ لأنه كيف يأخذ عن بني إسرائيل، وهو ينهى عنهم، فهو يقول: «كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزلَه اللهُ على نبيكم أحدثُ الأخبار عن الله؛ لأنه آخر ما نزل محضًا، لم يُشَبْ» يعني ما بدل، ولا غير، ولا زيد فيه، ولا نقص منه، «وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب، قد بدلوا من كتاب الله وغيروا، وكتبوا بأيديهم، وقالوا: هذا من عند الله؛ ليشتروا بذلك ثمنًا قليلًا، أوَلا ينهاكم ما جاءكم من العلم، عن مسألتهم؟! فلا والله ما رأينا رجلًا منهم يسألكم عن الذي أنزل إليكم»، كيف هم لا يسألوننا عن الذي أنزل إلينا مع أنه آخر ما نزل. ثم نحن نسألهم؟ وهذا من باب الإغراء في ترك سؤالهم، كأنه يقول: إذا كانوا هم لا يسألونكم، فكيف أنتم تسألونهم، وهو كلام عظيم فيه تحذير وفيه نعيٌ لعقول مَنْ في عصرنا ممن يذهبون ليأخذوا النظم والقوانين والحُكم بين الناس من كفار، يجلبون القوانين من أمة الكفر، ويحكمون فيها بين المسلمين، وهذا خطره عظيم، نسأل الله السلامة والهداية.

فإن قال قائل: أليس الله يقول: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤] فيقال: إن هذا ليس سؤال استعلام، ولكنه سؤال إثبات لما نزل.

***

موقف العلماء من الإسرائيليات

اختلفت مواقف العلماء، ولا سيما المفسرون من هذه الإسرائيليات على ثلاثة أنحاء:

أ- فمنهم من أكثر منها مقرونة بأسانيدها؛ ورأى أنه بذكر أسانيدها خرج من عهدتها، مثل ابن جرير الطبري.

ب- ومنهم من أكثر منها، وجردها من الأسانيد غالبًا؛ فكان حاطب ليل مثل البغوي الذي قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١] عن تفسيره: «إنه مختصر من الثعلبي، لكنه صانه عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة»، وقال عن الثعلبي: «إنه حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع».

ج- ومنهم من ذكر كثيرًا منها، وتعقب البعض مما ذكره بالتضعيف أو الإنكار؛ مثل ابن كثير.

د- ومنهم من بالغ في ردها ولم يذكر منها شيئًا يجعله تفسيرًا للقرآن؛ كمحمد رشيد رضا.

الشـرح

قوله: «موقف العلماء» مُراده بذلك استعمال العلماء للإسرائيليات، هل هم يُكثرون منها، أو يُقَلِّلون منها، أو يعتبرونها؟

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٠٤).

والجواب: أنهم يعتبرونها، وهذا هو المقصود بهذه الترجمة، فالعلماء -رحمهم الله- منهم من أَكْثَر منها، لكنه ذكرها مقرونة بأسانيدها، ورأى أنه إذا ذكرها مقرونة بأسانيدها خرج من العهدة.

ولكن قد يقال: إن هذا فيه نظر؛ لأنه إذا ذكرها فقد لا يتيسر للقارئ أن يراجع أصولها، ويعرفها، ولكن يُعتذر عن ابن جرير وغيره، أنه -والله أعلم- لم يكن لهم فراغ في تمحيصها، وتحريرها، وخافوا من ضياع الصحيح منها، فقالوا: نثبتها، ولعل الله يأتي بمن يُنقحها، ويحررها.

والقسم الثاني: من أكثر منها، وجردها من الأسانيد غالبًا، وهذا أقل رتبة من الأول؛ لأن الأول يذكر الأسانيد، وبإمكان الإنسان أن يراجعها، ويعرف الصحيح من الضعيف، لكن هذا لا ينقل الأسانيد، فكان حاطب ليلٍ مثل البغوي.

فالبغوي -رحمه الله- تفسيره فيه من الإسرائيليات وهي كثيرة، ولا يذكر لها سندًا، ولا يتعقبها، لكنه في اللغة جيد، وتفسيره تفسير تجزئة، أي يفسر جملة جملة، وليس كبعض المفسرين يذكر الآيات الكثيرة، ثم يذكر المعنى مجملًا، وهي مفيدة لطالب العلم.

لكن ما من أحدٍ إلا وله هفوة في الإسرائيليات، لا يهتم بها، ولا يذكر أسانيدها، وينقلها، قال شيخ الإسلام -رحمه الله- في تفسيره: «إنه مختصر من الثعلبي، لكنه»، أي: البغوي -رحمه الله- «صانه عن الأحاديث الموضوعة، والآراء المبتدعة»، فكان بذلك خيرًا من تفسير الثعلبي، وقال عن الثعلبي:

«إنه حـاطب ليل»، ولذلك يُضرب هذا المثل لمـن لا يكترث بالأمـور، ولا يحققها، ولا يحررهـا، -ينقل مـا وجد في كتب التفسير من صحيح، وضعيف، وموضوع.

ومن العلماء من ذكر كثيرًا منها، وتعقب البعض بما ذكره، إما ذكره في التضعيف أو الإنكار، وهذا مثل ابن كثير -رحمه الله-، ولكن نقول: «تعقب البعض»، يعني لم يتعقب جميع الإسرائيليات الضعيفة، بل تعقب بعضها، وأنكره أشد الإنكار، وهذا أحسن من الذي قبله.

«ومنهم من بالغ في ردها، ولم يذكر منها شيئًا يجعله تفسيرًا للقرآن، كمحمد رشيد رضا»، والظاهر أن غيره من المعاصرين مثله، لا يعتبر إطلاقًا بالإسرائيليات، ويقول: لا يجوز أن نُفَسِّرَ بها كلامَ الله -عز وجل-، ويعرض عنها إعراضًا كاملًا.

وهذه هي أحوالُ العلماء بالنسبة للإسرائيليات.

وتفسير الشيخ محمد رشيد رضا أستفيد منه كثيرًا؛ لأن في تفسيره مسائل جيدة، وكما نعلم هو -رحمه الله- ممن يميل إلى الاستقلال الفكري، وأعني: الاستقلال الفكري، أي: أنه غالبًا يرجع إلى فكره دون أن يرجع إلى غيره، ولكن مع ذلك يكون استنباطه وفهمه جيدًا في تفسير القرآن، ثم يتعرض في بعض الأحيان لأحوال المسلمين الواقعة، ويطبق عليها آيات القرآن، لكنه لم يتمه -كما نعلم-.

* * *

الضمير

١- الإظهار في موضع الإضمار.

٢- ضمير الفصل.

٣- الالتفات.

الضَّمِيرُ

الضمير لغة: من الضمور، وهو الهزال، لقلة حروفه، أو من الإضمار وهو الإخفاء، لكثرة استتاره.

وفي الاصطلاح: ما كُنِّي به عن الظاهر اختصارًا، وقيل: ما دلَّ على حضور، أو غيبة، لا من مادتها.

الشرح

الضمير موجودٌ بكثرة في اللغة العربية، وفي القرآن، وفي السنة النبوية، فهو مشتَقٌّ من الضمور، وهو الهزال لقلة حُروفه في الواقع، فتجدُ بعضه على حرفٍ واحدٍ، مثل: «الهاء» في ضربه، فهي على حرفٍ واحدٍ، ومنه ما هو على حَرْفَيْن، مثل: هو، ومنه ما هو على ثلاثة أحرُفٍ، مثل: نحن.

وقيل: إنه من الإخفاء، لكثرة استتاره، وهل يمكن أن يكون مأخوذًا من الجميع؟ يمكن ولا منافاة، وكلاهما صحيح.

وانظر إلى الضمير مثلًا في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ كيف نابت ﴿لَهُم﴾ عن عشرين كلمة؟! مما يدل على أنه كلمة مختصرة تنوب عن كلمات كثيرة.

«**وفي الاصطلاح: ما كُنِّي به عن الظاهر اختصارًا**»، يعني: ما جاء كناية عن الظاهر اختصارًا، فإذا قلت: عمرٌو ضربه بكرٌ، فـ «**الهاء**» نابت عن

عمرو اختصارًا، وقيل: ما دل على حضور، أو غيبة، لا من مادتهما، وهذا تفسير ابن مالك -رحمه الله- في الألفية[1]:

فَـمَا لِــذِي غِيبَــةٍ أَوْ حُضُــورِ   كَـ(أَنْتَ) وَ(هُوَ) سَمِّ بِالضَّمِيرِ

وقوله: «لا من مادتهما» يعني: لا نقول: حضر أنه ضمير، ولا غاب أنه ضمير؛ لأن دلالة حضر على الحضور، هي من مادتها، ودلالة غاب من الغيبة وهي من مادتها.

* * *

فالدَّال على الحضور نوعان:

أحدهما: ما وضع للمتكلم؛ مثل: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر:٤٤].

الثاني: ما وُضع للمخاطَب؛ مثل: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧].

وهذان لا يحتاجان إلى مرجع؛ اكتفاءً بدلالة الحضور عنه.

والدال على الغائب، ما وُضِع للغائب. ولا بد له من مرجع يعود عليه.

الشـــرح

إذن: الضمير في قوله -تعالى-: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، الضمير هو الياء في ﴿أَمْرِىٓ﴾، وفي قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ﴾ ضمير موضوع للمتكلم.

قاعدة: اعلم أنه إذا كان تقدير الضمير (أنا) أو (أنت) أو (نحن) فهو مستتر وجوبًا، تقول مثلًا: «أقوم» الفاعل ضمير مستتر وجوبًا تقديره أنا،

---

(١) البيت رقم (٥٤).

وتقول: «نقوم» الفاعل مستتر وجوبًا تقديره نحن، وتخاطب الرجل فتقول: «أنت تقوم» فالضمير مستتر وجوبًا تقديره أنت، وما كان تقديره (هو) أو (هي) فهو مستتر جوازًا.

كلٌّ يعرِف أن (أنعمتَ) يراد به المخاطَب، وكذلك «ضربتُ» لا يحتاج إلى مرجع لأنه موضوع للمتكلم، وكذلك «أنا قائم» لا يحتاج إلى مرجع؛ لأنه موضوع للمتكلم. وما وُضع للمتكلم أو المخاطب لا يحتاج إلى مرجع؛ اكتفاءً بالخطاب أو الحضور.

أما ما وضع للغائب فلا بد له من مرجعٍ يعود عليه؛ لأنه إذا لم يكن له مرجعٌ لا تعرف مَنْ هو؟ فإذا قلتَ: «قام» ففيه ضميرٌ يحتاج إلى مرجع.

***

والأصل في المرجع أن يكون سابقًا على الضمير لفظًا ورتبةً، مطابقًا له لفظًا ومعنىً، مثل: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ [هود:٤٥].

الشـــرح

وهذا هو الأصل في مرجع الضمير الغائب أنه يحتاج إلى مرجع، والأصل فيه أن يكون سابقًا على الضمير لفظًا ورتبة، مطابقًا له لفظًا ومعنى، والسبق: إما باللفظ، وإما بالرتبة، والمطابقة: إما باللفظ، وإما بالمعنى، مثاله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾، «الهاء» في ﴿رَّبَّهُۥ﴾ تعود على ﴿نُوحٌ﴾، و﴿نُوحٌ﴾ سابق على الضمير لفظًا ورتبة؛ لأنه فاعل. والفاعل مقدمٌ في الرتبة على غيره ومطابق لفظًا ومعنى؛ لأنه -أي: الضمير- في ﴿رَّبَّهُۥ﴾ ضمير مفردٍ مذكر، والمرجع مفردٌ مذكر.

وقد يكون مفهومًا من مادة الفعل السابق؛ مثل: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

الشـــرح

وقوله -تعالى-: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ﴾، المرجع هو الْعَدْل المفهوم من كلمة: ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾.

* * *

وقد يسبق لفظًا لا رتبةً مثل: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة:١٢٤].

وقد يسبق رتبةً لا لفظًا مثل: «حمل كتابه الطالب».

الشـــرح

يسبق لفظًا لا رتبة كقوله: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾، وجهه أنه متقدمٌ لفظًا لا رتبةً؛ لأن المفعول به يكون بعد الفاعل، هنا قدم المفعول به فصار متقدمًا لفظًا لا رتبةً؛ لأنه رتبة يكون بعد الفاعل.

وقد يسبق رتبة لا لفظًا؛ ومثاله: «**حمل كتابه الطالب**»، الأصل (حمل الطالبُ كتابَه) فقدم الضمير، أي «الهاء» في «**كتابه**» على الطالب، و«**الطالب**» متأخر عن مرجعه، لكنه متأخر لفظًا لا رتبة؛ لأن الطالب فاعل، ورتبته أن يتقدم.

* * *

وقد يكون مفهومًا من السياق مثل: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء:١١]، فالضمير يعود على الميت المفهوم من قوله: ﴿مَا تَرَكَ﴾.

وقد لا يطابق الضمير معنى، مثل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً﴾ [المؤمنون:١٢-١٣]، فالضمير يعود على الإنسان باعتبار اللفظ، لأن المجعول نطفةً ليس الإنسان الأول.

الشـــرح

إذن: هذه أيضًا أحوال، فقد يكون مفهومًا من السياق؛ كقوله -تعالى-: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، فالضمير يعود على الميت المفهوم من قوله: «مِمَّا تَرَكَ».

وقد لا يطابق الضميرَ معنىً مثل قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً﴾، أي الإنسان باعتبار اللفظ، وإذا قلنا: مطابق معنى، فمعناه أن آدم تحوَّل إلى نطفة، فصار في بطن الأمهات، وهذا لا يستقيم، إذنْ «جَعَلْنَاهُ» أي الإنسان، فعاد إلى اللفظ لا إلى المعنى.

***

وإذا كان المرجع صالحًا للمفرد والجمع جاز عَوْدُ الضمير عليه بأحدهما، مثل: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق:١١].

الشـرح

إذن: إذا كان المرجع صالحًا للمفرد والجمع، جاز عود الضمير عليه بأحدهما، يعني إما الجمع وإما المفرد، مثاله قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ﴾، «مَنْ» هذه شرطية صالحًا للواحد والجماعة، والضمائر في قوله: ﴿يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ﴾ عادت إلى «مَنْ» باعتبار المفرد، والضمير في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ باعتبار الجمع، و«مَنْ» لفظها مفرد ومعناها الجمع.

وقوله -تعالى-: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ فهنا الضمير عاد مرة ثانية إلى المفرد، وهذا يعلم من السياق.

***

والأصل اتحاد مرجع الضمائر إذا تعددت، مثل: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:٥-١٠] فضمائر الرفع في هذه الآيات تعودُ إلى شديد القوى، وهو جبريل.

الشـرح

الأصل أن الضمائر مرجعها واحد، وكما أنه هو الأصل، فهو الأقرب للمعنى؛ لأنك لو جعلت الضمير الأول لشيء، والثاني لشيء، والثالث لشيء، لزم من ذلك تشتت الضمائر، وصار الكلام الذي يراد أن يكون بينًا صار مبهمًا خفيًا، فإذا وجدت ضمائر متعددة، فاحملها على مرجع واحد، هذا هو الأصل، ولا تُشتت الضمائر.

مثاله: قوله -تعالى-: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾، ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ أي: النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ يعني: بذلك جبريل، ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ أي: ذو هيئة حسنة ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ أي: كمل، ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ معناها الشيء المرتفع في الجو، وقوله: ﴿اسْتَوَى﴾ أي: كان على خلقته التي خلق عليها، له ستمئة جناح[1]، ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي: جبريل -عليه السلام-، ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أي: جبريل جبريل عليه السلام، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ أي: جبريل -عليه السلام-، ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ جبريل، ﴿إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ النبي ﷺ، ﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾ أي ما أوحاه جبريل، أو ما أوحاه الله إلى جبريل.

فمن العلماء من قال: إن قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ هو يعود على الله -عز وجل-، والذي حملهم على ذلك قوله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ فراعوا آخر الآية، ولم يراعوا أولها، وشتتوا الضمائر، ولم يوحدوا مرجعها، ولهذا كان الصواب بل المتعين: أن يكون الذي ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ هو جبريل -عليه الصلاة والسلام-، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وهذه قاعدة مهمة، أن الضمائر إذا تتابعت فمرجعها واحدٌ، إلا بدليل يصرفها عن هذا.

***

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤١٢، رقم ٣٩١٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٣، رقم ١١٥٤٢).

والأصل عود الضمير على أقرب مذكور إلا في المتضايفين فيعود على المضاف؛ لأنه المتحدَّث عنه.

مثال الأول: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الإسراء:٢].

ومثال الثاني: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤].

وقد يأتي على خلاف الأصل فيما سبق بدليلٍ يدل عليه.

الشــرح

«الأصل عود الضمير على أقرب مذكور إلا في المتضايفين، فإنه يعود على المضاف؛ لأنه هو المتحدَّث عنه».

فمثال الأول: يعني على أقرب مذكور قوله -تعالى-: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، فقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ عائدٌ على الكتاب لأنه أقرب مذكور.

ومثال الثاني: في المتضايفين، قوله -تعالى-: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، فالضميرُ يعودُ على ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾، والدليل على أنه يعودُ عليها التأنيث في قوله: ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾، وكذلك قوله -تعالى-: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾ [الحج:٧٨] فقوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾ هل هو عائدٌ على الله -عز وجل- أم على إبراهيم -عليه السلام-؟

في هذا قولان:

القول الأول: أنه يعود على الله؛ لأن الحديث هكذا مجراه.

والقول الثاني: أنه يعود على إبراهيم؛ لأنه أقرب مذكور.

والحقيقة أن هناك أحوالًا يعود الضمير فيها إلى المضاف إليه، وأحوالا يعود الضمير إلى المضاف، وهذا ينبغي للإنسان إذا مرت به هذه الأشياء أن يقيدها؛ لئلا ينسى، **والراجح من السياق** أن المسمِّي هو الله -عز وجل-.

فإن قال قائل: في قوله -تعالى-: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق:٩-١٠] على من تعودُ هذه الضمائر؟

قلنا: إن فيها ما يكون على الأصل، وفيها ما يكون على خلاف الأصل، فقوله -تعالى-: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾، ﴿إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ تعود على الرسول -عليه السلام-، وقوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ [العلق:١١-١٢] كذلك يعود على الرسول.

ومثله: في حديث «**خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**»[(١)]، ما هو مرجع الضمير فيها؟

هل يعود على الله -عز وجل- لأنه هو الخالق، أم يعود على آدم عليه السلام؛ لأنه أقرب مذكور؟

الجواب: إن قلنا: أقرب مذكور «**خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**»، لكن الواقع أن هذا يمنعه شيئًا، أن يعودَ الضميرُ على آدم الشيء الأول أنه لا مزية لآدم إذا خلقه الله على صورته، أي: على صورةِ آدم؛ لأن كل شيءٍ خَلَقَه اللهُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب بدء السلام، رقم (٦٢٢٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن ضرب الوجه، رقم (٢٦١٢).

على صورته، أي: على صورة نفسه، حتى الفرس خلقه الله على صورته، وحتى الجمل خلقه الله على صورته، وحتى إبليس خلقه الله على صورته، فيبقى الحديث لا معنى له إطلاقًا.

الشيء الثاني: مما يمنعه أنه قد ورد بلفظ صريح «**خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ**»[1]، وهذا أمر صريح لا يقبل النزاع، فَيُحمل الضميرُ المبْهَمُ على الظاهر المفصل، لكن يبقى النظر في معنى الحديث؟

قيل: معناه إن الله خلق آدم على صورته، مثل قوله: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾، و«بيت الله» فإضافة الصورة إلى الله -عز وجل- إضافة تشريف وتكريم، وأن هذا الذي خلقه الله على الصورة التي اختارها وإضافتها إلى نفسه لا ينبغي أن يقبح أو يضرب؛ لأن الأصل «**لَا تَضْرِبُوا الْوَجْهَ**» لا تقبحوه «**فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**»، فما دامت هذه الصورة قد اعتنى الله بها وأضافها إلى نفسه، فإنها لا تُقَبَّح فتعاب معنى، ولا تُضرب فتعاب حسًّا، وعلى هذا فتكون الصورةُ صورةَ آدم، لكنها أضيفت إلى الله تعالى تشريفًا، وهذا ليس بغريبٍ، وليس ببعيد، وليس بمنكر؛ لأن اللفظ يحتمله احتمالًا قريبًا.

الثاني: أن نقولَ على صورة الله، أي: على صورة الرب -عز وجل- التي هي صورة الربِّ، ولا يعارض هذا قوله -تعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، لأنه لا يلزم من كونه على صورته أن يكون مماثلًا له،

---

(١) أخرجه الطبراني (١٢/ ٤٣٠، رقم ١٣٨٥٠)؛ وقال الهيثمي (٨/ ١٠٦): «رجاله رجال الصحيح، غير إسحاق بن إسماعيل الطالقاني، وهو ثقة، وفيه ضعف»، وأخرجه الحاكم (٢/ ٣٤٩، رقم ٤٢٤٣)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين».

بدليل أن أهل الجنة، أول زمرة تدخل الجنة منهم على صورة القمر ليلة البدر[1]، ولا يلزم من كونهم على صورة القمر ليلة البدر أن يكونوا مماثلين للقمر، وهذا لا شك أنه أسلم حيث أننا أجرينا الحديث على ظاهره، والعلة التي خاف منها من قالوا: إنه مضاف على سبيل التكريم تزول فيها إذا قلنا: إنه لايلزم من كون الشيء على صورة الشيء أن يكون مماثلًا له، ونضرب المَثَل بأصحاب الجنة الذين يكونون على صورة القمر ليلة البدر.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٥)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر، رقم (٢٨٣٤).

الإِظْهارُ فِي مَوْقِعِ الإِضْمَارِ

الأصل أن يؤتى في مكان الضمير بالضمير؛ لأنه أبين للمعنى وأخصر للفظ، ولهذا ناب الضمير بقوله -تعالى-: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٣٥] **عن عشرين كلمة المذكورة قبله، وربما يؤتى مكان الضمير بالاسم الظاهر، وهو ما يسمى: (الإظهار في موضع الإضمار).**

الشــرح

الأصل أن يؤتى في مكان الضمير بالضمير لوجهين:

الوجه الأول: أنه أَبْيَنُ للمعنى؛ لأنك إذا أظهرتَ في موضع الإضمار فقد يظن الظَّان أن هذا الكلام لا يرجع، ولا يعود إلى ما سبق.

الوجه الثاني: أنه أَخْصَر؛ لأننا ذكرنا في تعريف الضمير: أنه «مَا كُنِّي به عن الظاهر اختصارًا»، ويدل على هذا قوله -تعالى-: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ولو قال: «أَعَدَّ اللهُ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ» فإن الكلام يكون طويلًا من وجه، وركيكًا من وجه آخر، فجاء هذا الضمير لينوب عن عشرين كلمة.

* * *

ولـه فوائد كثيرة، تظهر بحسب السياق، منها:

١ - الحكم على مرجعه بما يقتضيه الاسم الظاهر.

٢- بيان علة الحكم.

٣- عموم الحكم لكل متصف بما يقتضيه الاسم الظاهر.

مثال ذلك: قوله -تعالى-: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٩٨]، ولم يقل: فإن الله عدو له، فأفاد هذا الإظهارُ:

١- الحكم بالكفر على من كان عدوًّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال.

٢- إن الله عدو لهم لكفرهم.

٣- أن كلَّ كافر فالله عدو له.

مثال آخر: قوله -تعالى-: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٠] ولم يقل: «إنا لا نضيع أجرهم»، فأفاد ثلاثة أمور:

١- الحكم بالإصلاح للذين يمسكون الكتاب. ويقيمون الصلاة.

٢- أن الله آجرهم لإصلاحهم.

٣- أن كل مُصْلِحٍ وله أجرٌ غير مُضَاعٍ عند الله تعالى.

وقد يتعين الإظهار، كما لو تقدم الضميرَ مرجعان، يصلح عوده إلى كل منهما، والمراد أحدهما مثل: (اللهم أصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانة ولاة أمورهم)، إذ لو قيل: وبطانتهم، لأَوْهَمَ أن يكون المراد بطانة المسلمين.

الشـــرح

الإظهار في موضع الإضمار، يعني: أن يكون السياقُ يقتضي أن يؤتى بالضمير، ولكن أُتِي بالظاهر مكان الضمير، وهذا له فوائد، منها:

أولًا: الحكم على مرجعه بما يقتضيه الاسم الظاهر؛ فإذا كان الاسم الظاهر يقتضي الكفر، حكمنا على مرجعه بأنه كافر، وإذا كان يقتضي الظلم حكمنا على مرجعه بأنه ظالم، وهكذا.

ثانيًا: بيان علة الحكم؛ وهو أن علته ما دل عليه ذلك الاسم الظاهر، وسيتبين بالمثال.

ثالثًا: عموم الحكم لكل متصل بما يقتضيه الاسم الظاهر؛ يعني إرادة العموم.

رابعًا: وهي التنبيه؛ لأن السياق إذا كان يقتضي الإضمار، ثم جاء الإظهار، فإن الإنسان يتوقف، لماذا جاء الإظهار، فيكون فيه فائدة وهي تنبيه المخاطب، أو القارئ، مثال ذلك: قول الله -تعالى-: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾، مقتضى السياق أن يقال فإن الله عدوٌّ له؛ لأن المقام مقام ضمير، ولكن الله -تعالى- قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ فأفاد هذا الإظهار أولًا الحكم بالكفر على

من كان عدوٌ لله، وملائكته، ورسله، وجبريل وميكال.

وجه ذلك: أنه لو قال: «من كان عدوًّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو له» فهل نستفيد أن هذا كافر؟

فالجواب: لا، فإذا كان عدوًّا لهؤلاء، فالله عدوٌّ له فقط، لكن ما ندري هل هو كافر، أو ظالم، أو فاسق؟ فلما جاءت ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ حكمنا على أن مَنْ كان عدوًّا لله، وملائكته، ورسله، وجبريل، وميكال، فإنه كافر.

ثانيًا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ تفيد التعليل: أن الله عدوٌ لهم لكفرهم، بخلاف ما لو قال: «فإن الله عدوٌّ له»، فإنه لا يتبين بذلك علة العداوة.

ثالثًا: قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ يفيد العموم، وهو أن كل كافر فالله عدوٌّ له.

رابعًا: ما تقدّم، وهو التنبيه، ووجه ذلك: أنه إذا كان مجرى الكلام على نسق واحد، ثم جاء ما يخالف هذا النسق، فإن السامع سوف يتوقف، فيحصل التنبه بهذا.

مثال آخر: قوله -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ يعني: يتمسكون به تمسكًا تامًا، ولهذا جاءت مشددة للمبالغة، وقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ كان من المتوقع أن يقول: أجرهم، لكنه قال سبحانه و-تعالى-: ﴿أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾، ولم يقل: «إنا لا نضيع أجرهم»، فأفاد ثلاثة أمور:

أولًا: الحكم للذين يمسكون بالكتاب، ويقيمون الصلاة بأنهم مصلحون، ولو قال: «إنا لا نضيع أجرهم» لم يتبين لنا.

ثانيًا: أن الله آجرهم لإصلاحهم، وهذه إفادةٌ عالية.

ثالثًا: أن كل مصلح فله أجر غير مضاعٍ عند الله تعالى.

قوله: «وقد يتعين الإظهار، كما لو تقدم الضميرَ مرجعان يصلح وعوده إلى كل منهما والمراد أحدهما مثاله: (اللهم أصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانة ولاة أمورهم)، إذ لو قيل: (وبطانتهم) لأَوْهَم أن يكون المراد بطانة المسلمين» أي: لو كان الدعاء اللهم أصلح للمسلمين ولاةَ أمورهم وبطانتهم، فلفظ «بطانة» يحتمل: أنها بطانة المسلمين، ويحتمل أنها بطانة ولاة الأمور؛ فحينئذٍ يتعين أن يظهر لئلا يحصل الالتباس، وهذه قاعدة معروفة في النحو: أنه إذا خيف الالتباس وجب أن يحول الكلام إلى ما ليس فيه التباس.

* * *

ضمير الفصل

ضمير الفصل: حرف بصيغة ضمير الرفع المنفصل، يقع بين المبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين.

ويكون بضمير المتكلم كقوله -تعالى-: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه:١٤]، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات:١٦٥]، وبضمير المخاطب كقوله -تعالى-: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:١١٧].

وبضمير الغائب كقوله -تعالى-: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وله ثلاثة فوائد:

الأولى: التوكيد، فإن قولك: (زيد هو أخوك) أَوْكَد من قولك: (زيد أخوك).

الثانية: الحصر، وهو اختصاص ما قبله بما بعده، فإن قولك: المجتهد هو الناجح، يفيد اختصاصَ المجتهد بالنجاح.

ثالثًا: الفصل: أي: التمييز بين كون ما بعده خبرًا، أو تابعًا، فإن قولك: (زيد الفاضل) يحتمل أن تكون (الفاضل) صفة لزيد، والخبر منتظَر، ويحتمل أن تكون (الفاضل) خبرًا، وإذا قلت: (زيد هو الفاضل)، تعيَّن أن تكون الفاضل خبرًا، لوجود ضمير الفصل.

الشــرح

قوله: «ضمير الفصل» حرف بصيغة ضمير الرفع المنفصل، وهذا يدل على أنه لا محلَّ له من الإعراب، قال الله -تعالى-: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:٤٠]، ولو كان له محل من الإعراب لقال: «هم الغالبون» لكنه ليس له محلٌّ من الإعراب، إذ إنه حرفٌ يقع بين المبتدأ والخبر إذا كان معرفتين، وسواءٌ كانا منسوخين، أم غير منسوخين، يعني: ضمير الفصل يأتي سواء نُسخ الخبر والمبتدأ، أم لا.

ويكون بضمير المتكلم، وبضمير المخاطب، وبضمير الغائب، يعني: يأتي بكل صور الضمائر.

فضمير المتكلم: كقوله -تعالى-: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، فقوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ الضمير هنا واقع بين مبتدأ وخبر معرفتين؛ لأن **«الياء»** في ﴿إِنَّنِيٓ﴾ ضمير، والضمير معرفة، واسم الجلالة **«الله»** معرفة، كما أنه وقع بين مبتدأ وخبر منسوخين.

وفي قوله -تعالى-: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، القائل هو الله -عز وجل- يخاطب موسى -عليه السلام- يقول: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، أي لا إله غيري، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ أول ما كَلَّمَهُ بالتوحيد، **«لا»** نافية للجنس **«وإله»** اسمها، وخبرها محذوف والتقدير: حق، و**«إلا»** أداة حصر، و**«أنا»** بدل من الخبر المحذوف.

وكذلك أيضًا: قوله -تعالى-: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات:١٦٥] والقائل هو جبريل -عليه السلام-، وفي هذا يقول الرسول ﷺ: **«أَلَا تَصُفُّونَ**

كَمَا تَصُفُّ الْـمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ»[1]، وضمير الفصل في الآية هو «نحن»، لو كانت الآية: «وإنا الصَّافُّون» صح، لكن أُتِي بضمير الفصل للفوائد التي سوف تأتي معنا.

ويكون أيضًا بضمير المخاطب كقوله: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فضمير الفصل ﴿أَنتَ﴾ وهو واقع بين مبتدأ وخبر، كلاهما معرفة، ومنسوخان.

ويكون بضمير الغائب: كقوله -تعالى-: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ فـ﴿هُمُ﴾ وقعت بين معرفتين، وقعت بين المبتدأ والخبر «**أولاء**» اسم إشارة وهو معرفة و﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ مُحَلًّى بـ«**أل**»، وهو معرفة، وقد وقع بين مبتدأ وخبر غير منسوخين.

وأمثلة المنسوخ بـ«إن وأخواتها»، والمنسوخ بـ«كان وأخواتها»، وغير المنسوخ، وكثيرة في القرآن، وكذلك في كلام العرب، وفي الشعر.

وله ثلاث فوائد منها:

الفائدة الأولى: التوكيد؛ فإن قولك: (زيدٌ هو أخوك) أوكد من قولك: (زيدٌ أخوك).

الفائدة الثانية: الحصر؛ وهو اختصاص ما قبله بما بعده، فإن قولك: (المجتهد هو الناجح) يفيد اختصاص المجتهد بالنجاح، وغير المجتهد لا نجاح له، وربما يعبر بعضهم بقولهم: يفيد الحصر، والمعنى واحد.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة، رقم (٤٣٠).

الفائدة الثالثة: الفصل: -أي: التمييز- بين كون ما بعده خبرًا، أو تابعًا، فإن قولك: (زيد الفاضل)، يحتمل أن يكون (الفاضل) صفة لزيد، والخبر منتظر، فيتشوق المخاطب، فإذا أتيت بضمير الفصل، فقلت: (زيدٌ هو الفاضل)، تعين أن يكون الفاضل خبرًا للمبتدأ، ولهذا سُمِّيَ ضميرَ فصل؛ لأنه يفصل بين الخبر والصفة.

وهل ضمير الفصل هو ضمير الشأن؟

الجواب: لا، فضمير الشأن ضميرٌ وله محلٌّ من الإعراب، ويكون محذوفًا، لكن ضمير الفصل موجودٌ، وليس له محلٌّ من الأعراب.

فإن قال قائل: هل هذا التقرير يدل على ضعف قول بعضهم حينما يُقَسِمون الخبر إلى جملة اسمية، أو فعلية، ففي قوله: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨] فتقولون: ﴿أَنتَ﴾ ضمير منفصل، وهو مبتدأ ثانٍ، و﴿ٱلْوَهَّابُ﴾ خبر؟

الجواب: نعم، هذا ضعيف؛ لأنك إذا أعربت هكذا صار الخبرُ جملةً، وأصلُ الخبرِ مفرَدٌ.

* * *

الالْتِفَاتُ

الالتفات: تحويل أسلوب الكلام من وجه إلى آخر، وله صور منها:

١- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب؛ كقوله -تعالى-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:١-٤]، فحوَّل الكلامَ من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿وَإِيَّاكَ﴾.

٢- الالتفات من الخطاب إلى الغيبة؛ كقوله -تعالى-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس:٢٢]، فحوَّل الكلام من الخطاب إلى الغيبة بقوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾.

٣- الالتفات من الغيبة إلى التكلم؛ كقوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة:١٢]، فحول الكلام من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿وَبَعَثْنَا﴾.

٤- الالتفات من التكلم إلى الغيبة؛ كقوله -تعالى-: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:١-٢]، فحوَّل الكلامَ من التكلم إلى الغيبة بقوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾.

وللالتفات فوائد منها:

١- حمل المخاطَب على الانتباه؛ لتغير وجه الأسلوب عليه.

٢- حمله على التفكير في المعنى؛ لأن تغيُّر وجه الأسلوب يؤدي إلى التفكير في السبب.

٣- دفع السآمة والملل عنه؛ لأن بقاء الأسلوب على وجه واحد يؤدي إلى الملل غالبًا.

وهذه الفوائد عامةٌ للالتفات في جميع صوره.

أما الفوائد الخاصَّةُ فتتعيَّن في كل صورةٍ، حسب ما يقتضيه المقام.

والله أعلم. وصلى اللهُ وسلَّمَ على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تَمَّ ولله الحمد رب العالمين.

الشـرح

وهذا فيه براعة اختتامٍ، فبراعةُ الاختتام هي: أنْ يُؤْتَى بآخر الكلام على ما يدُلُّ على الانتهاءِ، وذلكَ أن البحثَ الأخيرَ هو الالتفات، يعني: كأننا التفتنا عن هذا إلى كتاب آخر.

فالالتفات: هو تحويل أسلوب الكلام من وجه إلى آخر، وله صور.

الأول: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب؛ كقوله -تعالى-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فحوَّل الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾، فالغيبة في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، و﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، والخطاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

والفوائد الثلاث المذكورة موجودة هنا.

الأولى: حمل المخاطب على الانتباه.

والثانية: حمله على التفكير في المعنى.

والثالثة: دفع السآمة والملل.

وهذه فوائد عامة في كل الالتفات، لكن الخاصة هنا أنك لما أثنيت على الله -تعالى- بما أثنيت عليه من كونه: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، كأنه بهذا الثناء صار حاضرًا أمامك، فقلت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فبعد الثناء عليه -جلَّ وعلا- حضر في قلبك كأنه أمامك، فقلت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثانيًا: **الالتفات من الخطاب إلى الغيبة**؛ كقوله -تعالى-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾، فحوَّل الكلامَ من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾.

ولو كان على نسق واحد لقال: «وجرين بكم»، لكن قال: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ كراهة أن يتصف المخاطبون بما ذُكِر بعد ذلك، والذي ذكر ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس:٢٢-٢٣]، فهذه الأوصاف لا تُوجَّه إلى المخاطبين، فقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ﴾ الخطاب للمسلمين، وما بعدها فيها أوصاف لا تتوجه إلى المسلمين، فهي أوصاف فيها شيء من الغضاضة، قد وجهت إليهم: كقوله -تعالى-: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس:١] فهي بدل: (عبست وتوليت)؛ لأن المراد بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ النبي -عليه الصلاة والسلام-، ولهذا قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس:٣].

ثالثًا: الالتفات من الغيبة إلى التكلم؛ كقوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾، فحوَّل الكلام من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿وَبَعَثْنَا﴾، ولو كان الكلامُ على نسق واحد، لقال: «وبعث»، لكن حصل الالتفات، إشارة إلى عظمة الله -عز وجل-، وأنه -سبحانه وتعالى- هو الذي يبعث الرسل، وإن كان هذا سيحصل، لكن لو قال: «**ولبعث**»، لكن هذا أبلغُ إذا أضافها إلى نفسه.

رابعًا: الالتفات من المتكلم إلى الغيبة؛ كقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، فحوَّل الكلام من التكلم إلى الغيبة، في قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾ ولم يقل: «**فصلِّ لنا**»، ولو أنه كان على نسق واحد لقال: «**فصلِّ لنا**» لكنه قال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾.

وفائدة الإظهار هنا: الفائدة الخاصة الإشارة إلى أن الله تعالى منحك هذا للفضائل الخاصة بك؛ لأن الكوثر من خصائص الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

ثم قال: «وللالتفات فوائد منها»:

أولًا: حمل المخاطب على الانتباه لتغير وجه الأسلوب عليه؛ وإذا تغيَّر وجه الأسلوب لزم من ذلك أن ينتبه المخاطَب؛ لأن الكلام إذا كان على وتيرة واحدة فلربما يمل الإنسان ويغفل إلا أن يوجد شيء يُنَبِّهَه، فإذا تغير انتبه.

واقرأ قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [المائدة:٦٩]، تجد إذا قرأت ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ انتبهت: لماذا صارت مرفوعةً وهي معطوفةٌ على منصوبٍ؟

واقرأ قوله -تعالى-: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء:١٦٢] تأتي ﴿الْمُقِيمِينَ﴾ في طيَّات الكلمات المرفوعة يوجب الانتباه، فتغيُّرُ الأسلوب لا شك أنه يوجب انتباه المخاطب أو القارئ.

ثانيًا: حمله على التفكير في المعنى؛ لأن تغيُّرَ وجه الأسلوب يؤدي إلى التفكير في السبب، مثلًا لماذا حصل الالتفات؟ ويحاول أن يتلمس العلة الموجبة.

ثالثًا: دفع السآمة والملل عنه؛ يعني عن المخاطب؛ لأن بقاء الأسلوب على وجه واحد يؤدي إلى الملل غالبًا؛ ومن ذلك ذَهب بعضُ القراء إلى تغيير الأسلوب بالصوت، وكذلك بعض الناس صار في خطبة الجمعة إذا مرَّ بالآية يقرؤها تلاوة مرتلة.

وهذا في الحقيقة لا بأس به؛ لأنه يؤدي إلى الانتباه، لكن قد يعارض هذا الانتباه مضرةٌ وهي تشويش السامع؛ لأن السامع سيفكر هل يجوز هذا أم لا؟

ثم قال: «وهذه فوائد للالتفات في جميع صوره، أما الفوائد الخاصة فتتعين في كل صورة حسب ما يقتضيه المقام».

***

فهرس الآيات

الآية	الصفحة
﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٥٣]	٢١
﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر:٢٧-٢٨]	٢١
﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:٢]	٢١
﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة:١٣]	٢٢
﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ [الروم:٤١]	٢٢
﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠]	٢٢
﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون:١١٧]	٢٤
﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ [هود:١٠١]	٢٤
﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]	٢٧
﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ [هود:٤٦]	٢٧

الآية	الصفحة
﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم:٩٢-٩٣]	٢٦٩
﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧]	٢٦٩
﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [القصص:٨٧]	٢٦٩
﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥]	٢٧١
﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠]	٢٧٣
﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]	٢٧٣
﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]	٢٧٣
﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]	٢٧٤
﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨] ..	٢٧٥
﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل:٨٩]	٢٧٦
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء:١٧٤]	٢٧٦
﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨-١٩]	٢٧٦
﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]	٢٧٦
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفتح:١٠]	٢٧٧

الآية	الصفحة
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحريم:١-٢]	٣٠٥
﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩]	٣٠٦
﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]	٣٠٧
﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥]	٣٠٧
﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات:٢٣]	٣٠٨
﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة:١]	٣٠٩
﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢]	٣٠٩
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]	٣١٠
﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧]	٣١٠
﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢]	٣١٠
﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل:٥٦]	٣١٠، ٣١٤
﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨]	٣١١
﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم:١]	٣١٢
﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧]	٣١٣، ٣١٤
﴿ق ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:١]	٣١٣
﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الذاريات:٢٣]	٣١٤
﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة:١]	٣١٤
﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس:٥٣]	٣١٥

الآية	الصفحة
﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف:٩٥]	٣٣١
﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف:٩٦]	٣٣١
﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف:٩٧]	٣٣١
﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١]	٣٣١
﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٧]	٣٣٢
﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف:١٨]	٣٣٢
﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف:١٩]	٣٣٢
﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل:٥]	٣٣٣
﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ① وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج:١-٦]	٣٣٤
﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج:٧-٨]	٣٣٤
﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج:٨-١٠]	٣٣٥
﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]	٣٣٥

الآية	الصفحة

الآية	الصفحة
﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ﴾ [المؤمنون:١٢-١٣]	٣٧١
﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق:١١]	٣٧١
﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم:٥-١٠]	٣٧٢
﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الإسراء:٢].	٣٧٤
﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤]	٣٧٤
﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج:٧٨]	٣٧٤
﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ [العلق:٩-١٠]	٣٧٥
﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ [العلق:١١-١٢]	٣٧٥
﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٣٥]	٣٧٨
﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة:٩٨]	٣٧٩
﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٠]	٣٧٩
﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ [طه:١٤]	٣٨٣
﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ [الصافات:١٦٥]	٣٨٣، ٣٨٤
﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:١١٧]	٣٨٣

* * *

فهرس الأحاديث والآثار

***

فهرس الشواهد الشعرية

* * *

الفهـرس التفصيـلي

الموضوع/ الفائدة	الصفحة

* * *

الفهرس الإجمـالي

الموضوع **الصفحة**

***